

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد علم الواقع ، لا علم الحصول .

إذن : فذكر كلمة ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ وكلمة ﴿لَنَنْظُرَنَّ﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهود ، وعلم حُجَّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق :

﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسول ، فقال : ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد^(١) الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلم الله سبحانه هنا علم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خيراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوى وعزيز . فهو القاتل :

﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع في يد من لا ضميره ولا إيمان عتده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرَةَ منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّتْ عدَّتُهُمْ ، وقلَّ عددهم .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ .. (١٤) ﴾

أى : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِفُتْرَةٍ إِنَّا غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُمْ مِنْ يُلْقَاهُ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسمىها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشئ العجيب . والجمع : آيات ، وآى . قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت] ، والآيات هنا : الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقبوميته . [لسان العرب : مادة (آيا) .. بتصرف] .

(٢) التَّلْقَاءُ : مصدر لَقِيَ . يقال : يسرنى تلقاؤك أى : لقاءك . ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة .

فى الذكاء أو الجمال أو الخلق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الفواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٢٧)

[فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ (٢١)

[الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شئ له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلاً يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كالألا يمكنهم الحق - عز وجل - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيهم^(١) ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩)

[الأنبياء]

(١) الفئ : الضلال . غوى غيًّا وغيابة : أمن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا جُلِّ حَاسِبِكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٦٩) [النجم] وتغوى القرم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستقوا بالأماني الكاذبة : طلب غيِّه وأصله . وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴾ (١٥٦) [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) .. بتصرف] .

وهكذا تتجلى أمامهم خيستهم .

إذن : الآيات تُطلق على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۚ ﴾ (١٥٠)

[يونس]

أى : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالة ، وهو التمنى ، فالمحبيبات - إذن - قسمان : أمور مُتمنّاة وهى فى الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثانى أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ ، لَا يَالَهُ ، وَلَا يَبْعَثُ ؛ فَقَدْ قَالُوا :

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢٤)

[الجاثية]

(١) الدهر : الزمان الطويل ، ومدة الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ (١) [الإنسان] . وقال ﷻ : « لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » ومعناه : أن ما أصابك من الدهر ، فالله فاعله وليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر ، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون . [لسان العرب : مادة (دهر) - بتصرف] .

وقالوا:

﴿أَنْذَرْنَا مَثَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتِنَا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيفاجأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(١) يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩)﴾ [النور]

السراب : هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد . وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول :

(١) السَّرَاب : ما يرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمّي السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجرى جرياناً ، أى : يتحرك حركة تغدغ الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء . بل خداع ضوئى ويصير ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء .

(٢) القِيعَة : أرض واسعة مستوية لا تثبت الشجر . قال الفراء : القِيعَة جمع القاع ، والقاع : ما تنبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَنَزَّلْنَاهَا نَلْعًا مَصْفًى﴾ [طه] . [اللسان : مادة (قوع) .. بتصرف] .

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ

كَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾

[السجدة]

رغم أن الكون الذي نراه يُحتّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شيء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخّر مع المياه التي تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هي بعينها ؛ لم تزد ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شيء تتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه ^(١) ؛ لأن النظر في الكون وتأمل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

(١) ضللنا في الأرض : قال أبو منصور : الأصل في كلام العرب أن يقال : أضللت الشيء إذا غيبتّه ، وأضللت الميت : دفنته . فالضلال من معانيه : الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد . ومن معانيه : التغييب والدفن . فكانهم يقولون : «إِذَا دُفِنَّا وَغِيبْنَا تَحْتَ الْأَرْضِ . . . فَبَلْ نَحْيَا مِنْ جَدِيدٍ ؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . .﴾ [الرّوم] . [لسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف] .

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٠) ﴿[يوسف] ويقول سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٣٢)﴾ [الأنبياء] .

[الأنبياء]

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ^(١) نُعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾

وهؤلاء الذين لا يرجعون لقاء الله يأتى القرآن بما جاء على
ألسنتهم: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٠٥) ﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ ، ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلاحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك
فلا تفهم أن القولين متساويان .

﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون
قرآناً غير الذى نزل . والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ،
وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى
توعدهم بسوء المصير ^(٢) .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب
الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ولم يرد
الحق سبحانه على قولهم: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن أتى بقرآن غير هذا
أو أبدله » ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ؛ لأن الإتيان
بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يا أيها الناس إنكم تمشون إلى الله حفاة
عراة غرلاً: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا النَّارَ فَاعْلَمِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه
البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم .

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٢٤٥) لهذه الآية . قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:
أحدها: أنهم سألوه أن يعوّد الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً . قاله ابن
جرير الطبري .

الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب ألهمهم وتسفيه أحلامهم . قاله ابن عيسى .

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور . قاله الزجاج .

الأسهل ؛ ليسلموا أن طلب الأصعب منفي بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾
 أى : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ^(١) . بل
 بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .
 إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق
 سبحانه :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]
 وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾
 و﴿تَلْقَاءِ﴾ من «لقاء» ؛ فتقول : «لقيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس
 الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ^(٣) .. (٢٢)﴾ [القصص]

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٢)
 ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ
 لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأمانته .
 (٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من
 مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى : ﴿مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..
 (١٠٥)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع :

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فيما أنزل عشر رخصات معلومات فنسخن بخمس
 معلومات .

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى .

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية . انظر : الإتقان فى علوم القرآن
 للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧) .

(٣) مَدْيَن : اسم قرية شعيب - عليه السلام .

و«تَلْقَاءَ مَدِينٍ» أى : جهة مدين . و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجه إلى مكان معين فنحن نُوجِد فيه . ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول : لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. ﴾ (١٤٤) [البقرة]

والشطر معناه : الجهة ؛ ومعناه أيضاً : النصف ، فيقال : «أخذ فلان شطر ماله» ، أى : نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى : إلى جهة كذا . وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمراتبه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق .

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخَيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق .

ويقال : «فلان ضيق الأفق» أى : أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مرآء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة» .

(١) شَطْرُ الشئ : ناحيته ، وشَطْرُ كل شئ : نحوه وقصدته ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى : ناحيته . «وشَطْرُ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاه . قال تعالى : ﴿ وَخِذْ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ .. ﴾ (١٤٤) [البقرة] . وشَطْرُ الشئ : نصفه ، والجمع : أَشْطَر ، وشَطْرُ : جعلته نصفين . وشاطره ماله : ناصقه . وفى الحديث : أن سعداً استأذن النبي ﷺ أن يصدق بماله كله ، قال : «لا» قال : «لا شَطْر» ، قال : «لا» ، قال : «الثلث» فقال : «الثلث» ، والثلث كثير . وفى الحديث : «الطهور شَطْرُ الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطهور يظهر بحاشية الظاهر . [لسان العرب : مادة «شَطْر» - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى : أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه .
ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن فى منتهى البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجّل عبقريته إلى هذه السن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر .

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتبع إلا ما يُوحَى إليه فيقول :

﴿إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالرد من الحق سبحانه على الكافرين :

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلغ محمد ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله : لقد عشت طوال عمري معكم ، ولم تكن لي قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب . فمن له موهبة لا يكتسبها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلّم ، بل عندما اتهمتموه وقتلتم :

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ۖ ۝١٠٣ ﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى :

﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ ۝١٠٤ ﴾ [النحل]

ولم يخرج النبي ﷺ من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلفات أحد . فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك ، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد ؛ لأنكم لم تجربوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عند الله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن ينسب الكمال إلى إنسان فينتفيه ، فالعادة أن

(١) لحَدَفِي الدين والحَدَّ والتحد : مال عنه ، وحَادَ ، وابْتَعَد . والإلحاد : الجدال والمراء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۖ ۝١٠٣ ﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿ رَفَعُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۖ ۝١٠٤ ﴾ [الأعراف] . والإلحاد : الظلم والجور . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَادِ يَظْلَمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ ۝١٠٥ ﴾ [الحج] . والإلحاد في اللغة : الميل عن القصد . وقوله : ﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ ۝١٠٦ ﴾ [النحل] وأصل الإلحاد : الميل والعُدُول عن الشيء . والمتلحد : المتلجأ ؛ لأن اللاجئ يميل إليه . [لسان العرب : مادة (لحد) - بتصرف] .

(٢) عجم : العجم والعجم : خلاف العرب والعرب . ورجل عجمي وأعجمي : غير عربي . قال أبو إسحاق : الأعجم : الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربياً . والمعجمي هو الذي من جنس العجم أنصح أو لم يفصح . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ ۝١٠٧ ﴾ [الشعراء] .

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن يتحلل^(١) كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلغ له ، وكان يجب أن يتعقلوا تلك القضية بمقدماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان^(٢) ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً^(٣) .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم^(٤) ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴾ (١٦٤)

[آل عمران]

أى : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : من أمة العرب ، لا من أمة العجم ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : من قبيلتهم التي يكذب أصحابها رسول الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يغب عنكم فترة ؛ لتقولوا

(١) يتحلل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول : نسبه إليه . ونحل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قبل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : حنان اللجام : السير الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنة . والعنان : الحبل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالعبير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرغيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضل صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره ضل . [لسان العرب : مادة عنن] - بتصرف .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ نَقْشًا مِّنْ كِتَابٍ وَلَا نُقْطَةً مِّمَّنْ يَنْقُشُونَ ﴾ (١٨) [الأنبياء] .

(٤) ولما هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٧٨) [التوبة] .

بُعْثَ بَعْثَةً ؛ لِنَعْلَمَ عِلْمًا مِنْ مَكَانٍ آخَرَ ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَى مَعْلَمٍ عِنْدَكُمْ
وَلَا إِلَى مَعْلَمٍ خَارِجَكُمْ ، وَلَمْ يَتْلُ كِتَابًا ، فَلِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ،
فِيَجِبُ أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ هَذَا مَقْدُمَةً وَتَقُولُوا : فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ لَهُ هَذِهِ
الْحِكْمَةُ فَجَاءَتْ ؟

أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَوَاهِبَ وَالْعَبَقِرِيَّاتِ لَا تَنْشَأُ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ ، وَلَكِنْ
مَخَائِلُ الْعَبَقِرِيَّةِ إِنَّمَا تَنْشَأُ فِي نَهَايَةِ الْعَقْدِ الثَّانِي وَأَوَائِلِ الْعَقْدِ الثَّلَاثِ ، فَمِنْ
الَّذِي أَخَّرَ الْعَبَقِرِيَّةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ الْبَلِيغَ الَّذِي
أَعْجَزَكُمْ ، وَأَنْتُمْ أُمَّةُ الْبَلَاغَةِ وَأُمَّةُ الْفَصَاحَةِ الْمُرْتَاضُونَ ^(١) عَلَيْهَا مِنْ قَدِيمٍ ،
وَعَجَزْتُمْ أَمَامَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟

كَانَ يَجِبُ أَنْ تَقُولُوا : لَمْ نَعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، فَلِذَا حَلَّ لَكُمْ
الْلُغْزُ وَأَوْضَحَ لَكُمْ : أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِي ؛ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَصْدُقُوهُ ؛
لأنه ﷺ يعزوه إِلَى خَالْقِهِ وَرَبِّهِ سُبْحَانَهُ . وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنْكُمْ مَضْطَرِبُونَ فِي
الْحُكْمِ أَنْكُمْ سَاعَةً يَقُولُ لَكُمْ : الْقُرْآنُ بِلَاغٌ عَنِ اللَّهِ ، تَكْذِبُونَهُ ، وَتَقُولُونَ :
لَا ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِكَ ، فَلِذَا فُتِّرَ عَنْهُ الْوَحْيُ مَرَّةً قَلْتُمْ : قَلَاهُ ^(٢) رَبُّهُ .

لِمَاذَا اقْتَنَعْتُمْ بِأَنَّهُ رَبًّا يَصِلُهُ بِالْوَحْيِ وَيُهْجَرُهُ بِمَا وَحَى ؟

أَنْتُمْ - إِذَنْ - أَنْكُرْتُمْ حَالَةَ الْوَصْلِ بِالْوَحْيِ ، وَاعْتَرَفْتُمْ بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ عِنْدَمَا
غَابَ عَنْهُ الْوَحْيُ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَتَّبِعُوا وَتَعُودُوا إِلَى عَقُولِكُمْ ؛ لِتَحْكُمُوا
عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الْأَمْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ ،
يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

(١) الْمُرْتَاضُونَ : الَّذِينَ لَهُمْ دَرَجَةٌ ، فَكَذَلِكَ أَلَسْتُمْ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ .

(٢) قَلَاهُ رَبُّهُ : أَبْغَضَهُ وَتَرَكَهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : ﴿ مَا وَفَّقَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَى ﴾ [الضحى] .

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ﴾^(١) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ^(٢) مَرْيَمَ ﴿[آل عمران ٤٤]﴾

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾^(٣) إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ.. ﴿[النقص ٤٤]﴾

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ ثَارِيًا﴾^(٤) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ﴿[النقص ٤٥]﴾

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٥) [المنكبات ٤٨]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدمات ؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله ؛ لذلك ينهى الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

وحين ينهيك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

(١) أفلاهم : ساهمهم ، وقيل : أفلاهم التي كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج : الأفلام هنا : القديح . وهي قديح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القرعة ، وإنما قيل للسهم : القلم ؛ لأنه يُقْلَمُ ، أى : يُبْرَى . وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شئ ، فقد قْلَمْتَهُ ، من ذلك القلم الذي يكتب به ، وإنما سُمِّيَ قَلَمًا ؛ لأنه قْلَمَ مرة بعد مرة ، ومن هنا قيل : قْلَمْتُ أَظْفَارِي . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ .. ﴿[لقمان ١٧]﴾ [لسان العرب : مادة (قلم) - بتصرف] .

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : المائل . قال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ .. ﴿[آل عمران ٣٧]﴾ .

(٣) الغربى : الجبل الغربى الذى كُلِّمَ الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى المقدس (طوى) . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٩١ - بتصرف] .

(٤) ثارياً : مقيماً والشواء : الإقامة ، نويت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿وَمَا وَاعَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَفْوًى الطَّاغِيينَ﴾ .. ﴿[آل عمران ١٥٥]﴾ . [لسان العرب : مادة (ثوا) - بتصرف] .

سبحانه وتعالى مُتَرَه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذي ينبه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل .

وقول الحق سبحانه في آخر الآية : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يدلنا على أن القضية التي كذبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم في استخدام المقدمات المحسنة التي يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التي يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكروا وقالوا : محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلّم ، ولم يغب عنا فترة ليتعلّم ، وظل مدة طويلة إلى سن الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جاءت هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءت من عند الله ، فكان يجب أن يصدّقوه .

ومهمة العقل دائماً مأخوذة من اشتقاقه ، « فالعقل » ^(١) مأخوذ من « عقال » البعير . وعقال البعير هو الحبل الذي تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوقر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك ، إلى أن نحتاجه في حركة .

إذن : فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم الملكات ؛ لأن كل ملكة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها ملكة أن ترى كل شيء ، فيقول لها العقل : لا داعي أن

(١) العقل : النهي ، ضد الحق ، وعقل يعقل فهو عاقل . قال ابن الأنباري : الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها . والعقل : الثبوت في الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل : لا تسمى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك ^(١) .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة «الحكمة» ، مأخوذة من «الحَكَمَة» ^(٢) وهى فى «اللجام» الذى يوضع فى فم الفرس ؛ حتى لا يجمع ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين للملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات الحسنة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ^(٣)

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جربتموها ، أفأكذب على الله ؟ ! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ^(١) [الإسراء] .

(٢) حكمة اللجام : ما أحاط بهنكى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمتنع من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمتنع عن مخالفة رآكبه . [لسان العرب : مادة (حكم)] .

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك : ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ٨٢) وقال : إسناده حسن .

(٣) افترى : اختلق ، الفرية : الكذب . وافترى : تفيد المبالغة فى الكذب .

فى الكِبَرِ ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟
وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل
إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كنتم أنتم تتهموننى بذلك ،
فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم
كذبتُمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت : إنه من عند نفسى
لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدعى . ولكن أرفعه إلى
غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم .

وقوله الحق : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه
كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد
على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب
على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله
سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقد بها ،
لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد
ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء
فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر
 وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب
الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يبين لهم رسول الله
ﷺ : إن قلتُم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند
الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من
يكذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتكذبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيّناً أدب النبوة :

﴿وَأَنَا أَوْ بِإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبا]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال^(١) .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : «أن يذكر شيئاً أو أشياء ، إما تفصيلاً بالتص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، (الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (القصص) ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : «والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهند» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ﴾ (٢٥) [ب]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجزيمتك لن أسأل أنا عنها ، وجزيمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجماع لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا تُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختر الأسلوب الذى يهذب ، لا ليهيج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبنى الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْفِقُونَ اللَّهَ
يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مُبَحَّحَةً وَقَعَلَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(١) ﴾ (١٨)

(١) قال الجوهري : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى من حبيب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكانه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك أمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الأمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطيع المأمور الأمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتبت نهييه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شيء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشيء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشيء ولم تنه عن شيء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهي ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهي .

إِذَنْ : فَمَنْ الْحَقُّ ^(١) أَنْ يَعْبُدَ أَحَدَ الْأَصْنَامِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَضُرُّ مِنْ خَالِفِهَا ، وَلَا تَنْفَعُ مِنْ عِبَادِهَا ، فَلَيْسَ لَهَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ .

وَمَنْ أَوْقَفُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ نَسُوا أَنْ فِي قُدْرَةِ كُلِّ مِنْهُمْ أَنْ يَنْفَعُ الصَّنَمَ وَأَنْ يَضُرَّهُ ، فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ الصَّنَمَ ، وَأَنْ يَصْلَحَهُ إِذَا انْكَسَرَ ، أَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْسِرَهُ بِأَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ الْعَابِدُ أَقْدَرُ مِنَ الْمَعْبُودِ عَلَى الضَّرِّ وَعَلَى النِّفْعِ ، وَهَذَا عَيْنُ التَّخَلُّفِ الْعَقْلِيِّ .

إِذَنْ : فَمِثْلُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ لَوْنٍ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَوْ عُرِضَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ عَلَى الْعَقْلِ ؛ فَسَوْفَ يَرْفُضُهَا الْعَقْلُ السَّلِيمُ .

وَعِنْدَمَا تَجَادَلُهُمْ ، وَتَثْبِتَ لَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، تَجِدُ مِنْ يَكَابِرٍ قَائِلًا : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ يَعْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، وَلَكِنْ أَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا شَفِيعًا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الشَّفِيعُ مُمْتَنِعًا بِمَكَانَةِ وَمَحَبَةِ عِنْدَ مَنْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ ^(٢) ؟

ثُمَّ مَازَا يَقُولُونَ فِي أَنْ مَنْ تَقْدِمُ لَهُ شَفَاعَةٌ هُوَ الَّذِي يَنْهَوِ عَنْ اتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ آلِهَةً وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَتِهَا ؟

وَهَلْ هُنَاكَ شَفَاعَةٌ دُونَ إِذَنْ مِنَ الْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ ؟ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ الْأَمْرُ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ :

(١) الْحَقُّ : وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَالْحَقُّ : ضِدُّ الْعَقْلِ أَوْ قَلَّةُ الْعَقْلِ وَضَعْفُهُ . وَالْحَقِيقَةُ : الْحَقِيرَةُ ؛ لِأَنَّهَا تَعْقِبُ شَارِبَهَا الْحَقَّ . وَالْأَحْمَقُ مَا خُذَ مِنْ انْحِمَاقِ السُّوقِ إِذَا كَسَدَتْ ، فَكَأَنَّهُ قَدْ عَقِلَ حَتَّى كَسَدَ . قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْحَقُّ أَصْلُهُ الْكَسَادُ . وَيُقَالُ : الْأَحْمَقُ الْكَاسِدُ الْعَقْلُ . وَالْحَقُّ أَيْضًا : الْغُرُورُ . وَانْحَمَقَ الرَّجُلُ : ضَعُفَ مِنَ الْأَمْرِ . [اللِّسَانُ : مَادَّةُ (حَقَّقَ)] .

(٢) يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يُوسِّدُ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه] ، إِنْ ادَّعَى الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ - ادَّعَاءٌ بَاطِلٌ وَمَعَ بَطْلَانِهِ اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَشَفَاعَةُ اللَّهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْحَبِيبِ وَمُحِبِّهِ فَرَضًا وَفَضْلًا .

﴿قُلْ أَتُبَيِّنُونَ لِلَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. (١٨)﴾

[يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتُبَيِّنُونَ لِلَّهِ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦)﴾

[الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿قُلْ أَتُبَيِّنُونَ لِلَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شيء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شيء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنزّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره فى تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟
إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا الْأَبْتُغُوا ^(١) إِلَى ذِي الْعَرْشِ سُبُلًا ^(٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن هؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شىء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلک من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملکوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الفنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدعى لنفسه صنعائها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هى التى خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامِل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعى صنعائها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿ قَدْ ابْتُغُوا الْبُعْثَ مِنْ قَبْلِ وَلَقَدْ لَكِ الْأُمُورُ .. (١٨) ﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بغى)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له .
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ،
فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من
المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهربىاء جهد العلماء الذين درسوا
علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح
الكهربى ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجية التى يوضع فيها السلك
الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد
تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة
لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه
الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ،
وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية
كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من
البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن نحمد إلا الله سبحانه .

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذى حقاً هو
من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس^(١) - ضمن ما خلق - وإذا أشرقت
أطفاً الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان
ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته .
ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء
فلا تحطمنا ولا نحطمها ، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي سَائِقِهِمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ .. (١٧) ﴾ [لقمان] ويقول
سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ
شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَائِغًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .. (١٠) ﴾ [الفرقان] .

وياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاتي جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل وقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعباد بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساو لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١)

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ (٢١٣) ، والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلغوا في عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ، فاهتموا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنشَدْنَاهُمْ عَلَيْ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٢٢) ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرَتًا عَلَیْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (٣٠) ، فاختلغوا بعبادة غیر الله ، فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بمقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها في المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعاني فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣) ﴿ [البقرة]

لذلك فهم البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى ^(١) ؛ لأن الأصل في المسألة هو الإيمان لا الكفر ^(٢) .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴾ (٢١٣) [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في آية البقرة في المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان ^(٣) ، فليس هناك أناس أولى من

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَخَذَ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وأدم عشرة فروع كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف في آية سورة يونس وتأخيرها في سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلَاقَ (٢٢٣) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَهُ بُدْءُ عَلَى رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٢٢٤) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَتْ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِئَةٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ (٢٢٥) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢٢٦) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان في مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين في أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٦) [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحججون^(١) إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذي وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طويلاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا^(٢) لِبَرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴾ (٢٦) [الحج]

(١) بكّة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكّة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : حق العتق ، وسميت بذلك لأنها كانت تلقى رقاب الجبابرة إذا ألدوا فيها بظلم . ينصرف من تفسير القرطبي (١٤٨٦/٢) .

(٢) يحججون إليه : يقصدونه يشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجاني في كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشيء العظيم ، وفي الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة في أماكن مخصوصة » .

(٣) بوائنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان ليتزل به . وبوائنا له : هبنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَفْعَلُ .. ﴾ (٢٥) [يوسف] . [اللسان : مادة (بوا) - ينصرف] .

وهكذا يَصْدُقُ قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من باين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(١) وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ^(٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ^(٣)﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصبي عن الحكم الإيماني مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمت شيئاً ، ولم تجعله دائماً فى بؤرة^(١) شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُسْتَتِراً الفكر فى أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومتبهاً إلى المعلومة التى تَصَلُّكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر فى حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خال من أى معلومة غيرها ، فتثبت فى بؤرة

(١) ذرية الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذرارى . قال تعالى : ﴿ذُرِّيَّةٌ مِنْ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ .. (٢٤)﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذرأ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذر بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى فرَّمهم فى الأرض ، أى : فرقهم . [اللسان : مادة (ذر)] .

(٢) بأر الشيء : خياه وأخبره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذى يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التى تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بأر) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال - أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفذ عن ذهنه كل المشاغل الأخرى^(١) ؛ ليركّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل في الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها^(٢) .

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتي في الجزء الفلاني من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام ج. حامد الغزالي - في إحيائه (كتاب التعميم) « شاغلة وصارفة » ؛ لما جعل الله الرجل من قلبين في جوفه .. (١) : [الأحزاب] ، ومهما وزعت الفكرة قصرت عن ذلك الحقائق ؛ ولذلك قيل : « العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كله » والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع . قال الزبيدي في تحف السادة المتقين (١ / ٥٠٤) : « لذا كرهوا التمتع - الاشتغال - في دروس في علمين مستقلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول » .

(٢) وأمر نذلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شيء ، حث عليه حديث رسول - ﷺ بالنسبة للصلاة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وه - أفعه الآخر - » أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٠) والأخيهان هما البول والبراز . وكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله شيء .

ولذلك فالتلميذ الذكي هو من يقوم بما يسميه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى : أن يقرأ الدرس ثم يفلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه : «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحت له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقي درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهي ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتى الران^(١) الذى قال عنه الحق سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين]

وبين النبي ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جِئِر^(٢) قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة^(٣) . ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول : « ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة

(١) الرين : الطبع والدنس . وهو كالصدأ يغشى القلب . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب . يتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب بهريقه ويستعار للخشاوة تغطي على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] .

(٢) جِئِر كل شيء : أصله . ومنه هنا الحديث : جِئِر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . (اللسان مادة : جفر) .

(٣) السنة : سنة النبى ﷺ .

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوخت^(١) ، أي : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتي الرآن على القلب .

إذن : فالغفلة تلتصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان في نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته^(٢) . ومثال هذا : المسلم الذي يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرهقاً وفي ضيق .

ولذلك جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجحياً لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»^(٣) .

إذن : فالغفلة هي أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

(١) الوخت : الأثر في الشيء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت . وفي الحديث : «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بموضة ، إلا كانت وكتة في قلبه» . ومنه في حديث حذيفة : «... و يظل أثرها كأثر الوخت» . [اللسان : مادة (وكت)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعر في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» متفق عليه . أخرجه البخاري (١٦٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٤) وأحمد في مسنده (٣٨٦ / ٥ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان . مثل الصفا : الصخرة المساء العريضة .

مرباداً : أسود مشوباً بغيره .

الكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بمروءة .

مجحياً : مائل ، أي : عن الاستقامة والاعتدال ، فشب القلب الذي لا يمي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [انظر لسان العرب مادة : جحى] .

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء :
﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (١٧٠) [البقرة]

والف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبق كل مطلوب لله ^(١) ، فإن قلت : ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطري ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطري من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على السنة الكافرين في القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (٢٢) [الزخرف]

ولم يقل : «معتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ آباء قذوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن آباءه على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى .

(١) أَلْفَيْنَا : وجدنا . يقال : أَلْفَيْتَ الشَّيْءَ إِذَا وَجَدْتَهُ وَصَادَقْتَهُ وَلَقِيتَهُ . انظر اللسان مادة (لَقى) .
(٢) إن آدم عليه السلام طبق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التي نُهي عنها ، فكان نسبياً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَغَسَّيْ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴾ (١١٥) [طه] وهذا لا ينافي أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط ^(١) ؟
فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول: وهل من
المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا ^(٢) لَهَا نَذِيرٌ ^(٣)﴾
[فاطر]

والذي أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح
عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطراً على
المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً
برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة ؟

ولم يفتن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة
إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٤)﴾
[البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَى ^(٥)﴾
[طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذي
طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء . وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله
الحق: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ^(٦)﴾
[المائدة]

(١) هناك فرق بين النبي والرسول ، فالنبي هو من بُيِّنَ وأُوحِيَ إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ
قوة رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبي رسولاً .

(٢) خلا: مضى . أى: مضى وأرسل . ويقال: القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ^(١)﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿تَكُونُوا وَاشْرَبُوا مِنْهَا بِمَا اسْتَقْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ^(٢)﴾ [الحاقة] .

(٣) القربان: ما قُرِبَ إلى الله - عز وجل - وتقرَّبَ به ، تقول: قُرِبْتُ لله قرباناً . وتقرَّبَ إلى الله بشيء .
أى: طلب به القرْبَ عند الله تعالى . قال اللبث: القربان ما قُرِبَ إلى الله ، تبغى بذلك قرْبَ
ووسيلة . [اللسان: مادة (قرب) - يتصرف] .

وَابْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَدَّمَا الْقَرِيبَانِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . إِذْنُ : فَبِمَا قَدْ عَرَفَا أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًا .

وَحِينَ قَالَ قَابِيلُ لِأَخِيهِ : ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بَعْدَ مَا تَقَبَّلَ اللَّهُ قَرِيبَانِ أَخِيهِ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْهُ . قَالَ هَابِيلُ : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثُمَّ فِي قَوْلِ هَابِيلَ : ﴿لَئِنْ سَطَعَتْ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِيَدَيْهِ إِيَّاكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إِذْنُ : لَوْ لَمْ يَكُنْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولًا فَمِنْ بَلَّغِ أَبْنَاءَهُ أَنَّ اللَّهَ يَشِيبُ وَيُعَاقِبُ ؟

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصُدُودِ خَوَاطِرِنَا عَنْهَا : ﴿وَقَوْلَا كَلِمَةً (٢٩) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقَضَائِهِمْ فِيهَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ - قَبْلَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانَ يُعَاقِبُ مَنْ يَكْذِبُ الْبَلَاغَ عَنْهُ وَمَا جَاءَ بِهِ السَّابِقُونَ مِنَ الرِّسَالِ ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٣٠) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٣١) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (٣٢) وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

(١) وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَلَ الْخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُودٍ لِقَضَائِهِ بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فَاسْعِدِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعِثْ الْكَافِرِينَ [ابن كثير ٤١١ / ٢] .

(٢) الْحَاصِبُ : رِيحٌ صَرَصَرَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةً الْبَرْدِ عَاتِيَةً شَدِيدَةَ الْهَيُوبِ جَدًّا تَحْمِلُ عَلَيْهِمْ حَصْبَاءَ الْأَرْضِ ، فَتُطْفِئُهَا عَلَيْهِمْ وَتَقْتُلُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

(٣) عَذَّبَ بِهَا قَوْمَ نُمُودَ ، جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَصَمَّتْ أَذْنَهُمْ وَأَخْمَدَتْ مِنْهُمْ الْأَصْوَاتَ وَالْحَرَكَاتِ . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

(٤) الْخَسْفُ : إِفْهَابُ الْأَشْيَاءِ فِي الْأَرْضِ . وَخُفُفَ بِالرَّجُلِ : إِذَا أَخَذَتْهُ الْأَرْضُ وَغَابَ فِيهَا ، وَقَدْ عَذَّبَ بِهَذَا قَارُونَ . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٣) [الأنفال]

أى: أنه سبحانه قد أجلّ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التي سبقت ، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم في الدنيا ، ولكنه يؤخر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضى سبحانه في ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه في جانب من أرسله ، لا من عاند رسوله ﷺ .

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٤)

والآية كما عرفنا هي الشيء العجيب ، وإما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهي معجزة بالنسبة إليهم ؟

نقول: إن استقبال القرآن قرع تصديق للرسول ﷺ ، وقد حدث اللبس عندهم ؛ لأنهم ظنوا أن الآية هي الآيات المحسنة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التي سبق بها الرسل إنما جاءت لتتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عراض وتحضيض ، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا فَتَنَّاكَ اللَّهُ...﴾ (٢٤) [النمل] وتدخل على ماضٍ في تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ (٢٥) [التأفرون] أى: لولا تؤخرني ، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ (٢٥) [النور] ، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها في كتب اللغة [القاموس القويم: ٢٠٧/٢ ، ٢٠٨] .

رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التي اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان ^(١) . فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولصارت خيراً لمن لم يشاهدها .

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسي يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حدث به له أن يكذب ، وله أن يصدق ، ولكننا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن . وثقتنا فيمن قال هي التي جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول : لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن . وتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدّق صدق ، وإن قرأت ولم تصدّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

(١) وهذا بما خص به الله رسوله ﷺ وأمه ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمي أدركته الصلاة فليجئ ، وأحلت لي المفاتيح ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة* من حديث جابر بن عبد الله . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

لها ، وقد جاءت لتريب الإيمان في القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شدّ أزهرهم الإيمانى ، وحدثنا كتب السيرة أيضاً عن حفة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدّق الرواية ؛ فليصدقها ، ومن لم يصدقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقي إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وإن دخلت «لولا»^(١) على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لايتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدت تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء ، لوجود شيء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حث وتخصيض .

وهم هنا قد قالوا : ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ [٤٨]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسول السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبهاً بالكفر

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كونه عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢١] [مبأ] وجملة الجواب فعلية وتقرن باللام إذا كانت مثبتة في الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [٢١] [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [٢٥] [النور] الفاموس القويم ج ٢ / ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمَنَ به ، وزاد تمسكهم بالإيمان .

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل .

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ، لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان . أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها .

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(١) ﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعُيُنٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ^(٢) ﴾ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٣) ﴾ (٩٢) أَوْ تَأْتِيَ بَالِلَةٌ ^(٤) فَيَبِلَ ^(٥) ﴾ (٩٣) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ ^(٦) ﴾ (٩٤) أَوْ تَرْقَى ^(٧) فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ .. ﴿ (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضل المرسل .

(١) ينبوع : العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع يتابع . [اللسان : مادة نبع] .

(٢) كسفاً : جمع كسفة وهي القطعة ، والمراد : العذاب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ نُفُوسًا نَّخَبِئُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْفِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (٩١) [مبأ] . [اللسان : مادة كسف] .

(٣) القيل : الجماعة من أي شيء .

(٤) زخرف : نقش وزينة وتمويه بالذهب . والزخرف : الذهب في غيره . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطُنَّ أَعْلَاهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَقَارَنَّا قَبْلًا أَوْ نُفَارًا .. ﴾ (٩٢) [يونس] .

[اللسان : مادة زخرف]

(٥) ترقى : تصعد ، والرقى : الصعود . وفي الحديث : اكنث رقاً على الجبال أي : صعداً عليها ، وفعل للمبالغة . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الثَّرَاقِي ^(٦) وَقِيلَ لَهَا مَن رَّاقٍ ^(٧) ﴾ [القيامة] .

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً^(١)؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذب بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً، وهو ﷻ يُبلغ عنه، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: "إن رب محمد قد قلاه"^(٢)، حين فتر^(٣) الوحي عنه ﷻ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٢)﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له رب، وفى الهجر سلّموا بأن له رباً، وهذا تناقض فى الشيء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى^(٤).

(١) الدحض: الدفع والبطالان. ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ .. (٦٦)﴾ [الشورى] أى: باطلة.
(٢) قلاه: أبغضه وتركه وتخلّى عنه، عن جندب الجبلى قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد ودّع محمد. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى (٢) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٣) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٤)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربّه».

(٣) فتر الوحي: انقطع.

(٤) أى: أنه يُحكّم هواه فى كل تصرفاته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ هواه إلهاً له، يأمر بأمره، ويتهنى بنهيه، لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَخْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَى عَلَى بَصَرِهِ غشاوةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٣)﴾ [الجاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعَلِّمُ الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلم رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠) [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرُفٌ عَابِئَاتٌ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بمنين الجذب كالسنين التي أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجذب والقحط (٢١) ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

(١) المقصود بالرسول هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْبَیِّنِ﴾ (٢٠) وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (٢١) كَرِهُمَا كَاتِبِينَ (٢٢) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (٢٣) ﴿[الانتظار].

(٢) الجذب : تقيض الخشب ، أى : الجفاف وانقطاع المطر . وفى حديث الاستسقاء : «هلكت المراسى وأجدبت البلاد» ، أى : قحطت وقُلت الأسعار . [اللسان : مادة (جذب)].

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجذب ؛ لأنه من أثره . وفى حديث الاستسقاء : «قحط المطر وأحمر الشجر» هو من ذلك . وقد يشق القحط لكل ما قلَّ خيرُه ، والأصل للمطر . والقحط فى كل شئ : قلة خيرِه . [اللسان : مادة (قحط)].

مُسْتَهْمٍ مِنَ الْقَحْطِ وَمَنِ الْجَذْبِ كَانَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ : «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(١).

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ ، ولكنهم ظلوا ييحتشون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال : لقد جاء مطرنا نتيجة لنوء^(٢) كذا ، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاه دعوة رسول الله ﷺ ، مثلهم مثل مَنْ جلس يبحث في أسباب النصر في الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية في العُدَّة والعِتَاد^(٣) . ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره .

أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا الحروب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل^(٤) روحه ورغبته في القتال ونبل الشهادة ودخول الجنة .

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : «اللهم اشد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف» . الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) وأحمد في مسنده (٤٧٠/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢٦) .

(٢) ناء بنوء من باب قال يقول أي : نهض . ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء . المصباح (١٥١/٢) .
(٣) العِتَاد : العُدَّة ، والجمع : عُدَّة وعُدَّة . قال الليث : العِتَاد : الشيء الذي تعدّه لأمر ما وتهبّه له . وفي حديث صفته ﷺ : «لكل حال عنده عِتَاد» أي : ما يصلح لكل ما يقع من الأمور . والمراد هنا بالعِتَاد : الأسلحة وآلات الحرب . قال تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان] . [اللسان : مادة (عتد)] .

(٤) (الصقل : الجلاء والشحذ ، والمراد : الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين . [اللسان : مادة (صقل) - بتصرف] .

إذن : فلمدد السماء مدخل ، ومن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدي المؤمنين المقاتلين . ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هش^(١) لا يصنع نصراً^(٢) ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة .

ولذلك نجد من خاضوا حربنا المنتصرة فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان فى الانتصار .

وهكذا نجد أن من يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة رأى المادى . وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبت فى قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة من ينكرون قيمة الإيمان .

ومثال هذا فى تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولا سوف يظهر ، وأنهم - أى : اليهود - سيتبعونه^(٣) ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قتل عاد وإرم .

(١) الهش والهشيش من كل شيء : ما فيه رخاوة ولين ، والمراد : الضعف .

(٢) يقول تعالى : ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَكِيمِ (١٢٣) ﴾ [آل عمران] .

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا فى قرآنه ، فقال عن اليهود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا فِيهِمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقِيَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] . وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرأ فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نبعه قد أظل زمانه فتقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٦٤ / ١) نقلاً عن ابن إسحاق .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فلنسبق إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن : فالله ينصر دينه بالفاجر ^(١) ، رغم ظن الفاجر أنه يكيّد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا ^(٢) وظلّوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ ^(٣) فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس]

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فمن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حينئذ . فقال لرجل عن يدعى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة . فقيل : يا رسول الله الرجل الذي قلت له أنفأ «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً . وقد مات فقال النبي ﷺ : «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب . فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال : «الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى في الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» . حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١) .

(٢) أرجفوا : اضطربوا اضطراباً شديداً . (اللسان مادة : رجف) .

(٣) المكر : احتيال في خفية . قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥)﴾ [النمل] . قال أهل العلم بالتأويل : المكر من الله تعالى جزاء سُمي باسم مكر المجازي كما قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. (٦)﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسئة في الحقيقة ، ولكنها سميت سئة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. (٧)﴾ [البقرة] فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ، ولكنه سُمي باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . قال ابن الأثير : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه . (اللسان : مادة (مكر)) .

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر.

وقوله الحق: ﴿مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛ لتحكم الكون بقوانين .

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والنااميس وتركها تتحكم لما شذَّ شئ عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُوماً عليها، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويوجّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفى ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكرأ ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مُكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير»^(١) .

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشئ بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحفيظاً أو تقديراً . وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرُوهٌ﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٨١) .

أى : عليك أن تأخذ ذلك فى مقابله فى ذات الفاعل والفعل ، ولكن لاتأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى - مكر ؛ لأن المكر كيد خفىٌ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلِع على كيدك ، ولا تطلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشى منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتنصت^(١) عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسس عليه ؟

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يهدم من بعض الماكريين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية .

ومكرهم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

(١) التَّنصَّتْ : المراد به : التجسس . وَأَنْصَتَ الرجلُ إِنْصَاتًا : استمع باهتمام . قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ..﴾ [الأعراف : ٢٠٤] . [اللسان : مادة (نصت) - بتصرف] .

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكركم .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا^(١١) لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي «إذا الفجائية» مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب .

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويزدقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجذب ، بل دبوا المكر فجأة ، فيأتي قول الحق سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِن رُّسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلى القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ^(١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ^(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ^(١٢)﴾ . [الانفطار]

واقرا أيضا قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا^(١٤)﴾ . [الإسراء]

(١) «إذا» تأتي لمعين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمان المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحيانا على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلا لفعل محذوف يفسره الفعل الذي بعده مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ^(١٥)﴾ [التكوير] ، وقد تكون «إذا» للمفاجأة وتختص بالجملة الاسمية كقوله تعالى : ﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَابٌ مُّسْتَبْشِرٌ^(١٦)﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ^(١٧)﴾ [الروم] . وكما في الآية : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ..^(١٨)﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التى عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحي» ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوُا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال]

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُكُل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِئهم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دَلَّ على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسَّهم ضررٌ دعوا الله تعالى مضطجعين^(١) وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسَّهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مروا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد غواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..﴾ (٢٢) .

وكلمة ﴿يُسِيرُكُمْ﴾ تدل على أن الذي يسير هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٢٦) .

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض . قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه فجع عندهم أن يقولوا (اضجع) فأبدلوا التاء طاءً . قال تعالى : ﴿تَجْعَلُنِي جُودُهُمْ مِنَ الْمَضْجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ..﴾ (٢٦) [السجدة] . [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ... ﴾ (٢٩) .

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٨) . [سبا]

فكان هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً :

لو أنكم فعلتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة^(١) وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن المستحسن والمصحح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديرأ لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستدكار .

وكذلك نقول : «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتَّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «سار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إن نظرت إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تبعتها أسباباً ؛ وجدتها تتسبب إلى الله سبحانه .

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعمد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

سُورَةُ التَّوْنِ

٥٨٤٥

فمثلاً : إذا سُئِلْتُ : مَنْ صَنَعَ الْكَرْسِي ؟ تجيب : النجار . وإن سَأَلْتُ النجار : مَنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِالْخَشَبِ ؟ سيجيبك : مَنْ التاجر . وميقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ؛ لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى^(١) .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ قَلَمًا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ^(٢) وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴾ (٢٩) ﴿ [القصص]

فهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سَيرَ بأهله ؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ (٤٢) ﴿ [النجم]

فهو سبحانه الذي خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذي يقول في القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴾ (٨٢) ﴿ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

(١) يقول عز وجل : ﴿ يَخْتَرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَهَاءَ رَبِّكُمْ تَوْفَرُونَ .. ﴾ (٦١) ﴿ [الرعد] ويقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .. ﴾ (١٧٧) ﴿ [هود] .

(٢) وذلك أن شعبياً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ بِحَنِيءَ هَارُونَ عَلَى أَنْ تَأْخُذَ بِنِسَائِي حَنِيعَ هَارُونَ

أَتَمَّتْ فَشَرَأْتِ مِنْكَ .. ﴾ (٢٧) ﴿ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ

فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا قَوْلُكَ وَكَيْلٌ ﴾ (٢٨) ﴿ [القصص] ، وقد ثبت في الحديث أن موسى عليه

السلام قضى الأجل الأم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣ / ٢٨٤ - ٣٨٧) .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك المجلزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكٌ﴾ (١٧) [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (١٧) [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله (١) .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرك سائقك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كمّ عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه معنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب قارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين . أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣ / ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٢٩٤) .

وهنا ملحظ في السير في البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير في الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ ^(١) أحداً من المارة ، أو يتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة ؛ ليعاونه . أما المرور في البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة ^(٢) كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم .

إذن : فالمرور في البحر أدق من المرور في البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية التي نحن بصدد خوارطنا عنها يقول عن السير في البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٢) [يونس]

وهكذا لا نجد أن في الآية نفسها حديثاً عن السير في البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر في البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير في البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى ^(٣) فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَعَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴾ (١٥) . [الأحقاف]

وجاءت كل الحيشيات بعد ذلك للآم ، ولم يأت بأي حيشية للأب ،

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ نَادَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَتَصَرَّعُهُ .. ﴾ (١٨) [النصر] . وقال : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ (٢٢) [يس] . والصرىخ : المفيت . [اللسان : مادة (صرخ) .. بتصرف] .

(٢) سبل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم ، والجمع : السوايل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَمَتَلَّكُمْ فِيهَا سَبِيلًا .. ﴾ (٢٢) [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ينضوى إليه : انضم ولبأ . وينضوى في الشيء : يدخل فيه ويتدرج تحت . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ^(١) ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۝ (١٥) ﴾ [الأحاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثة الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في بطنها ؛ لا يعيه ، وفي طفولته الأولى لا يعي أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكّل وملبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافئاً .

إذن : فحيثة الأم هي المطلوبة ؛ لأن تعبها في الحمل والإرضاع لم يكن مُذكرًا من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ، ترك الحق سبحانه حيثة البر وأبان بالتفصيل حيثة البحر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ^(٢)

[يونس]

﴿ ٢٢ ﴾

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذي يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أي : قطعت . وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهًا عَلَىٰ وَهَانٍ ۖ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ۚ ۝ (١٦) ﴾ [لقمان] . وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْجَيْنَ أُولَٰئِهُنَّ حَوْلَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَةَ ۚ ۝ (٢٣) ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى علي بن أبي طالب وأنها حملت ستة أشهر وانتمها زوجها بالزنا ، وبرأها على استدلال بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فهو السنة : ٣ / ٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

﴿ ١١٩ ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أي : المركب ؛ وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ ۚ ۝ (١٢) ﴾

[النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مواجر) أي : السفن . القاموس القويم (٢ / ٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يفرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا..﴾ (٢٧) .

[هود]

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الأفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الأفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارِضٌ مُنْظَرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..﴾ (٢٥) .

[الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ^(١) ..﴾ (٢٦) .

[الحجر]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ مَنَاجِبُهَا نِغَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ..﴾ (٥٧) .

[الأعراف]

(١) لواقح : حوامل ، لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلبه ونصره ، ثم تستره ، فهي تلفح السحاب بالماء فيدر ماء ويتزل المطر وتلفح الشجر فتعطى نشاجها . [السان العرب : مادة : (لحق)] وابن كثير (٥٤٩/٢) .

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلة وجود ريع للشر^(١) ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهو الرُخَاء هو الذي يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء - كما نعلم - هو المقوم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار .

إذن : فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ۖ وَكَانَ صَبْحَانَهُ يَتَكَلَّمُ هُنَا عَنِ السَّفِينِ الشَّرَاعِيَةِ الَّتِي تَسِيرُ بِالْهَوَاءِ الْمُتَجَمِّعِ فِي أَشْرَعَتِهَا . وَإِذَا كَانَ التَّقَدُّمُ فِي صِنَاعَةِ السَّفِينِ قَدْ تَعَدَّى الشَّرَاعَ ، وَانْتَقَلَ إِلَى الْبَخَارِ ، ثُمَّ الْكَهْرِبَاءِ ، فَإِنَّ كَلِمَةَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ : ﴿ رِيحٌ طَيِّبَةٌ ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجمعه ريح غير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص] والريح الرخاء هى : الريح اللينة السريعة التى لا تزعزع شيئاً من مكانه . انظر [اللسان مادة (رخر)] .

القاتل: ﴿وَلَا تَأْزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتَ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) . [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة . وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر .

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود في الفلك ، وجرى الفلك بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك ؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَعَظُّوا أَنَّهُمْ أَحْبَطَ بِهَمِّ﴾ .

أما الريح العاصف: فهي المدمرة ، ويقال: فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٥) . [الذيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هي الريح المدمرة المفارقة . وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ .

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أي: قوتكم ، فالريح هنا معناها القوة وذهاب الريح أي: ذهاب القوة والهيبة ، فالقوة هي التوازن في الحياة ، إن استعملت بأخلاق هادت على الإنسانية بالخير والسلام ، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً في الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشأه في دنيا الواقع لأكبر دليل . وقد تطلق على الراحة ، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَّتِ الْغُورُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَافِيلَ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْغُورُ﴾ (١١) [يوسف] ، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً ، فإن من ذهب رائحته من الوجرد ، فهذا دليل على ذهاب قوته .

(٢) العصف المأكول: التين . والعصف له معنيان:

- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحب وبقي هو لا حب فيه .

- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم . [اللسان (مادة: عصف)] .

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعداً ^(١) ،
و حين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل
مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة
لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه
يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۖ ١٩ ﴾ . [البقرة]

أى : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛
بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله
الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها ^(٢) .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأل : أهنأك دليل
على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب
السائل : تاجر أبحر فى البحر . فسأله سيدنا جعفر : أو لم يحدث لك فيه
حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال :
حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة
وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفرغ
إلى شيء ؟ قال الرجل : نعم . قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم
الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

(١) المراد بتجعد سطح الماء : التموجات التى تبدو على سطح الماء إذا هب عليها الهواء .
(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿ وَفِى سَائِهِمْ مَن
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ ٢٥ ﴾ [القصص] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى
زحمة العناد ، ويظهر فلك جلياً عند حدوث الأعطال .

وتعالى عنهم - وهم في مثل هذه الحالة : ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْهُ بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، والأ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً .
ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَنْ أُنْجِيَنَّاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وقوا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ لِيَأْخُذْكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا ^(١) - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والبغي : هو تجاوز الحد فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شيء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإن ألقى ببنفاية ^(٢) فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته ونظراً عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى .

(١) البغى : الظلم والفساد والكبر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : مجاوزة الحد . قال تعالى : ﴿وَتَوَسَّطَ اللَّهُ الرِّبْطَ لِيُعَذِّبَهُ لِيُخَوِّفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى] . وقال : ﴿فَلَمَّا بَقِيَ مِنْهَا عَلَى الْآخَرِينَ قَاتِلُوا إِلَى تَبْيِ ..﴾ [الحجرات] . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) بنفاية الشيء : بقيته وأردؤه . والنفاية : ما بقيت من الشيء لردائه . والمراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشيء وإفساده . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القاتل : ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ (٧٦) . [القصر]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى المشكلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»^(١) .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما في الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا في رضا ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا ، سوف يستشري في الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يرى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة . ويقول ﷺ محذراً : «لا تبغ ، ولا تكن باغياً»^(٢) .

فالباغى إنما يصنع خللاً في توازن المجتمع . والذي يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بنتائج من غير كدّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢١٢) وابن عدى في الكامل (٧٠ / ٤) ط . دار الفكر ، والذهبي في ميزان الاعتدال (ت ٢٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما في ترجمة صالح بن موسى الطلحي ، وهو كوفي ضعيف . وقال ابن عدى : لا يعتمد الكذب . وسياق نص الحديث يؤخذه .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين (٢ / ٣٣٨) عن أبي بكر ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

فرض الإتاوات^(١) على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يفترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات)^(٢) يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل مَن يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِذَا هُمْ يَتَفَوَّنُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْخَلْقَ ۚ ﴾ (٢٣) . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بغى بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدُّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يستول النبى ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

(١) إتاوات : جمع إتارة وهى قدر من المال يُدفع غصباً وإجباً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للآمن والسطوة على ممتلكات الناس وتخويف الناس . وفى لغة العرب : الْفَتَى : هو الشاب القوي والفتى : المبدع ، وجمعه على القلة فتية . وفى الكثرة فتيان ، والأمة : فتاة ، وجمعها فتيات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومنحرف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمي الله
حزاء السيئة سيئة مثلها ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ ﴾ (١٩٤) [البقرة]

، يسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .
ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ،
فيقول ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢٣)

[يونس]

وهو يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي : يا مَنْ تريد أن تأخذ
حق غيرك ، اعلم أن قصارى ^(٢) ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع
الدنيا ، لم تجازي من بعد ذلك بنار أبدية ^(٣) .

وإن إقارنت زمن المتعة المقتضية الناتجة عن البغي بزمن العقاب
عنيها : لو وجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله
عليها ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق
سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن
عمرك فيها محدود .

(١) وذلك في نحو قوله تعالى ﴿ وَحِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا ۖ ﴾ (٢٣) [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو
مصطلح بلاغي مؤداه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه
سيئة ، ولكنه سمي هكذا لمشاكلته لما معه . انظر (الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٨١) .

(٢) قصارى الشيء : آخره وغايته وهي من معنى القصر ، أي : الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حبستك .
واللسان : مادة (قصر) - بتصرف .

(٣) ومن أمثلة الغصب والبغي بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أي الظلم أعظم ؟
قال : نزاع من الأرض يتنقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا
تكون له يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها . أخرجه أحمد في مسنده
(١ / ٣٩٦) والطبراني في معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) . قال الهيثمي في المجمع (٤ / ١٧٤) : «إسناده
أحمد حسن» .

فَارْيَاوُا^(١) عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَافْهَمُوا أَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، إِنْ كَانَ هَذَا الْمَتَاعُ نَتِيجَةَ ظَلْمِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ؛ لِأَنَّ نَتِيجَةَ هَذَا الظُّلْمِ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَيْكُمْ ؛ لِأَنَّ مَقْتَضَى مَا يَعْطِيكُمْ هَذَا الظُّلْمُ مِنَ الْمُنْعَةِ وَالنِّعْمَةِ هُوَ أَمْرٌ مَحْدُودٌ بِحَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَحَيَاتِكُمْ فِيهَا مَحْدُودَةٌ ، وَلَا يَظُنُّ الْوَاحِدُ أَنَّ عَمْرَهُ هُوَ عَمْرُ الْبَشَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ لِيَقْسُرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَمْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ مَحْدُودٌ .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. ﴾ (٧٧)

[النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٧٣) [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائماً : لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لَضَنَّ عَلَيْهِ بِالظُّلْمِ .

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴾ (٧٣) [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لِأَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَظْلِمَ أَوْ يُظْلَمَ فَكُلُّكُمْ سَوْفَ يَلْقَى مَا يَنْبَغُ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنْ ثَوَاباً أَوْ عِقَاباً ؛ مُصَدِّقاً لِقَوْلِهِ الْحَقِّ : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ^(٢) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٢) . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبيّ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

(١) اريأوا على أنفسكم : حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب في الآخرة .

وفي الحديث : « مثلي ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله أي : يحفظهم من عدوهم . (اللسان مادة ربا) . »

(٢) الأنبياء : الأخبار الهامة . قال الحق : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا .. ﴾ (١١١) [الأعراف] وقال :

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ .. ﴾ (١٧) [الأنعام] . أي : لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه في المستقبل أو في

الماضي . ونباء مثل أنباء . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ .. ﴾ (١١١) [المائدة] - القاموس القويم ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبا مقدماً تقريراً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلْنَا سَبَاطًا مِنْهَا فَأَسْفَلَ سَوَاهَا فَاتَّخَذَتُهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٤)

والماء الذي ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللشقى ؛ لأن المياه الموجودة في الوجود ، هي مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التي تحوّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عذباً مقطراً صالحاً للشرب والرى .

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُخِّي كل عمود مزور به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زينته وأكمله . وفي الحديث : أن النبي ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فتنحى . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ۖ ﴾ (٢٤) [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذي يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبي : زخرفها ، أى : حُسِنَتْ وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشيء . ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبي : ٤ / ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الغانية . وازينت ، أى : حُسِنَتْ بما خرج في ربابها من زهور نفرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ (٢٤) ﴿يُوتِرُ﴾

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذلك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أياً منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزء من الليمون والسكر في جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ وقد يفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حي مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ .. (٢١) ﴿الأنبياء﴾

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية^(١) فالباء هنا في هذه الآية هي باء السببية ، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطي الأرض ، ثم تجدد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة في هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدى عدة معانٍ ، أشهرها خمسة عشر ، هي: الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدي ، والظرفية ، والموض ، والمصاحبة ، والتبعية ، والمجاورة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بذل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك في النحو الوائى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نبتة في منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى : أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتتشر بها جذور النبات .

وإن سمحت لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات .

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول شُبِّهَ مَضْرِبُهُ بِمَوْلَدِهِ ، أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثل به معلوماً ، والشىء المأخوذ كمثال هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم .

وتجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك : إنه مثل فلان فى الشكل . وهكذا عرِّفَ المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا : إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول في شجرة الزقوم ^(١) : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ ^(٦٤) طَلْعُهَا ^(٢) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(٦٥) [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهي شجرة في النار لا نعرفها ، فيعرفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رؤوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يمثل لنا شجرة الزقوم بشيء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقض التشبيه ؛ لأن الشيء قد يكون بشعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رؤوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويتقيحه ، وهكذا تتجلى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهماً ^(٣) .

وأما المثل الذي نحن بصدد هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلف به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكل منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لا يدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

(١) شجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَقْنُونَةُ فِي الْقُرْآنِ .. ﴾ [الاسراء] وأخير الله تعالى في كتابه الكريم أنها تخرج في أصل الجحيم . ونعمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف] .

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، يفتح عن حب منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)] .

(٣) مبهماً : خافياً . واستبهم الأمر إذا استغلق . والمبهم مسمى كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يجعل عليه دليل . ومنه قيل لما لا ينطق «بهيمة» [اللسان : مادة (بهم)] .

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، ونذكره جميعاً ؛ فنذكر ما سبق ، وما يلحق ، فكل شيء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ (٧١) [يونس]

والزخرف : هو الشيء الجميل المستعمل للنفس وتُسَرُّ به حينما تراه ، وتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً ^(١) وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المثالية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزيتها .

والحق سبحانه هو القاتل :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَاتٍ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا (٣٣) ﴾

(١) حصيداً : محصورة مقطوعة لا شيء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبي ٣٢٥٤ / ٤] .

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ - بتصرف] .
(٣) حدائق غُلْبًا ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُسْتَنْظَل به . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢] .

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم . وقيل : الأب الكلا . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣] .

جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ^(١) (٣٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ
وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴿

[عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوى ^(٢) ، وما تراه من بديع
ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدادت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛
لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التي
ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ
(١٧) وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)
فَأَصْبَحَتْ كَالصُّرْمِ ^(٣) (٢٠) 〉

[الفلج]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال .

(١) الصَّاحَّةُ : قال ابن عباس : هي اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر منه . وقال البغوي : الصَّاحَّةُ
يعنى : صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تصخ الأسماع ، أى : تبلغ فى إسماعها حتى تكاد
تصمها . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٣] .

(٢) تذوى : تذبل . ذوى النبات : أصابه الحر والعطش فذبل . جصف . وذوى عود النبات : يس .
[اللسان : مادة (ذوى)] .

(٣) هذا مثل ضرب به الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة
الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالكذب والرد والمخاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا
بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى : اختبرناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الشجر والفواكه
﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجزئ ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم ضمير
ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا به بشئ . ﴿ وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ ﴾ أى : فيما حلفوا به ، ولهذا
حشهم الله فى أيمانهم ، فقال تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى : أصابها أفة
سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصُّرْمِ ﴾ قال ابن عباس : أى : كالليل الأسود . وقال الثوري والسدي : أى :
هشماً يساً . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٠٦] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَأُزِينَتَ ۖ ﴾ (٢٤)

[يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى
ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد
الصالح : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلِهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ۚ ﴾ .. (٧٧) . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقض ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن
الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ،
وله انفعال يناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتى ، فنجد
أن الشيء الذي يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا بيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ،
وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث
يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكان الهدهد قد علم مَنْ يستحق
السجود له إذ قال : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ ۚ ﴾ [فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ] .. (٢٥) . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة
بالعقائد على أصفى ما تكون ؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبين لنا أن هذا

(١) يريد أن ينقض : الانقضاء السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاء إلى الجدار مجاز عن قرب
سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل ، وفي كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا مَكَتْ عَنْ مِثْلٍ
الْفُضْبِ .. ﴾ (٤٤) [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ .. ﴾ (١١) [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ
محمد محمد المدني - يتصرف] .

(٢) الخبء : ما خفى . والخبء الذي في السموات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات .
وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الخبء في السموات والأرض . [اللسان : مادة
(خبأ)] .

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هي التي تفسد العقائد ، ومن أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقتة ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة^(١) ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه^(٢) ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها^(٣) .

إذن : فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد في مثال الهدهد صفاء عقدياً في التوحيد كأصفي ما يكون المتصوفة ، ويأتى بما يهمه ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) .

[النمل]

(١) التخمة : الذي يعيب الإنسان من الطعام إذا استوعمه أي : استقله . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة في الأكل والشرب حتى يتقل على الجسم فضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والقل وعدم القدرة على الحركة . [اللسان : مادة وخم] .

(٢) الساعد : ملتقى الزنديين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الزندي ، وهو ما بين الزنديين والمرفق ، سُمي ساعداً لمساعدته الكف . وجمع الساعد : سواعد . [اللسان : مادة (ساعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٣٢) [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلماً لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ (٤٦) . [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت . والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾ (٨٨) . [الفصص]

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (٧٤) [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿ أَقَامِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى . . ﴿ (٩٨) .

[الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ^(١) كَأَنْ لَّمْ تَقْن ^(٢) ﴾ بالأنس (٢٤) .

[يونس]

أى: كأنها لم يكن لها وجود.

ويُنتهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٤) .

[يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان ، ثم ينتهى ، ألا يجب أن نتبّه إلى أن كل زخرف إلى زوال ؛ وعلينا ألا نفتتن بزيّنة الدنيا ومتاعها فى شيء ، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض ؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا ، وهى إلى زوال ^(٣) .

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يتذكرون » ، أو « يتذكرون » ، أو « يعقلون » ، أو « يتدبرون » .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة ، فالتعقل:

(١) الحصيد والحصد: الزرع للحصود بعد ما يحصد ، والمراد بالحصيد هنا: تشبيهه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه . [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف] .

(٢) ﴿ كَأَنْ لَّمْ تَقْنِ بِالْأَنْسِ ﴾ أى: لم تكن عامرة ، والغالى فى اللغة: المنازل التى يعمرها الناس . وقال قتادة: كأن لم تنعم . وقرأ قتادة (بضم) بالياء ، يذهب به إلى الزخرف ، معنى: فكما يهلك الزرع هكذا ، كذلك الدنيا . [تفسير القرطبي: ٤ / ٣٢٥٤] .

(٣) بقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا لَانَ ^(٢٦) وَيَقْنِ رُجَا رَبِّكَ لَوْ اَعْلَمَ الْاَكْرَامِ ^(٢٧) ﴾ [الرحمن] .

هو أن تأتي بالمقدمات ؛ لتستنبط ولتري إلى أي نتائج تصل . والتذكر
يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكر : هو أن تعمل الفكر .
والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكير . والتدبر ^(١) : هو
ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية في أي أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ ۞ ﴾ (٨٢) . [النساء]

أي : اجعل بصيرتك تمحص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع
والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد
يرهب نفسه في الدنيا الفانية ؛ ليستريح في الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة
لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان في الدنيا مظهون ، ولا يعرف
فرد هل يحيا في الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخلق فهي منتهية ، والنعيم فيها على قدر
إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهي بلا نهاية ،
وأمر الإنسان فيها متيقن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده
سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذلك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحت كفة
الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ^(٢) لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ۞ ﴾ (٦٤) . [المنكوت]

(١) التدبر في الأمر . التفكير فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يلزم قبل الأمر من دباره ،
أي : أوكه من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهدى لوجهة أمره ، أي : لو علم
في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ إِذِ انبَعَثَ أَفْكُهُمْ وَاتَّكَبُوا
وَلَيْتَ ذُكَّرُوا فَالْتَبَ ۞ ﴾ [ص] . [اللسان : مادة (دبر) - بتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ ۞ ﴾ (٦٤) [المنكوت] أي : هي الحياة الدائمة التي لا زوال لها
ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الأبد . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٢١] .

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهُيَ الْحَيَوانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها .
فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من
الآفات . وضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَخَسَّعَ يَدَكَ فى
يد من يدعوك إلى دار السلام .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

ودار السلام : هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ،
هذه الدنيا التى تزهر وتزخر ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله
تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغصات على أهل
الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ،
ولكن فى ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم
وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم .

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه :
﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحد الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥١)﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لعان منها : ألقى السلام وانقادواذعن ، وسلمه

الله : أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسَلِّمة ، يقول الحق : ﴿مُسَلِّمَةٌ لِأُخِيَّةٍ فِيهَا

.. (٧١)﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : اعتلص . وأسلم : دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ

أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٢)﴾ [البقرة] القاموس القويم ج ٢ ص ٣٢٥

مثلاً يحدث في الدنيا^(١) ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثل الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه . إنه سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾^(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ^(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ^(٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ^(٥٨) .

[يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفي هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْلِيمًا ﴾^(٥٥) [أفلاً سلاماً سلاماً^(٥٥)] [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبجح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أى : نسلّمهم على بعضهم ، فهي دار السلام .

(٢) ﴿ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ : مرقّهون ناعمون بتعيم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴾^(٥٥) [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف] .

(٣) ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السرر في المجال ، وقيل : هي الفرش . وقيل : الأريكة : سرير متجدّ مزين في قبة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكى عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿ مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْذِرُ الْفَرَابَ .. ﴾^(٥٦) [الكهف] . [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف] .

من الأغيار^(١) ؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٧٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٧٤)﴾ . [الرد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف^(٢) الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعي هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وفق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج^(٣) الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة ؛ فاعلم أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطل .

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو السلام ، ومعه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٦٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٧)﴾ [الأعراف] .

(٣) منهج الله تعالى : طريقه وشريعته ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ خُرُوجًا وَنَهَجًا (١٨)﴾ [المائدة] . فقد وضع منهجاً للروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللنفس سكينة وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة . ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بمقيدة توحده ، وعبادة تحبه وتمشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير في النهج نحو الله جل جلاله .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إن رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلم أن هناك مَنْ عَطَلَ منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمروا^(١) بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ .. (٩) ﴾ . [يونس]

إذن : فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسمى بين يديه : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. (٨) ﴾ . [التحریم]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٢٥) ﴾ [يونس]

لأن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بين من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بين لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ . [التوبة]

(١) استمراً : استحسن الشيء واعتاده . [اللسان : مادة (مراً) - بتصرف] .

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤). [التوبة]

إذن: فقد بين الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاستقين^(١) ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذ به ، جعل له نوراً يسعى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

وكلمة ﴿الحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا: «امرأة فضلى» ونقول أيضاً: امرأة كبرى ، وهى أفعل تفضيل ، أى: مبالغة فى الفضل^(٢) .

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول: هى عطاء زائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْنَى﴾ (١٢١) قال ربنا لم نحشُرْهُ أَعْنَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٢) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُعَذِّبُ﴾ (طه) .

(٢) أفعل التفضيل: اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى ، وزاد أحدهما فيه على الآخر . مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا: نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا . وعند التانيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعْلَى) مثل: (حُسْنَى - فضلى - كبرى) . انظر تفصيل ذلك فى (النحو الرافى: ٣ / ٣٩٤ - ٤١٥) .

فبواحدة ^(١) . وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوى الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا... ﴾ (٥٨) [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمئة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمئة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك : «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم . فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» ^(٢) .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا يَوْهَقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذُلٌّ﴾ أى : لا يغطى وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إلى ربها نَاطِرَةٌ (٢٣) .

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : «إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبها سيئة واحدة» أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٨) والبخارى في صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد في مسنده (٢٣٢/٤) والترمذى في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى .

وهو سبحانه القائل : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ﴾ (١٠) [عبس]

وترهقها: أى: تغطيها ، وقتره تعنى: الغبار ، وهى مأخوذة من القُتَار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخاذه ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القُتَار يصنع له طبقة سوداء.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ (٢٠) [يونس] لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه.

ويقول الحق سبحانه : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ..﴾ (٦٠) [آل عمران]

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلاء نور.

ويقول الحق سبحانه : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦) [يونس]

أى : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى : مَنْ يملكونها.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) القُتَرُ : جمع القُترة ، وهى القُبرة . وفى التهذيب : القُترة غبرة يملوها سواد كالدخان ، والقُتَار : ريح القُدر ، وقد يكون من الشَّوَاء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوى . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تؤذ جارك بقُتَار قُتْرِكَ . [اللسان : مادة (قُتْر)].

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا
مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾



وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة
جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذهن ، والحق
سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴾ (٨٢) . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة ^(١) في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ
(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (١٤) [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه
قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة
خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن
يشعّ رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد
أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ،
ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴾ (٢٧) [يونس]

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطابق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن
يذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا خُذُوا حُلِيِّكُمْ وَلَئِن لَّمْ يَكُنْ عَلَيْكُمْ مَالٌ فَخُذُوا حُلِيِّكُمْ وَلَئِن لَّمْ يَكُنْ عَلَيْكُمْ مَالٌ فَخُذُوا حُلِيِّكُمْ
وَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف] . انظر : الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٣ / ٢٨٤ - ٢٨٧) .

سُورَةُ يُوسُفَ

○ ٨٧٧ ○

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون في الأمر الفطري ويناسب الطاعات ؛
لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن
يصلّي ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى
أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذي يسرق من
دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً
من أن يرتطم بشيء يفضح أمره ، كذلك الذي ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشيء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج
إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان في ارتكاب المعاصي حتى
تصير دُرّة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول
من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛
فيروى ما يفعله من معاصي وأثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس
سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب
تلك السهرة بما فيها من معاصي وأثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازي مرتكب السيئة بسيئة مثلها ،
فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه
وتعالى حين يعطي من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال
عنهم الحق سبحانه : ﴿ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ لكن الذين لم يهتدوا
منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى : لن
يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذبهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بالآ يُعَذَّبُوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ كَأَنَّمَا
أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد
غطت وجوههم ، ويكون ما واهم النار ﴿ أَوَلَيْسَ لَكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾ .

هذا هو حال الذين كذبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبوا عن
دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء
من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجَلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون
كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من
هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَيْلَنَّا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴾ ٢٨

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف
هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الْكُفَرَةِ ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاءه
الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى في المركز ، فانت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقى بهم في المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكاننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة ^(١) .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه الْمُتَّخِذَ أَندَاداً ^(٢) ، وَالْمُتَّخِذَ نَدَاً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبد ، أو معبود طلب من عابده أن يعبد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ .. ﴾ (٢٨) ﴿

[يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٩) والبيهقي (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتعنون أن ينتهي يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) التذ : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً ۖ ﴾ [إبراهيم] أي : أنداداً واتشابهوا . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُتَّخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (٦٠) ﴿ [البقرة] [اللسان : مادة (تد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم فى ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علم ، وله دعوة إلى أن يعبد غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدتهم ، فيسألهم : أنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانه أنت ولينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فكان هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يدعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِلَ الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة ^(١) . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرّون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نخضع أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الأمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمُحَاجَّة ^(٢) موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المُحَاجَّة : المِغَالِبَةُ والجِدَال . والمُحَاجَّة : الدِّيلُ والبرهان . وَحَاجَّةٌ : غلبه على حُجَّتِهِ . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمِعْتُ وَجْهِي لِلَّهِ ﴾ [آل عمران] قال الأزهري : إنما سميت المُحَاجَّة حُجَّةً ، لأنها تُحَجِّجُ ، أى : تُقَصِّدُ لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَاجَّةُ الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة (حجج)]

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم^(١) .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التي تمكن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمى شيطاناً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزين له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجند إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿ قَالَ لِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٧) إِلَّا عَبْدًا مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٨) ﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم في سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، ومن أبى سعيد الخدرى في حديث أن إبليس قال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني ، أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) والحاكم في مستدركه (٢٦١/٤) وصححه وأقره الذهبي .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة وَمَنْ عَبَدُوهُمْ مِنَ الْبَشَرِ؟
وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون
الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبُدُ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ»
لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾
(٤٤) [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلًا فَغَدَوْنَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ»
والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ...﴾ (٢٤) [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّنَا جَهْلًا كَمَا تَجَنَّنَا عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِيِّ»
فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول :
إِنَّ لِلْمُعَالِي جَزَاءَهُ ، وَالْمُعَالَى فِيهِ تُنَجِّسُهُ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ .
وهكذا وَضَحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

(١) الأسحار : جمع السحر وهو آخر الليل قيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل

(٢) أى : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذى يقى من اللبابة . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (٢٨) ﴿١﴾

[يونس]

وهكذا يُحْشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفْضَح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ (٢٨) ﴿٢﴾

[يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعني : «الزم مكانك» وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلات من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبِدَ من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبْرَاءًا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿٣﴾

[يونس]

(١) نحشرهم : نجتمعهم للحساب . ومنه يوم المحشر . والحشر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَهِهُ تَحْشَرُونَ﴾ (٢٧) ﴿البقرة﴾ .

(٢) زَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ : فَرَّقْنَا بَيْنَهُمْ . والترايل : التباين . قال تعالى : ﴿لَوْ تَرَىٰ أُولَٰئِكَ لَعُذِبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ غَدًا إِنَّا لَمَّا لَبَيْنَاهُمْ لَمُتْ لَئِيْلًا نَقِينَا﴾ (٢٨) ﴿الفتح﴾ [اللسان : مادة (ز ي ل)] .

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقٌ مَن عُبدوا دون علمهم : ﴿ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. ﴾ (٢٨) ﴿

[يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المخزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تصدق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضاً على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنطق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴾ (٢١) ﴿

[فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَن عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إن عصي الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤) ﴿

[النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنتطق يوم القيامة ، فهل تعقّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرّجل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدّل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ،
ولا تخرج فضلات^(١) ؟

وهذا أمر غير منطقي - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لو قففت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مطروف^(٢) بين السماء والأرض . وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ..﴾
(١٨) ﴿إبراهيم﴾

إذن : فكل شيء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حدثت أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تعبّد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا يَتَّبِعُنَا وَيَنْتَظِرُكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ﴾ (٢١)

إذن : فالكائنات التي عبّدت من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - مثلاً - في الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشأ أو رشح كرشع المسك ، يلهمون النسيج والتحميد» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد في مستدركه (٣/ ٣٦٤) .

(٢) أى أن الإنسان محل لطروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة في كل منهما .

سُورَةُ الْيُونُسَ

○ ٥٨٨٧ ○

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى ^(١) .

واستدل الهدد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد علم الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدد قد عرف ذلك فالاستتكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَلُّوْا اِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُوْنَ ۝٤١ ﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكة بقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ اَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُوْنِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُوْنَ الْجِنُّ ۝٤١ ﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سور القرآن الكريم عرضاً مشوراً ^(٢) مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ ^(٣) مِّنَ الْاِنْسِ ۝١٢٨ ﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ اَوْلِيَائُهُم مِّنَ الْاِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا اٰجَلَنَا الَّذِىْ اٰجَلْتَ لَنَا ۝١٢٨ ﴾ [الأنعام]

(١) وذلك في قصة الهدد مع سليمان : ﴿ اِنِّىْ وَجَدْتُ اٰمِرًا تَمْلِكُهُمْ اَوْيَتٌ مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيْمٌ (١٢) وَجَدْتُهَا وَفَوْقَهَا مَسْجِدٌ لِّلشَّمْسِ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَرَبِّىْ لَهُمُ الشُّرَطَانُ اَعْمَالُهُمْ فَصَدَقْتُهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُوْنَ (١٣) ﴾ [النمل] .

(٢) المنشور : الشيء يُلْقَى متفرقاً هنا وهناك كالحب وغيره . [اللسان : مادة ثر] .

(٣) أى : أضللتهم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم .

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس ؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصاً تختلف عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ ^(١) من حيث لا ترونهم . (٢٧) ﴿

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قار ^(٢) ، أى : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة .

بمعنى : أنك لو كنت تجلس فى حجرة ، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالسائر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة .

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك .

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نقلت الجرم ^(٣) إلى المكان الذى توجد فيه .

(١) القبيل الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى ، كالعرب ، والروم ، والزيج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة . وكل جيل من الجن والناس قبيل قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنِّي بَالِغٌ إِتِّمَافُ الْعِلَالِكَةِ قَبِيلًا ﴾ (٣٢) ﴿ [الإسراء] . [اللسان : مادة (قبيل)]

(٢) قار أى مستقر فى مكانه لا ينتقل منه شيء إلا إذا نقلته أنت . يقال : فلان قار ، أى : ساكن ثابت . [اللسان : مادة قرر]

(٣) الجرم : الجسم . والجمع (الأجرام) .

ونلمح هذه المسألة التقنية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير في الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتي لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو في مجلسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .. ﴾ (٢٨) [النمل]

وهذا يدل على أنه كان في مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمين إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين في قدراتهم ما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي .. ﴾ (٢٨) [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراه سليمان عفريت من الجن - لا جنأ عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكي ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ .. ﴾ (٢٩) [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات^(١) ، والتكلم هو عفريت من الجن الذي يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادي - ممن كان حاضراً مجلس سليمان - فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس في قدرته ، أما الذي تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴾ (٣٠) [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. ﴾ (٣١) [النمل]

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس في مقامهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنسان ^(١) ، ولم يأخذ الجنى خواصه في الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكون سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يذكر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنسان وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنسان أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنسان .

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على من يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً ^(٢) .

واقروا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنِ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ۝ (١٠٢) ﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنسان .

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه التارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مدددة من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلى ذلك في أن الشيطان قال لسليمان . ﴿ قَالَ عَفَرْتُكَ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليثوني لأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ۖ ۝ (٢٦) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهي ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ ۝ (٦) ﴾ [الجن] أى ذلة وضعفاً . قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزله فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٨)

ولكن الملكين هاروت وماروت ^(١) حينما علّمَا الإنسان السحر حذّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطفيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلّمته فذلك لتقى نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلاً يأتي لك إنسان ليودّع عندك ألفاً من الجنيهاً كأمانة ، ولكن أنتظر على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تحمد الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) [الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤمن ، ولا حجة للمؤمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤمن ، قد يقرّ بها ، وقد ينكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزل إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى المباد ، فأهبطا ليحكم بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقرّلا : إيمان فتنه فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت أخذ بها فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤمن عند المؤمن خاضعٌ لخيار المؤمن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن ندخل أنفسنا فى هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلنا مقيهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد نحمل الأمانة.

أما الإنسان فقد ميّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قبل الإنسان حمل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظنَّ فى نفسه وقت التحمل.

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضرَّ عن نفسى ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يشير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرهق.

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ .. ﴾ (١٢٨)

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر.

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. ﴾ (١٢٨)

واستمتع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقسم إبليس اللعين : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ^(١) أَجْمَعِينَ .. ﴾ (٨٢)

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمُ بِمَا كُنَّا عَاوِينَ ﴾ [الصافات : ٢٢] . [اللسان : مادة (غوى)] .

سُورَةُ الْيُونُسَ

٥٨٩٣

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا ۖ ﴾ (١) . [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع^(١) أو أهرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه .

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدْرَ الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألا يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَيْنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتُمْ لَنَا قَالِ النَّارُ مَثْوَاكُمْ^(٢) ۖ ﴾ (١٧٨) . [الأنعام]

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه . و«أكتع» بمعنى فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمع أكتع . [المعجم الوسيط : مادة (كتع)] .

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار . والجمع : المثاوى . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَفِى السَّعِيرِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)] .

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذي استخدم الجن ، وللجن الذي أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى في هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الْأَخْلَاءُ ﴾^(١) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صفة ومودة ، ويتخلل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخلَّة^(٢) في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن هم واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحبّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتصرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه»^(٣) وهذا لون من الخلّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لَا يَتَّبِعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ .. ﴾ ﴿٢٥٤﴾ [البقرة]

فلا خلّة إلا خلّة اللقاء في الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .. ﴾ ﴿١٣٥﴾ [النساء] .
وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَى لَمْ آتُكَ فُلَانًا خَلِيلاً ﴾ ﴿٤٨﴾ [الفرقان] .
[اللسان : مادة (خ ل ل)] .

(٢) الخلّة : الصداقة والمحبة والخل^١ : الود والصديق . [اللسان : مادة (خ ل ل)] .
(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم بيمنه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) والبخاري في صحيحه (٦٦٠) .

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، وتجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا قُمْنَا بِكُمْ مُخِوْنًا عَنْكُمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

(١) اجزء: نقیض العبر. قال تعالى عن الإنسان: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)].

(٢) مخيص : متحرب . قال تعالى : ﴿أرأيتك ما راغم جهنم ولا يجذون عنها شيئا﴾ (النساء : ١٢٤) .
[اللسان : مادة (حص)] .

(٤) السلطان : سلطان القهر في قهرهم على اتباعه. ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان. يقول تعالى عن سليمان وهو يهدى الهدى : ﴿لَأَعِدَّتْ لَهُ آيَاتٍ مِمَّا يَدْرِي﴾ أو لَأَقْبَحَتْ أُرْيَاكُنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾ [النمل].

(٤) مصر محكم : مفتيكم - والصريح : للفيث . وقال تعالى : ﴿ فإِذَا الَّذِي اَسْتَعْتَمَرَهُ بِالْأُنْثَىٰ سَأْتِمُوهُهُ - . (٥٢) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَرَدْنَا نِسَاءَ نَجْرَانَ لَهُمْ فَرَجٌ وَآخِرٌ بِمَا كُنْنَ يَفْعَلُونَ ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صريح)].

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِءٌ مِّنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ .. ﴾ (٦٦)

[الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرننا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿ فَكُفِّنِي بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (٢٩)

[يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبِدَ من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢)

[الصافات]

ولنتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يهيم الانحراف إلى ما يريد .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢١)

[الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) احشروا : اجمعوا . والحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب . [اللسان : مادة (حشر)] .

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَذَابًا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴾ (١٠) [التغابن] .

﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ يَسْتُخْلِفُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَحْصُرُونَ ﴿٢٥﴾ يَلْ هُمْ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ [الصافات]

أى : كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظن ظان أنها قوة
البطش فقط ، أو قوة التدليل ، بل المقصود بذلك أى قوة ، حتى وإن كانت
قوة الإغواء .

إذن : فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين
الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله : ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى
الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزين الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه
على الطاعة .

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ "نَجَّلَهُمَا"
فَحَتَّ أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يترأون عن أوقفهم هذا الموقف
بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تمابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر
بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فى ذكره ابن كثير فى تفسيره
(١٣٤ / ٤) وعزاه للمجاهد ابن حنبل .

(٢) عن أبى بن أبى طالب أن ﴿اللَّيْنِ ضَلَّوْنَا ..﴾ (٣٠) [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من
عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى
الأرض . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤٨ / ٤) .

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴾ (٢٩) [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ ، وحتى الأصنام ، من الذين عُبِدُوهم في الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : (٣٠)

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٣٠)

وقول الحق سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما ظرفا الحدث ؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتي ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان .

وجاءت ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴾ (٣٨) [آل عمران]

أى : في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم - رضى الله عنها - قوله أدت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلمه هي . يقول

(١) إِنْ كُنَّا . أى : ما كنا . فإن هنا للنفي ، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى : ﴿ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ .. ﴾ (٤٠) [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى .. ﴾ (١٠٥) [التوبة] .

(٢) ﴿ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. ﴾ (٣٠) [يونس] : تذوق جزاء ما عملت وقدمت . وقيل : تختبر . وقيل : تتبع ، أى : تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا . وقرا حمزة والكسائي «تتلقوا» أى : تقرأ كل نفس كتابها الذي كتب عليها . [تفسير القرطبي ٤ / ٣٢٦١] وابن كثير (٢ / ٤١٦) .

سبحانه: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا .. (٢٧)﴾

[آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء
تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يأت هو به ؛ بدليل أنه قال :
﴿أَنِّي لَك هَذَا .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظة ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به .
وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع
حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكتشف
مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يعرف كامله ، ولو أن كافله أصرو
على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحُمِيَ المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي
ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أَنِّي لَك هَذَا .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

ثم تعلل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢٧)﴾

[آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

(١) أَنِّي لَك هَذَا : كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله في عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب يقدر ما تقدمه من غير وعمل
صالح ، يُقاس السطاء بقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذي بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا
كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿قُلْ إِنْ صَلَاحِي وَسُوءِي بِمَا شَاءَ رَبِّكَ فَهِيَ لَك .. (١٢٧)﴾ [الأنعام] .
إذن : فكون الرزق من بلا حد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مُتَشَوِّشَةٌ وَمَن يَرْجُ الْآخِرَ
أَمْسَرًا وَالَّذِينَ آمَنُوا فَهُمْ يَوْمَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٢٧)﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف
قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجب سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين :
 شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأن وجد
 عندها عباً في زمن غير أوانه ، أو وجد بورتقالاً في غير أوانه ^(١) ، وسؤاله
 كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
 مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وما دام ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت
 للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله
 تعالى يرزق مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛
 فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكر زكريا نفسه ،
 كرجل بلغ من الكبر عتياً ^(٢) ، وامراته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من
 يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته
 صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (٢٨) [آل عمران]

أى : في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ،
 وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ
 خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٢٩) [مريم]

(١) ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمَحْرَابُ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ (٣٧) [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة
 وآخرون : يعني ' وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . وهذا فيه دلالة
 على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٠] .
 (٢) عَنَّا الشَّيْخُ عَتِيًّا وَعَتِيًّا وَعَتِيًّا : كَبَرًا وَسُنًّا . [اللسان : مادة (عتي)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أى ظاناً من أن يسوء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها فى موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفى غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذى دعت به امرأة عمران :

﴿وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (٢٦) فقبلها ربها بقبول حسن (٢٧) وأنها نياتاً حسناً وكفلها زكرياً .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هى لها ، حين يشرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن يمسه ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت : ﴿رَبِّ ائْنِي بِكُونِ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٢٨)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةِ رَبِّهِ اسْمُ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٢٩)﴾ [آل عمران]

فيفظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

(١) تقبل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فانت قد تأخذ بكراهة أو على مضض ، أما أن تتقبل فذلك يعنى الأخذ بقبول ورضا ، أما القبول الحسن فهو زيادة فى الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التي ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿هَٰذَا كَلَّا تُبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..﴾ (٢٨) [يونس]

أى : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا ؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شراً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(١) الْحَقَّ ..﴾ (٢٩) [يونس] وكأنهم كانوا فى الدنيا عند مولى آخر غير الإله الحق سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس موالى لهم ، وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوْا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضد ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿وَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ..﴾ (١٢) [التقصير]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(٢) الْحَقَّ ..﴾ (٣٠) [يونس]

(١) المولى : النصير والمولى الذى يلى عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والتمين الذى تنزع إليه فى شدائدك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ..﴾ (٣٠) [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال فى آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ..﴾ (٣١) [محمد] . فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدراك النعم .

أى : أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفى هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه .

والإنسان يكون مع ربه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أى ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى ^(١) ، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولى وسيد وأمر ومشرع ، لكنه مولى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأغيار .

﴿ هَٰئِلِكٌ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۖ... ﴾ (٣٠) [يونس]

أى : عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُصرف كل إنسان بفضيحتة فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَضِلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴾ (٣١) [يونس]

أى : أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شيء من الحق ؛ ووجدوهم فى مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكتهم ﴿ وَضِلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ۖ... ﴾ (٣٢) [يونس]

أى : ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً .

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث فى الآخرة ،

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ثم قال : « ففطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . » (٣٢) [الروم] . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨) .

وخوفهم وبشع لهم ما سوف يتظرهم من مصير إن ظلوا على الكفر ؛
لعلهم يرتدعون ^(١) ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق
سبحانه ، يأتي الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رشد الإيمان في
نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢١)

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ،
ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق فى أن المسئول لو أدار فى ذهنه كل
الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى
يهملى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم
ويطعمك ويعلمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن
يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت
تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكانك ارتضيت حكمه هو
فى المسألة .

(١) الارتداد الكف عن الشيء . وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفروهم عن المعاصى
وأيذاء الناس [واتظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطلق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب
الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدير هو الله .

سُورَةُ التَّوْنِيسِ

○ ٥٩٠ ○

والحق سبحانه وتعالى قال في بداية هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بدأ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)

[الممد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخلق، ويختلف عن خطاب الخلق للخلق، فحين تقول لابنك: «اذهب إلى عمك»، وقُلْ له كذا. فالابن يذهب إلى العم ويقول له منطوق رسالة الأب، دون أن يقول له: «قُلْ»، أما خطاب الحق سبحانه للخلق، فقد شاء سبحانه أن يبلغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين في البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمة واحدة من الوحي دون أن يبلغها للبشر، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي أمره، فهو يبلغ ما أمر، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه.

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..﴾ (٢١)

[يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يتتفع به، والانتفاع الأول مقوم حياة، والثاني ترف أو كماليات حياة، والرزق الذي هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء، ونبات يخرج من الأرض^(١).

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدماً، فلم يقل لرسوله ﷺ: «أجب أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم.

وكذلك جاء الحق سبحانه يسؤال آخر: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ..﴾ (٢٢)

[يونس]

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة في قوله تعالى: ﴿لَنُنْظِرَ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٢) أَلَمْ يَكُنِ الْمَاءُ مَبَ (٢٣) ثُمَّ شَقَقْنَاهُ الْأَرْضَ شَقًّا (٢٤) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٥) وَهَبْنَا وَقْصًا (٢٦) وَزَيَّنَّاهُ أَنْجَالًا (٢٧) وَجَعَلْنَا خَلْقًا (٢٨) وَفَاكِهِةً (٢٩) وَأَنبَا (٣٠) طَعَامًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣١) ﴿[عبس].

والسمع والبصر هما السيدان للملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات ^(١) له وسائل متعددة ، إن أردتَ أن تدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإن أردتَ أن تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإن أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإن أردتَ أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإن أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلى لك المراتى ^(٢) بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتكونَ أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلمسه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يميناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنفرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسى ، وتفكر عقلى ، فانتهاى عقدى ؛ ولذلك نسمى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشيء فى يقينك بصورة لا تحلُّ بعدها من جديد لتحلُّه ، فهذا يسمى عقيدة .

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راه ، وما يقع عليه البصر فهو مرئى ، والجمع : مراكى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [النحل]

لذلك يقال : « كما ولدته أمه » ، أى : لم يُعطَ القدرة على استخدام حواسه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدتين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسمع ، وهما أهم التين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خرّم »^(١) .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرن على طبلتها ، ونرى بشحمة^(٢) العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : « ونشم بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين » . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

(١) ذكره الشريف الرضى فى كتابه «نهج البلاغة» (٤/٤) طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت .
(٢) شحمة العين . مقلتها ، وقيل : حذفتها أو ماتت الحذقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مقلق القرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها
برسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى
الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط
للأمر وقرر أن هذه الحواس هي الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعنى أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي
حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البينَ بَيْنَ ، التي نفرق بها بين
أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة
توجد بين المستين من إصبعين متقاربين ^(١) .

وكذلك حاسة العَصَل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين نحمل ثقلاً ما
مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حَمَلٍ ثَقُلٍ آخر .

وحين نظر العلماء في معانى الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد
من علة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق
سبحانه في آلة الإدراك «السمع» ، وقال في الآلة الثانية «الإبصار» ؟ ، ولماذا
جاء السمع بالافراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأت بالاثنين على
وتيرة ^(٢) واحدة ؟

فنتقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة
بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك
بالعين ترى من جهة واحدة ، فإن أردت أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) وهذا غير حاسة اللمس التي ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يدرك بحاسة اللمس
وعادة يكون هذا بإمرار كف اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه
بهذه الحاسة

(٢) الوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أى : التابع ، وجرت الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس
الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)] .

بعينيك إلى اليمين ، وإن أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغير من وقفك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد .

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدى مهمتها فى الإنسان ، أما العين فلا تبدأ فى أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَمْ نَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٣٦) [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يعطلها ، وقد أعطانا الحق مثالا لهذا فى القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سَبِينَ عَدَدًا ﴾ (٥٦) [الكهف]

فَعَطَّلَ اللهُ سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا فى نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً .

كيف حدث هذا ؟ .. إن أقصى ما ينامه الإنسان العادى هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴾ (٥٧) [الكهف]

ولكن هينتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسرد قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوُكِّتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا .. ﴾ (٥٨) [الكهف]

ونلاحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٢١)﴾ [يونس]

بينما يقول في آية أخرى في سورة السجدة : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن نتنبه إلى الفارق بين «الخلق» و«الجعل» ، و«الملك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما «الجعل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمْنَ يَمْلِكُ﴾ ، فمن خلق هو الله تعالى ، ومن جعل هو الله تعالى ، ومن ملك هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبها إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يملكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خلقت في الإنسان ، وجُعِلَتْ له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل ملكاً لله ، يبقياها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بأفة ، أو يعطلها .

إذن : فهي خلقت لله ، وجُعِلَتْ من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصِيرُها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكرامية والأمور اللاإرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله .

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوَرًا قَبْضًا وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَلَعَبُ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢١)﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكل حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندينه إلا جلدَيْن اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ لبدل على حرمة ونجاسته .

وعلينا أن نتسبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ وَمَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّمَ الجنة على المُشْتَحَرِّ^(١) ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو - سبحانه - الذي يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [الفصص]

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن في ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكون الجسم الحيوانات المنوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما يأتي الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصبة ؛ لأن البيضة

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً قتل نفسه فهو يتجسأ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصصة لا تُخرج كتكوتا ؛ فهي بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما أُلقيت دون أن توضع في الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعت في الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجت نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَدْبِرُ الْأَمْرَ .. (٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء ؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من يدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك ؟ ونقول : كنت طفلاً في مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومن الذى يدير حركة رتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزةكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيوم لا تأخذه سنة^(١) ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك^(٢) .

ويجب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى - الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

(١) السنة : النعاس من غير نوم وقيل : السنة نعاس يبدأ في الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [اللسان مادة : وسن]

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى : لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه . يقال : آده الأمر . بلغ منه المجهود والمشقة . [اللسان مادة : أود]

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منا ؛ لنعمّر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبيّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلّفته بشيء ؟ .. لا .

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، وَمَنْ لم يعبدّها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ .. (٢١) [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقربكم من آثار صفات الجمال ^(١) وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .. (٨٧) ﴿ [الزخرف] ويقول أيضاً: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .. (٢٥) ﴿ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتجهون لعبادة غيره ؟

(١) صفات الجمال هي صفات الرحمة والمغفرة والرفق ، أما صفات الجلال فهي صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز . فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ، ليدخل في عباد الله المتقين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾^(١)

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قبلاً من الرزق ، وملكبة السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ .. ﴾^(٢) [يونس]

ولا يوجد فى الكون حقان^(٣) ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. ﴾^(٢) [يونس]

إذن : أنتم إن وجهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتكم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصل إليها . فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .. ﴾^(٢) [يونس]

(١) فأنى تُصرفون : أى : كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يوزن ولا يحى ولا يميت [تفسير الفرقطى ١/٣٢٦٧] .

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشرى ولكنه بمنهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للفسطاطية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة .

أى : أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ،
والحق واحد ثابت لا يتغير ،

ومن عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم
السلام - أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .
وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فلنقرأ معاً قول الحق سبحانه
وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

﴿ أَنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٢)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر
جميعاً ، ومن ملك السمع والبصر ، ومن تديرير الأمر كله ، ومن إخراج
الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ،
وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مقدماً ألا إجابة
له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. ﴾ (٣٢) .

ومثل هذه القضية تماماً قول الحق سبحانه : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٢)

لأنهم أساءوا الفهم فى الوجدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن
يُعَذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن
بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحل على من لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمن سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حَقَّتْ كلمة ريك على هؤلاء الذين فسقوا ولا يتتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والربُّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليُّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(١) [البقرة] إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن وَمَنْ لا يؤمن ، وَمَنْ يستمر ويَصِرُّ على كفره ؛ هو الذى يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادك به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى فى الأم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجَّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذى يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت فى ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد فى الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التى يمكن أن يسيروا فيها

(١) فى الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : للمجتمع الإيماني مصداقاً لقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٢) [البقرة] ، وللمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَرَجَعَ اللَّهُ بَعْدَهُ فَوْقَهُمْ حَسَابٌ مِنَ الْمَاءِ سَرِيعٌ الْحِسَابُ﴾ ^(٣) [النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : فالتفكير في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوي للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ
اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تَكُونُونَ ﴾ (٢٤)

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ (٢٤) [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإن قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

(١) الإفك : الكذب والإثم . أتى توفكون : كيف تكذبون ؟ [اللسان . سادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك في افتراء متخيل ومبالغة بامتة لها التأثير المفسر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُمْ شُرُكًا لَكُمْ بَلْ هُمْ خُمُورٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١) [الترو] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج^(١) ، وللحق صَوْلَةٌ^(٢) ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق في أمر ما ، تجدها قد فعلت فعلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته^(٣) .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. ﴾ (٣١)

[يونس]

بل قال: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ (٢٤)

[يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطيرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

(١) اللججة اختلاط الأصوات . قال أبو زيد: يقال: الحق أبلج، والباطل لجلج، والأبلج: المضيء المستقيم . أما اللجلج فهو المخلط الممزج والمتردد غير المستقر . [اللسان: مادة (لجج) - بتصرف] .

(٢) الصولة: الوثبة والقوة على إزهاق الباطل .

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، وقد قصه الله عز وجل في قرآنه: ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر .. ﴾ (٢٢٠) [البقرة] ، فبهت ، أى: قوجىء بالحجة ومنطقها فتحير في جوابه ولم يجد رداً .

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، وإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذي قد ينطق الكفر ، هو في الحقيقة مؤمن مُسَبِّحٌ ، حامد ، شاكِر ، لكن إرادة الإنسان التي شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعبادة بالله - فينطق اللسان بالكفر ،

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى للأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية ^(١) ، إنما هي خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبي ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ ۞ (٢١) ﴾ وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفي أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبَلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٢١) ﴾ .

والإفك : هو الكذب المتعمد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لسون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أي : أن يعلم الإنسان الحقيقة

(١) بدليل أنها ستأتي يوم القيامة وتصبح هي الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَسْتُمْ بِالَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢١) ﴾ [النور] .

ويقلبها^(١) ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر ، فمرة يصدقُ الخبر ويصدقُ المخبر ، ومرة يصدقُ الخبر ولا يصدقُ المخبر ، ومرة يصدقُ المخبر ولا يصدقُ الخبر .

فهنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنى تُؤفَكُونَ﴾ أى : فكيف تقبلون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَىٰ﴾^(٢) [النجم]

(١) المؤتفكة : البلدة التي اتفكت بأهلها أى انقلبت . والاتفك : الانقلاب . [اللسان : مادة (أفك)] . وقال ابن كثير : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَىٰ﴾ [النجم] : معنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٢٥٩/٤ - بنصرف] .

(٢) وهو الذى قصده رسول الله ﷺ فى قوله : «إياكم والكذب» ، فإن الكذب يهذى إلى الفجور ، وإن الفجور يهذى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خلق الإنسان وحدد قوانين صيانه ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهْدِي الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟ إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إمطة الأذى عن الطريق ^(١) ، وهو منهج مستوعب مستوف لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ : لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ ﴾ (٥٦) [المرآة]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هى عمارة الكون كبنيان حتى

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥) .

للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذي يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب في الوصول إلى مكان في الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذي يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التي تنزل على هضاب الجبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) [الشراء]

فمن خلق هو الذي يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة في قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذي خلقني يهديني ، بل قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذي خلق هو

الذى يقن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيُسْقِينِي﴾ (٧٩) [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء
قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ
يَحِينُ﴾ (٨١) [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك
الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِي﴾ (٨١) [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو
يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ﴾ (٧٨) [الشعراء]

هو كلام منطقي ؛ لأن خالق الشيء هو الذى يهdy إلى الغاية من
الشيء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك
الغاية ، فإذا خولف فى شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجده فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبَّنَا الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠) [طه]

(١) عن أبي رمثة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة ، بهار دوع حناء وعليه
بردان أخضران فقال له أبي . أرني هذا الذى يظهر لك فإني رجل طبيب . قال . ه الله الطبيب ، بل أنت
رجل رفيق ، طيبها الذى خلقها .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهـدى إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهـدينا إليه من خَلَقْنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. (٤٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى .. (٤٥) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرّد بالالوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَمٍ ، ورزق من عَدَمٍ ، وخلق لنا وسائل العلم ودبّر لنا الأمر ، وأخرج الحى من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء (٢) ؟

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى .. (٤٥) ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليفة وموِّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .. (٤٦) ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقارة والسعادة وهدى الأنعام لمراعها . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٥٠٠] .

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقُولُ مَنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٥) ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) [يونس]

إذن : فالذي يهدي هو الذي خَلَقَ ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَسِنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٨٧) [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتِنَ بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائل أخرى مثل : الشمس والقمر والنجوم ؛ وهذه أشياء علوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائل سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أى شيء من كل ذلك يهدي إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟ وكيف بلّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يهدي ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم ؟ أو من أين جاء الذين فُتِنُوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يهدي إلا بعد أن يُهْدَى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فإله هو الذى يختار منهم المَلَكَ الذى يُبَلِّغُ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ أَقْمِنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى .. ﴾ (٣٥) [يونس]

﴿لَا يَهْدِي﴾ تقرأ هكذا ، وللمغة فيها عملية تخفيف جرس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهْدِي﴾ يعني : يهتدى .. أصلها يهتدى .. ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء .. وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ..
(٢٥) ﴿ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟ وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهي للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عرف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟ » ، وهذا كله من الأمور التى تأبأها الفطرة وبأبأه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصول إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ..﴾ (٢٥) [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من أفة الأغيار^(١) ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سمياً فتصير أصم بعد ذلك ^(١) .

إذن : فهي دنيا أغيار ، وهب أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأماناً وسلامةً وغنى وكل شيء ؛ سنجده في قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه في حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هي هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هباتٌ من الحق الأعلى سبحانه .
والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ﴾ (٣٦) يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن ^(٢) هو اليقين ، فالنسب التي تحدث

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أو صي رسول الله ﷺ رجلاً وهو يخطه : « اغتتم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وحنك قبل فرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٠٦/٤) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبي .

(٢) الظن كما أنه شك فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس يقين عيان ، إنما هو يقين تدبر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصدراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴾ (الأحزاب) [لسان العرب : مادة (ظنن)] .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ،
وهي نسب ذكرناها من قبل ، ونذكر بها ، فهناك شيء أنت تجزم
به ، وشيء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلل عليه هو علم يقين ، أما
ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل :
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) [الإعلام]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شيء ومن
يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، على عكس
الجهل الذي هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين في الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن
تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية
المرجوحة هي شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على
بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ﴾ (٢٦) ﴿ يبين لنا أن الذين
كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق
ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق
سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ﴾ (٢٩) [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمنع في البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن
الإيمان ، لكن منهم من تمنع في الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا
الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى من الحق شيئاً .

لذلك يبين لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛
لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۖ ﴾ (٢٦) [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أولاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون
بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٢) [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذبوا بما لم
يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة
الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجْحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۖ ۝
١٤ ﴾ [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٧)

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التى
لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا
القرآن لا يمكن أن يُفترى ، بل لا بد أن قائله ومُنزّله عليم خبير ؛ لأن
القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدق
للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزيور^(١) ، وهى الكتب
التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى
بشّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه
السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنَ
بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ﴾ (٦٠) [النص]

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدق الإنجيل فى قوله
هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب
السمائية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٦١) [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴾ (٦٢) [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك
أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن
وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

(١) الزيور . هو كتاب داود عليه السلام . راحله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ رَفَعْنَا

فصلنا بعض النبين على بعض وآتينا داود زبوراً .. ﴾ (٥٥) [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً^(١) ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعلّم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجيء هو - كما فوجئتم أنتم - بمجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلم أنه ﷺ مُبلّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) [يونس]

ويحضّر القرآن الكريم النبي ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبل - البلاغة والفصاحة أو الشعر ؟!

ولنتنظر في «ماكُنَّات»^(٢) القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ ﴾ مثل قوله سبحانه :

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ ظَنُّوْا مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُهُ بِحَبْلِكَ إِذَا لَأَوْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [التكوير]

(٢) «ماكُنَّات» القرآن هي الآيات التي وردت فيها لفظة : ﴿ مَا كُنْتُ ﴾ ، وهذا في إحدى عشرة آية هي : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [القصص : ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦] ، [التكوير : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحَهُمْ ﴾^(١١)
 أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. ﴿٤٤﴾ [آل عمران]

وهذا أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ [التقصير]

والوحي إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذي نزل فيه ذلك الوحي أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾^(١٢) تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ [التقصير]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً في زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذي أخبرني بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴾ ﴿٩٧﴾ [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذي يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن حرق حُجُبَ وَحُجُزَ الماضى والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

(١) الأفلام هنا : القداح ، وهو قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، وإنما قيل للقدح : القلم لأنه يُقْلَمُ أى : يُبْرَى . [اللسان مادة : قلم] .

(٢) ثاوياً : مقيماً ، ومعين : قرية شعيب عليه السلام .

شيء سبق الزمان الذي نزل فيه ، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - في الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماضٍ لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضي . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (A) [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب في القرآن إما خرقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبي ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلّه يلتبس لهم مجيراً من أهل الطائفت ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض^(١) ، ويوصى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة^(٢) .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أى جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحى من قبل^(٣) .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفْتَرى ، فكيف يُتَّهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائفت قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدمرا رجله . [دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤١٥] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي » . منحه الله الأسراء فوق العقل البشرى ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت علينا مكة ، راودى أصحاب رسول الله ﷺ ، وقتلوا وراوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى متعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بارض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلائه حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » . حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣١١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١ / ٣٢١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهْزَم ؟ أى : أى جمع يُغْلِب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى السرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝٤٥ ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟! ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن :

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سخر العبيد والضعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟ إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (٣٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فهُمْ قَدْ اعْتَرَفُوا بِعَظْمَةِ الْقُرْآنِ وَقَالُوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ (٣٦) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨)

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسباب عجزهم عن النجاح في التحدي ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّقُ نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (٢٨) [يونس]

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَنْ يَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فتزلت درجة التحدي ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بَعْشَرِ سُوْرٍ

مِثْلِهِ مَفْرِيَّاتٍ .. ﴾ (٩٢) [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب -

ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ

مِثْلِهِ .. ﴾ (٩٣) [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدعون أن محمداً ﷺ قد افترى

القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من

مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٩٨) [يونس]

[يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن ينزل قرآنًا ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة ^(١) : سندعو الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء : **وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** . (٢٨) ﴿ . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدى .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ ليعلمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض ؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكًا لما صَحَّتْ الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً ^(٢) .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ ^(٣) القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة فى شيء لم يعرفوه ولم يألّفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

(١) اللجاجة : التماذى فى الجدال والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَدُونَ مَعَكُمْ لَأُتُوا مِنْ السَّمَاءِ مَلَكَاتٌ رَسُولًا ﴾ [الاسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاتٍ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجابة والبراعة فى علم أو فن معين . [المعجم الوسيط] .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

○ ٩٣٩ ○

أسواقاً ، ويعلقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ، والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم ؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى ، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(١) ﴾ (٨٨) ﴿

[الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرج القرآن معهم في التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. ﴾ (١٣) ﴿

[هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذي جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿

[يونس]

ومرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٢) ﴿

[البقرة]

وكل من اللونين بليغ في موضعه ف ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿ تبين أن المثلية هنا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٢) ﴿

[البقرة]

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونُوا ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ .. ﴾ (٨٧) ﴿ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الاتساق فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي ، وإنما ذكرهم الله في الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان في علوم القرآن - للزركشي ١/ ١١١] .

أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة^(١) .

وقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) ﴿

[يونس]

إذن : ﴿ سُورَةٌ مِنْ مِثْلِهِ .. ﴾ (٢٢) ﴿

[البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾^(٢) فَبِئْسَ تَعْلَمُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴿

[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ^(٣) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .. ﴾ (١٠٣) ﴿

[النحل]

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبي فى تفسيره (٢٧٧/١) فقال : « ﴿ مِنْ قَبْلِهِ .. ﴾ (٢٢) ﴿ [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل . فالعنى : فاتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيه ، وكل من هذه الأقوال صواب ومحمّل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : مما سطره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة سطر] .

(٣) اكتتبها . طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يميلون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى

ويريد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ .. ﴾ (٣٦) ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حدثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها في منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فأمن برسول الله ﷺ^(١) ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٦) أى : لم يعرفوا مراميهم ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنَّهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ۚ ﴾ (١٦) [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفًا من قبل ، وقد نزلت هذه الآية في المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ ﴾

آنفًا (٣٦) [محمد] أى : ماذا قال سلفاً وسابقاً ؟ . [اللسان : مادة (أن ف) - بصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ،
وتأتى الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ۚ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ (٤٤) [انفصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تفتتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة
بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرج من قلبه ما يناقض ما يسمع ،
ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ،
وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعبقة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ ﴾ (٤٦) [يونس]

والتأويل^(١) هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية
من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن
الكريم قضية غيبية ، ثم يأتى الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن
تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كذبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجيء
التأويل هو السبب فى تأخير بيان الحق فى المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ
حين قامت المعركة بين معاوية بن أبى سفيان والإمام على - رضى الله
عنه - وقَاتَلَ عَمَّارٌ فِي صَفِّ عَلِيٍّ ، وَقُتِلَ . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

(١) الوقر : ضعف السمع . وقيل : الصمم . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا نَارَ يَوْمِهِ
يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ۚ ﴾ (٥٦) [الأعراف] أى : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »^(١).

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]
 أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفي : « لم » مثل قولنا : « لم يَجِءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يَجِءْ فلان » ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفي بـ « لما » فيعنى أن المَجِءَ منتف إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك ؛ لأن « لما » تفيد النفي ، وتفيد توقع الإثبات .
 والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (١١) [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً^(٢) ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴾ (١٤) [الحجرات]

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٤٤٧) ومسلم في صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وقامه أنه عند بناء للمسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لينة لينة ، وعمار لبتين لبتين . فرأه النبي ﷺ ، فيغض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعونه إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا في دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن في قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٢/٢١٨ ، ٢١٩) .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .
وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١١٢) [آل عمران]
فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتي علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿لَمَّا﴾ تعنى أن المنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء في القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وجدت ولا دخل لبشر في وجودها ، فهذا يعنى أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَن يقدر على أن يوجد ، مثلما جاء في خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعٍ (٤) سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٥) بِنَصْرِ اللَّهِ .. ﴾ (٥) [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .

أو أن التأويل سيأتي في الآخرة ، وما يؤول الأمر في التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .

(١) انضع : ما دون العشر ، وأدنى الأرض : بين أذربايجان وبصرى فى الشام ، وهى أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) هل ينظرون إلا تأويله .. ﴿ (٥٣) ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .. ﴾ (٥٣) [الأعراف]

هذا هو التأويل الذي كذبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقي من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبي لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ، وتأتى على وفق ما قال .

فكان محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

ولما أن التأويل - أيضاً - يأتى في الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩) [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه ؟ . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۖ ﴾ (٢١) [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة^(١) .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ لَنَنْظُرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ (٣٩) لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) (١٣) [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، وبإلغائه غيره كان

(١) قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١٥) [التكوير] . والحاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم عاد . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب قارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) المعظمة للقيمة المنحرفة انحطاط ، وللقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الأكوهية بصاحب دعوة ، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مدع .

وهَبَ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فيما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الأكرهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بين لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى في أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية في الظلم هي الظلم في الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم في قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم في أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِدَعْوَانِهِمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾

والكلام هنا في الذين كذبوا ، فكيف يقسم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان في قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق في البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلم ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبر عنه باللسان ، ولكن المُقَسِّم هو إيمان بالقلب غير مُعَبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذي جعل إيمان بعضهم محصوراً في القلب غير مُعَبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها^(١) . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال ، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عنه أبو طالب : يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال : إني أريد منهم كلمة واحدة تدبر لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة؟ قال : كلمة واحدة . قال : يا عم يقولوا : لا إله إلا الله أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/١) والترمذي في مسنده (٢٢٣٢) وقال . حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألا تكون لهم السيادة والسيطرة في أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام في مكة، حيث الأمة التي تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا في «المدينة»، أما في مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانون من تشتت الملكات، لكن المنافقين في المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس في قلبه.

ولذلك يُعزى الحق رسولهُ الكريم ﷺ ويُسرَى^(١) عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقر، فيقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ...﴾ (٣٣) [الأنعام] أى: أنك يا محمد مُتَزَهٍ عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ...﴾ (٣٣) [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسولهِ ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسولهُ أمين عند قومه، وهم في أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة^(٢).

والذين آمنوا برسالاته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

(١) يُسرَى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهري: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وَجْحَدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَتِ أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتًً...﴾ (٣٢) [النمل] [اللسان: مادة: (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما أعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛
لأنه سبحانه الأعلم بمن كذب عناداً، ومن كذب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذي يُعَذَّبُ ويُعَاقَبُ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ
على قَدَرِ منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنْهَى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤١) [يونس]

والمفسد كما نعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالمعطب (١) ؛
لأن العالم مخلوق قبل تدخل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله
سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة
الله تؤدي مهمتها كما ينبغي لها.

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود، فانظر
إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً
مصدقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

أي : اتقنوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه
ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك
الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل في
دائرة المفسدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) المعطب : الفساد والهلاك.

(٢) تطغوا : من الطغيان، بمعنى الظلم، أي : اعدلوا في جميع أموركم ووزنوا الأمور والأشياء بميزان
العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً. والقسط : العدل. [اللسان : مادة (قسط) . . . يتصرف].

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا يَرَىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤١)

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله ﷺ فلم يَقُلْ الله سبحانه: «إذا كَذَّبُوكَ» بل قال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ..﴾ (٤١) ﴿وشاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبي ﷺ: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ..﴾ (٤١) أي: أبلغهم: أنا لا أريد أن أحملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي.

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجَازَى على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاء الله سبحانه^(١).

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد^(٢).

والبلاغ عن الله، إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

(١) وما يدل على هذا أن نوحاً مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة: ﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١١:١) [هود] واختلفوا في عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناءه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ..﴾ (١١:٢) [هود]، وهو يقول لقومه عاد: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١:٣) [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١:٤) [الشعراء]، ولوط لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١:٥) [الشعراء]، وشعيب لقومه أهل مدين: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١:٦) [الشعراء].

وَيَجَازِي عَلَيْهِ ^(١٧).

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ...﴾ (١١) .
ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ
وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ...﴾ (١١) [يونس]

وكلمة ﴿بريء﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجازاة
للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يُعَلِّمَ رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار
والمناقشة ، فيقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٤) [سبا]

أى : أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على
هدى ، أو في ضلال . والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين
على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجازاة لهم .
كذلك يعلمه ربه سبحانه أن يقول : ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ..
(٢٥)﴾ [سبا]

أى : أنه يبين لهم : هَبُّوا أَنْتِي أَجْرَمْتُ فَأَنْتُمْ لَنْ تُسْأَلُوا عَنْ إِجْرَامِي ،
ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول : ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا
تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) [سبا]

ولم يقل : «وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تُجْرَمُونَ» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن
تأتى هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا
أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ...﴾ (١١) [يونس]

(١١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به ، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ :
﴿وَلَوْ تَسَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (١٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (١٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْفَرْقَيْنِ﴾ (١٦) فما منكم من أحد عنه
حاجزين (١٧) [الحاقة] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٢)

وكلمة « من » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المثني ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ .. ﴾ (٢٥) [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْمَعُونَ .. ﴾ (٤٦) [يونس]

لأن « من » صالحة للموقعين .

والسمع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً مَبْهُماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، فهذه الأصوات لا تفيد إلا ما تفيده النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج .

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضعي ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمت بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة .

والنبي ﷺ عرّبي يتحدث بلسان عرّبي مبين لقوم من العرب ، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفخ الأذن لما يأتي من جهة الخصم ، والسمع - كما نعلم - هو استشراف المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل .

إذن : لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم .
وكما يقول المثل : «أذن من طين وأخرى من عجين» . أو كما تقول المرحمة
أن واحداً مال على أذن صديق له وقال : «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب
الصديق مستشرفاً سماع السر ، فقال الرجل : «أريد مائة جنيّة كقرض» ؛
فقال الصديق : «كأنى لم أسمع هذا السر» .

إذن : فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن ، لكن لا بد من
استشراف نفسى للتلقى . وهم لا يملكون هذا الاستشراف ؛ لذلك قال الحق
سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ .. ﴾ (٤٢) أى : كأن سمعهم لا يسمع .

ومثال ذلك : أننا نجد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين
التلاميذ من يستشرف السمع ؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذى
لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس .

وهم قد فاتوا الصُّمَّ ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة
العين ، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا
لَا يَعْقِلُونَ .. ﴾ (٤٢)

[يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى
وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣)

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف ، وأن يُقبل المرء على ما يريد أن يراه ،
وأحياناً لا يكون الرأى مستشرفاً ؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية .

وسئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح^(١) يَهْتَدِ الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب^(٢) .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينه الإيمان وهيبته الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد تلقى رجلاً صالحاً في بشرته أدمية^(٣) أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أسر^(٤) من التقوى ، وجاذبية الورع .

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغير أمره .

وها هو «فضالة»^(٥) يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء ، كنت أذكر الله . قال: فضحك النبي ﷺ ، ثم قال: استغفر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة .

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إليَّ من وجهه ، ولكنى أقبلت عليه فما كان أحبَّ

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيماني ؛ لأن الرائي يرى نور الإيمان يتأديه ، فيلقيه ، ويلتقي به .

أما رؤية أبي جهل فهي رؤيا انقطاع إيماني ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذي جعله لا يرى في رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبي طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذي أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٣/٤٢٢) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب .

(٣) الأدمية في الناس : السمرة الشميلة ، وقيل : هي من أدمة الأرض ، وهو لونها ، وهو سمرى .

أبر البشر - عليه السلام . [اللسان : مادة آدم] .

(٤) الأسر : السمت الذي يستولى على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمر بن الملوح النخعي .

إِلَىٰ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ وَجْهِهِ ^(١) .

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣) هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤)

كلمة «الله» هي اسم عَلَّم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تنهاى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التى يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفى كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تنهاى .

ولذلك قال النبى ﷺ :

«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» ^(٢) .

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤/٤١٧) بلفظ : «والله ما رفع يده من صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه» .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (١/٥٠٩) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إن سلم من الإرسال .

وإن سأل سائل : ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب ؟

أقول : حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم نكن نعرفها ؛ ولذلك ليجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله»^(١).

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم علم على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها^(٢) هي اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هي الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها .

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتف صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولطف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت : باسم القوى ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت : باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت : باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحلم ، وإن قلت : باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت : «بسم الله» فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً ؛

(١) وذلك في يوم القيامة في مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ يأتي تحت العرش فيقع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب أمتي ، أمتي . من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم في صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل في رواية أخرى عن أبي هريرة أخرجهما الترمذي في سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذي أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال ^(١) بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غنى وجدته ، وإن احتجت إلى بسط ^(٢) وجدته .

وكل صفات الكمال أجزأها الحق سبحانه لنا في أن نقول : «بسم الله» .
وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كلَّ حَوْلٍ ^(٣) لك موهوب من الله ، والأشياء التي تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولو لم يذلل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذلها لنا حتى نتعلم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلمنا ، ولا بقدرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يذل .

فأنت ترى الطفل في الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبَةٌ على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلله لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل كلام - أو أمر - ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أيتر - أو قال : أقطع» .

(٢) أى : أن يسط في رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُ يَسَّطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾ [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك في الحياة .

مستساغة ، أما إن قطفنها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الشجرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادي من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلفه قبل ذلك ^(١) ثم طرأت عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يكلف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المكروه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرم على جميع الخلق أن يسرقوا منك ^(٢) .

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالنا ، ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوي يروض النفس إلى مرادات الله ، ولوقام العصى بالتكاليف لله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقييد قد جاء لصالحك.

وَهَبْ أَنْكَ أَطْلَقْتَ يَدَكَ فِي النَّاسِ ، فَمَاذَا تَصْنَعُ لَوْ أَطْلَقُوا هِمَّ أَيْدِيهِمْ
فِيمَا تَمْلِكُ ؟

وحيث حرم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكّي ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطى الفقير من المال الذي استخلفك الله فيه .

فلا تنظر إلى ما أخذ منك، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك
القدر بالفقر، والشيء الذي تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك
الثواب أضعافاً كثيرة^(١).

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظر إلى ما حَرَّمَ الله تعالى عليك من أشياء ، وما حَلَّلَ لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه .

إِذْنٌ : فَالتَكْلِيفُ لِمُصَالِحِكَ .

ثم بعد كل ذلك: أيعود شيء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه؟ لا .

أعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس في عملنا ما يزيد شئاً .

(١) يقول الله - عز وجل - في كتابه الكريم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [النساء] . وقد قال عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزُّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون] - ﴿وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ...﴾ [التوبة] - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٦٨) لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج] .

إذن: فمن المصلحة أن تطبق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير.

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح في الحقل ، إنه يحرق الأرض ، وينقل السماد ، ويذر ، ويروي ويتعب ، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار.

وأنت حين تنفذ تكاليف الحق^(١) سبحانه فأنت تمجد العائد ، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالنا بحساب الآخرة.

والفلاح الذي يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليزرعه ، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزنه ؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردباً.

وهكذا من ينفذ التكاليف يعود عليه كل خير ؛ ولذلك أقول: انظر في استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه.

وهكذا ترى أنه لا ظلم ؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيت صانعاً يفسد صنعته ؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً ، بل يحسنها ويعطيها الجمال والرونق^(٢) ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) تكاليف الحق سبحانه هي أوامره ونواهيه ، يكلف بها الله من آمن به ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ رِعَايَتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ بَيْنَ يَدَيْنَا لَا تَكْفُلُ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَقَدْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبَعَثَ اللَّهُ لَوْفُوا ذَلِكُمْ رِعَايَتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٧٥) وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ رِعَايَتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٦) ﴾ [الأنعام]

(٢) وفي هذا يقول رب العزة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٥) ﴾ [السجدة]

ويقول في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦١) ﴾ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٩٦)

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليدوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية ^(١) ، وبعد ذلك خص كل رسول بأية ومعجزة ، وأنزل منهجاً به «افعل» و«لا تفعل» ، وبين فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن تمتنع عنه ^(٢) ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو التلميذ الذى يرسل آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

(١) قد جعل الله فى الكون آيات يخاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاقِ الَّذِى تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا رِثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة)

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنَّا لَنُحْشَرُكُمْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِهْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَإِنَّمَا لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَأَصَابَكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَقْتُلُونَ ﴾ (٩١) ﴿ [الأنعام]

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده ؛ لأنه منزه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خلقه ليس عندهم نعم يريدونها ، فهو الذي أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أى ظلم ، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١١)

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّزِبَسُوا إِلَى سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿١٥﴾

فهذه الدنيا التي يتلف عليها الإنسان ، وبأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث في الدنيا إلا ساعة ، والساعة هي الساعة الجامعة التي تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة في الدنيا هي جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التي تُعلق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهي تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة في القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون في نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير في بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ... (٥٥)﴾

[الروم]

وهم - إذن - يُفاجأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرتت و كأنها مجرد ساعة^(١) ، وهكذا يكتشفون قصر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم يتفعوا بها أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول:

﴿كَانْتُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلُوا
بِهَٰذَا إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

[الاحقاف]

أى : أن الدنيا تمر عليهم فى لهر ولعب ومشاعل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللاتق بها^(٢) ؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ... (٤٥)﴾

[يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم من كانوا يتعارفون على البر ، وقسم من كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

(١) الساعة : أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة ، قال تعالى : ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ... (٥٥)﴾ [الروم] أى : مدة قليلة ، وقوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)﴾ [الأعراف] أى : لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ... (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة .

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١١٥)﴾ [الإسراء] ، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عظم هذا اليوم الأخير .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٩٧) [الزخرف]

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كَانَ سَبِيًّا فِي أَنْ يُؤُولَ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٥) [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة^(١) تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجر فيه ، وإما ألا يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته في هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث في الصفقات .

(١) خسر : أى خسر الرجل في تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، حين فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٦٢) [الأنعام] . وخسر نفسه . أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .. ﴾ (٦٢) [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرْنَا مِمَّا مَيَّيْنَا ﴾ (٦٢) [النساء] ، وقد يأتي متعدياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَطَاعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٦٢) [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية في الدنيا بقوله :

﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (١١) ﴾

[الصف]

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً ۚ لَّنْ تُبْزَوْنَ ۝ (٢٩) ﴾

[فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على
ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتي لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ ۝ (١٦) ﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ ۝ (١١) ﴾

[الجمعة]

(١) تجر من نصر - تجرأ وتجارة : باع واشترى طلباً للربح ، وتطلق التجارة على المال الذي يتجر فيه
التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذي يترتب عليه خير ، كأن الثوب ربح ، وكان الحرمان
منه خساراً ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ۚ ۝ (٢٨) ﴾ [البقرة] ، التجارة هي
التجر فيه ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً ۚ
لَّنْ تُبْزَوْنَ ۝ (٢٩) ﴾ [فاطر] هي الأعمال الصالحة ، وقوله : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ
مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝ (١١) ﴾ [الصف] ، هي التجارة بالمعنى المجازي أي العمل الصالح . [المقاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك في ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإيقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩) [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شيء أن يتموّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعَدُّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويهما ، وتُشَدِّبُ النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرَبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأس مالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت فى أية صفقة قد تعوَّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهي خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كاللدىنا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقى أن يكذب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(١) يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً...﴾ (٢٩)

[النور]

والسراب كما تعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا تشبه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ...﴾ (٣٩)

[النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه من عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد الناس يُكرمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل»^(٢) .

(١) السراب : ما يُرى في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء في الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمي السراب سراباً لأنه يرب سروباً ، أى : يجري جرياً ، أى : يتحرك حركة خداع الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى ويصير ناتج من الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .

والقيمة : أرض واسعة مستوية لا تثبت الشجر . قال الفراء : القيمة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَلْيَذَرُوا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (٦٠٦) [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرى ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . . . الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٢٣/٦) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كذبوا بقاء الله تعالى :

[يونس]

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أى : لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛ هذا المنهج الذى يمثل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يودى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يودى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أى : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَمَّا زَيْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْتَوْفَيْنَاكَ فَإِنَّا

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة .

أى : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ .. (٤٦)﴾ أى : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان فى هذه الحياة ، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يُرى فى الناس ؛ كحسرة فى النفس ، وكبت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر ، أى : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وسبى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾ .

وكذلك الله سبحانه شهيداً : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَفُضِّقْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ (٤٧)﴾

(١) قَسَطَ يَقْسِطُ - كضرب - قسطاً وقسوطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر : ظلم أو عدل ، من الأعداد ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ سَطَبًا (٥١)﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. (٤٩)﴾ [الأعراف] . والقسطاس : الميزان والعدل . «القاموس القويم» .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا
بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا^(١) فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾

[فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۝٢٣١﴾

[الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال
الرسول ؛ حتى لا يحتاج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .
والحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا يتعهدا بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحددين منذ ذرية آدم - عليه
السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت
الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث
في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحّد الآفات
أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما في
الأزمة القديمة ، فقد كانت أزمة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن
الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات
البيئة ، أما وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات^(٢) .

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿كَلِمَاتٍ وَأَشْرُوا هِنْدًا بِمَا اسْتَفْتَمُ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِبَةِ ۝٤٣﴾ [الحاقة] : أي : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هي جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ إِنَّكَ رَءِيفٌ رَحِيمٌ ۖ ذُو نُورٍ مَجِيدٌ ۚ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفُرْقَانَ بَيِّنَاتٍ لِّتُخَرِّجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ إِنَّكَ بِعَيْنِنَا ۚ لَمَّا تَبَايَعُوا لَكَ الْبَيْعَ ۚ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ۚ وَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۝٤٧﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾
[يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومن كفروا به هُزِمُوا .

أو أن الآية عامة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أى : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، يا أمة موسى ، يا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤٨)﴾
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ أَنْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا (٤٩)﴾
[النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : «اقرأ على» فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤٨)﴾ [النساء] فقال ﷺ : «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد فى مستدره (٣٨٠ / ١) .

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة فى الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣)﴾ [النساء] وقوله : ﴿وَلَا يَهْدِيكُمْ كُتُوبٌ وَلَا شَهِيدٌ.. (٣٨٧)﴾ [البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل فى سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس المفهرس] .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

وما دام فى الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

أى : يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقضى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

﴿ أَئِنَّا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١٦) أَوْ آهَؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (١٧)

[الصفات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول :

﴿ أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ ﴾ (١٥) [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحللتُم فى التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴾ (١) [ق]

أى : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً.

وهم قد كَذَّبُوا واستكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا^(١) هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يقر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨)

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين^(٢) في كل زمان ومكان ، وفي العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبخوا الطبقة العليا في المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ .. ﴾ (٤٧) [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴾ (٥٦) [التكوير] .
(٢) الملحدون : جميع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلَاحِذُونَ لِآيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ هَلِيلَنَا .. ﴾ (٤٩) [فصلت] . [المعجم الوسيط : مادة (لحذ)] .

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه^(١) .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والسيء بإساءته .

وكان المنطق يقتضى أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يجيء اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم فى قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً .

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩)

والرسول ﷺ يبرئ نفسه من كل حَوْلٍ وطولٍ^(٢) ، ويعلن ما أمره الحق

(١) يقول الحق : ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٧) مهبطين مغبين رؤسهم لا يرونه إنيهم طرفهم وأبعدتهم هراء (٤٨) [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : « إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

(٢) الحَوْلُ : الحلق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف فى الأمور . والطول : الفضل والنعى واليسر . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَنْطَلِعْ بِكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾ (٦٥) [النساء] . [المعجم الوسيط] .

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷻ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت ردّاً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷻ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولا تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١٥) [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً... ﴾ (١٣١) [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ؛ فأمن به قوم ، وكذب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين .

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .. ﴾ (٤٩) [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضراً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجل^(١) ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .. ﴾ (٤٩) [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خلق على هيئة القَسَر^(٢) في أمور ، وعلى هيئة الاختيار في أمور أخرى ، والاختيار هو في الأمور التكليفية

(١) الأجل - مدة الشيء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذي أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ .. ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجل الشيء : حدده أجلاً مستقبلاً : ﴿ لَا يَوْمَ أَجَلْتُمْ ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله . ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِدَّةٌ .. ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء في الدنيا ، والثاني : هو مدة البقاء في القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَئُهُ .. ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والأجل ضد العاجل ، والأجلة ضد العاجلة .

[الفاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

سُورَةُ التَّوْنِيسِ

٥٩٧٩

مصدداً لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ.. (٧٩)﴾
[الكهف]

وأنت حُرٌّ في أن تطيع أو أن تعصى ، وكل ذلك داخل في نطاق
اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع
معصية ، صنع لنفسه ضرراً .

إذن: فهناك في الأمور الاختيارية ضرر ونفع .

ومثال ذلك: من يتحجر بأن يشق نفسه ، فهو يأتي لنفسه بالضرر ، وقد
ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه .

إذن: ففي الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضرر أو النفع
لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحدّدوا أنتم آجال
الأمم ؛ لأن آجالهم - استصلاً ، أو عذاباً - هي من عند الله سبحانه وتعالى .

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بمجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور
ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُزَّهٌ أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو
المخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القاتل :

﴿سَأَرْبِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾

[الأنبياء]

وهو سبحانه القاتل :

﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً (١١)﴾

[الإسراء]

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجل في الأمور . واستعمل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى :
﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِهِ لَخَرَّبَتْهُمْ أَهْلُهُمْ.. (١١)﴾ [يونس] والعاجل : السريع عند
الأجل ، والعاجلة الدنيا ، والأجلة الآخرة ، يقول الحق : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة] . أي :
الدنيا ، وعجل الأمر طلبه قبل أن يذفع الشهوة ، وعجل الأمر مبعده . قال الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رِيبًا (٢٠)﴾ [الأعراف] .

إذن: فالحق سبحانه يؤخر مراداته رحمة بالخلق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن مياده ، ولا يتقدم عن مياده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩) [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذي جاء بعد ﴿ إِذَا ﴾ "جاء أجلهم" .. (٤٩) [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا

يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥٠)

وهذا ردٌ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب قلنر ماذا سيكون موقفكم ؟

وهم باستعجالهم العذاب يبرهنون على غيائهم فى السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أى : أخبرونى عما سوف يحدث لكم .

(١) إذا : تأتى لعتين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (٥٠) [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها قاضياً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفُتَّتْ ﴾ (١) [الانشقاق] أى : إذا انشفت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتخفض بالجملة الاسمية ، قال تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا وَبَاءَ عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠) [طه] « القاموس القويم » .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه :

﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا ۖ ﴾ (٥٠) [يونس]

والبيات مقصود به الليل ؛ لأن الليل محل البيوتة ، والنهار محل الظهور .
والزمن اليومى مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .

وشاء الحق سبحانه إيهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان في ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً في الغالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان في النهار مشغول بحركة الحياة .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۚ ﴾ [الاعراف]

ويقول سبحانه :

﴿ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَنُونَ ۚ ﴾ [الاعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتي في الليل وفي النهار معاً ؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفي ذات الوقت يكون الزمن نهاراً في بلاد أخرى .

وإذا جاء العذاب بغتة ، وحاولوا إعلان الإيمان ، فلن يثفعهم هذا

(١) بَأْسُنَا : عذابنا والبأس القرة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ۚ ﴾ (٢٥) [الحديد] ، أى : قوة وصلابة ، وقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ ﴾ (٨١) [النساء] شدتهم وقوتهم فيصددهم عنكم ، وقوله الحق : ﴿ وَجِئَ الْبَاسُ ۚ ﴾ (١٧٧) [البقرة] ، أى : وقت الحرب الشديدة ، وقول الحق : ﴿ وَسَرَابِيلٌ تَقْبِكُمْ بِأَسْكُمْ ۚ ﴾ (٨١) [النمل] ، أى : شدتكم وقوتكم في الحرب ، فتحنقظكم الدروع من أخطار الحرب . والبأساء : الفقر والشدة ، ويقول الحق : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ۚ ﴾ (١٧٧) [البقرة] في وقت الفقر والحاجة .

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَشْرَأُ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُكُمْ بِهِمْ أَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِمْ

تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٩١)

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون ؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون^(١) حين جاءه الفرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

(١) وذلك أن فرعون خرج في جيش كبير يقدر بمائة ألف وخلق موسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يشرب البحر بمصاه : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ احْرُبْ بِمِصْرَ الْبَحْرِ فَاغْلُظْ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٧) [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَخْرَكَ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٩) [يونس]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيته وأنا أخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدسه في فيه (أى : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الترمذى في سننه وقال : حديث حسن . وانظر تفسير ابن كثير (٤٣٠ / ٢) والقرطبي (٣٣٠٥ / ٤) .

[يونس]

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . . ﴿٩٠﴾

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ

تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٩١﴾﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه في اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم في الدنيا ، وسيلقون العذاب في الآخرة ، وهو ﴿عَذَابُ الْخُلْدِ﴾ أى : عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعه منهج مفصل مؤيد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزي وهوان ، لكن محدوديته في الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنهات ، قد يكسب خمسة جنهات .

وهنا سؤال : هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل ؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

(١) الخلد : الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [اللسان : مادة (خ ل د)] .

زيادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب^(١) بفهمه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأماراة ، وهذا يعنى أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات^(٢) تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَسْتَنبِثُونَكَ أَهَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١)

وهم قد قالوا من قبل : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ...﴾ (٤٨) [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿وَيَسْتَنبِثُونَكَ﴾ أى : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هو﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

(١) قال الله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾ [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السيء جزاء ما اكتسب .

(٢) نعمة الشيء : نتيجه وعاقبه وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (ت ب ع)] .

(٣) إى : نعم . حرف جواب .

(٤) أى : أنكم لن تعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكفون .

إذن: فقولهم: ﴿وَيَسْتَبِشُّونَكَ﴾^(٥٣) "أحقُّ هو" .. ﴿لَهَا أَكْثَرُ مِنْ مَرْجِعٍ﴾ ،
كأنهم سألوا: هل القرآن الذي جئت به حق ؟

وهل النبوة التي تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التي تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة
الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق ؟

وهل العذاب في الدنيا حق ؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى .

ويأتى الجواب من الله تعالى :

﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ ۝٥٣﴾ [يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلًا: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم
موجود. ولا تقول له: والله إن زيدا موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن
يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد .

إذن: فأنت لن تؤكد إجابة ما إلا إذا كان هناك في السؤال شبهة إنكار .

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه :

(١) النبا : الخير ، أو الخير ذو الشأن ، قال تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ٢٠﴾ عن النبا العظيم ﴿٢١﴾ [النبأ] وهذا النبا
هو البعث . وأنباء بالشيء ونباه به : أخبر به ، وأنبا يتعدى للمفعول به واحد ، مثل قوله تعالى :
﴿ أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ ۝٢٢﴾ [البقرة] ، ويتعدى لمفعولين مثل : ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا ۖ ۝٢٠﴾ [التحریم] ، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله : ﴿وَنَبَّأَهُمْ عَنْ ضَلِّفَ إِبْرَاهِيمَ ۖ ۝٢١﴾ [الحجر] أى :
حدثهم . واستباه : طلب أن يتبَّه كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ ۝٥٣﴾ [يونس] .

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ...﴾ (٥٣) على أن سؤالهم يحمل معاني الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إي»^(١) وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إي» دائماً مع القسم .

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ...﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿إِى وَرَبِّى...﴾ (٥٣) [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه لحق . وأنت لا تقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد .

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ^(٢) إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (٦٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا^(٣) بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (٦٤)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (٦٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

(١) إي : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾ (٥٣) [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم . من تفسير ابن كثير (٥٦٨/٣) بتصرف .

(٣) عزَّزْنَا : أَيْدَيْنَا وَقَوَّيْنَا .

﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦)

[يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد .

إذن : فالتأكيد في أسلوب المستول إنما يأتي على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ، فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد .

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتي مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لجة في الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجحاً في الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات .

وقد علم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم : ﴿ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ ۝ (٥٣) ﴾

[يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلّفه ، ثم يؤكد ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ لأن سؤالهم تضمن الإنكار والاستهزاء .

وما دام قد قال : ﴿ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك منجى من الله تعالى ، ولن تُعجزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعاً من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلّة تتقدم لتشفع لكم .

ثم يأتي قوله سبحانه في نهاية الآية :

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ (٥٣) ﴾

[يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء^(١) ؛ ولذلك جاء الإيضاح فى الآية التالية ، فيقول سبحانه :
 ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ .
 وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم
 بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [٥٤]

وساعة يأتى العذاب فالإنسان يرغب فى الفرار منه ، ولو بالافتداء .
 وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ،
 حتى ولو كان يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض^(٢) .
 ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات
 والأرض ؟
 طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتى . وهب أنه تأتى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما فى
 السموات وما فى الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم فى الدنيا قد أخذ حق
 الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم
 إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صبح ذلك لتحوّل البعض إلى مغتصبين
 لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المذنب . قال تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ عَظِيمٌ ﴾ [الصافات] .
 [المعجم الوسيط : مادة (ف د ي)] .

(٢) ندم على ما فعل ينلم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتعنى أنه لم يفعله ، قال تعالى :
 ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴾ [يونس] وندام اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَاصْبِرْ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [٢٤] .
 [المائدة]

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يُؤَذِّبُ الْمُنْجِرِمَ لَوْ يَفْقَدِي مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُ (١١) وَمَا حِجَّتْهُ وَأَحْلَاهُ (١٢) وَفَصْلَحَتْهُ الَّتِي تُؤْزِرُهُ (١٣) وَفَن لِّى الْأَرْضُ جَمِيعًا ثُمَّ نَجَّيْهِ (١٤) ﴾ [المعارج] .

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم في الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم في مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختل ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها .

وهب أن الظالم أخذ مُلك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدي به نفسه ساعة يأتي العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقبل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير ؟ وهذه ظاهرة موجودة في دنيا الناس .

وهب أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلايبه ^(١) فيقول : خذوا ما عندي واتركوني . ولن يقبل القانون على القانون ذلك . وإن كان مثل هذا التنازل يحدث في (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث في الدنيا ، لكنه لن يحدث في الآخرة .

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ^(٢) وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه في آية أخرى :

(١) التلايب : مجامع ثياب الرجل . والتليب : هو جمع الثوب الذي يلبسه عند صدره ونحوه ، وجرة . [اللسان مادة لبب] .

(٢) العدل : القدية المائلة ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ...﴾ [البقرة] أى : لا ينجيها من العذاب دفع فدية مائلة ولا تقبل منها . وعدل الشيء : وعده أقامه وسواه ، قال الحق : ﴿وَالَّذِينَ خَلَقْتَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلْتَ (٢)﴾ [الأنعام] وعدل المشرك بربه : جعل له مساوياً . قال تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ...﴾ [الأنعام] وما كان ينفي أن يعدلوا غيره ، فليس كمثله شيء ، ومثلها قوله : ﴿إِلَهِهُمُ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٣)﴾ [النمل] أى : يجعلون له شريكاً مساوياً . وأما قوله : ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أَنفُسَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْدِلُونَ (٤٨)﴾ [الأعراف] أى : يحكمون بالعدل [القاموس القويم] .

﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٧٣) [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقة تتجلى في الآيتين ؛ لأن القارئ لصَدَر كل آية منهما ، والفاهم للملكة اللغوية العربية يعرف أن عَجَز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (٤٨) [البقرة]

يرى أنه أمام نفسيين : النفس^(١) الأولى هي التي تقدم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفي الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ (٥٤) [يونس]

وفي هذا القول تعذر ملك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ ونكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضى الله عنه .

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...﴾ (٥٩) [يونس]

أى: أخفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى .

إن كلاً منهم يكتنم همّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينهر ويصعق ويُهت " من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمّد كل دم فى عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم .

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لون من التنفيس البدنى ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .

هم - إذن - يُسرون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ (٥١) ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (٥١) [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فهب أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خلق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقتضى الله بينهم بالحق ، أى : يخفف عن المظلوم بعضاً من

(١) يهت : أى : يملكه هول ما يحدث ، فيقطع عن الكلام أو غيره .

(٢) القسط : المراد به هنا العدل .

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى : عدم تحيز ،
وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم -
وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق
رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما
أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ،
وكل وسائل الرزق والقوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما
حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى
فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ
حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول
بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ،
بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المفاجأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن
المخاطب يفاجأ ، وإلى أن يتنبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

(١) وعده شيئاً بعده وعداً وعده : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد
المفعولين للمعلم به ، قال الحق : ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ ..﴾ (٩٥) [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ،
والحسين مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى الفخير كثيراً ،
وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿لَشَيْطَانٌ يَّعِدُكُمُ الْفَقْرَ ..﴾ (٩٦) [البقرة] أى : يندركم ويخوفكم بالشر ،
والفعل متعدٍ لمفعولين «كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس المقيم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألا يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شيء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً.

وإذا خدمت الأسباب الإنسان ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ^(١) عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكان الحق سبحانه ينبههم : **تَنبِيَهُوا أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ، وافهموا هذه القضية الكبرى : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾** [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغتر بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريدك الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدر لك ، وكل الأسباب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَفَعِلَ عَلَيْهِمْ وَإِتَابَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ مَا إِنْ مَفَاتِحُ لَحَرِ بِالْفِئَةِ أَرْزَىٰ الْقُوَّةَ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٨)﴾ [القصص] . وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرة ثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتمطعه على الناس ، وقوله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص] فكان جزاءه : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُقْبِرِينَ (٨١)﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعباء وتقدير من الله عز وجل .

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أى منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بتأثيرها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرق الأرض ، ويرويه فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن : فمرد كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلم أن هناك ملكاً ، وأن هناك ملكاً ، والملك " هو ما تملكه ؛

(١) الملك . فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ .. ﴾ (١٢) [النمل] ، ومن للجواز قوله : ﴿ آمَنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٢٠) [يونس] .

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿ لَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .. ﴾ (٧١) [يس] ومملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا .. ﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكٍ .. ﴾ (٨٧) [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿ عَلٰى مَلِكٍ سَلِيمٍ .. ﴾ [الفرقة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهٖ امْتِخَانَهُ لِنَفْسِى .. ﴾ (١٠٤) [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والمملوك : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿ بِهِدْءٍ مَّكْنُوتٍ كُلُّ شَيْءٍ .. ﴾ (٥٢) [يس] والملك واحد الملائكة « القاموس الفوم - بتصرف »

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْكُ فهو أن تملك
من له مَلِكٌ ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - في المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ .. ﴾ (٢٦)

[آل عمران]

إذن : فالمُلْك في الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت في أول الآية - التي نحن بصدد خوارطنا عنها -
لتنبيه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاعترَّ
بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف في بعض الأشياء ؛ ليظل
الإنسان مربوطاً بالسبب .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

[يونس]

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴾ (٥٥)

والوعد إن كان في خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان يَشَرُّ فهو إنذار
بشرٍّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعد» .

إذن : ففي غالب الأمر تأتي كلمة «وعد» للثنين : الخير والشر ،
أما كلمة «وعد» فلا تأتي إلا في الشر .

والوعد : هو إخبار بشيء سيحدث من الذي يملك أن يُحدث الشيء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها
الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «أتيتك غداً في المكان الفلاني
لأكلمك في موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمره ، والموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتي لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهب أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلم الله سبحانه خلقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ۖ (٢٤) ﴾

[الكهف]

وحين تقدم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قدراتنا ، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا راد لما وعده سبحانه ؛ لأنه منزّه عن أن يُخلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبى عليه " ، ووعدده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التي يُجريها الحق سبحانه عليك .

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفداً منهم إلى أخبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ فأنزلهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : « سلوه عن فتية في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب » فسألوه فقال رسول الله ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتكم عنه » ولم يستش - أي : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه في ذلك شيء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١) .

(٢) التأني : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أيا] .

وَهَبْ أَنْكَ أَرَدْتَ أَنْ تُبْنِيَ بَيْتاً ، وَقُلْتَ لِلْمُهَنْدِسِ الْمَوَاصِفَاتِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَرِيدُهَا فِي هَذَا الْبَيْتِ ، لَكِنَّ الْمُهَنْدِسَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنَ الْأَسْوَاقِ بَعْضاً مِنَ الْمَرَادِ الَّتِي حَدَدْتَهَا أَنْتَ ، فَأَنْتَ - إِذَنْ - قَدْ أَرَدْتَ مَا لَا يَمْلِكُ الْمُهَنْدِسُ تَصَرُّفاً فِيهِ .

لَكِنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخَالِقِ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ حِينَ يَعْدُ بِصِيرٍ وَعَدُهُ مُحْتَمٌّ الْفَإْذِ ، وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ يَنْكُرُونَ ذَلِكَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ :

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [يونس]

أَيَ : أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالُوا :

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ .. (٥٨)﴾ [يونس]

أَوْ أَنَّ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَعْنِي : أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ أَلَّا يَضَعُ نَفْسَهُ فِي مَوْعِدٍ دُونَ أَنْ يَقْدَّمَ الْمَشْيِئَةُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ عُنَاوِرِ أَيِّ وَعْدٍ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ ، وَالْمُلْكِ وَالْمُلْكِ ، هِيَ فَرْعٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ ؛ لِأَنَّهُ مَالِكُ الْأَصْلِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُمِيتَ ، وَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْحَيَاةِ يَسْلِبُهُ ^(١) اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْمَوْتِ ، فَهُوَ

(١) سَلَبَهُ الشَّيْءُ وَيَسْلِبُهُ مِنْ بَابِ نَصَرٍ مَسْلَباً : فَرَعَهُ مِنْهُ قَهراً أَوْ اخْتِلَاسَهُ ، يَقُولُ الْحَقُّ : ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَخْلُقُونَهُ مِنْهُ . (٧٢)﴾ [الحج] أَيَ : يَنْزِعُ مِنْهُمْ شَيْئاً ، وَهُوَ فِعْلٌ يَتَعَدَّى لِمَقْعُولَيْنِ «الْقَامُوسُ الْفَرِيدُ» .

مالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (١-٤)

[البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾ (١)

[النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ (١٨٣)

[البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ^(١) فِي الْقَتْلِ ..﴾ (١٧٨)

[البقرة]

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ ..﴾ (٥٧)

[يونس]

والآية هنا تصوّر الموعظة وكأنها قد تجسّدت وصار لها مجيء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثر وتحض على الإيمان .

والموعظة^(٢) هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بلفظ مؤثر ، ويقال : فلان واعظ متميز ، أى : أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة ببسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء^(٣) .

(١) القصاص : هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بمثل ما قتل أو جرح ، وهى شريعة جاءت النورانية بها وأقرتها شريعة الإسلام ، قال تعالى : ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ نَبَاً إِذْ تَلَقَّوْا نَفْسَ الْفِتْرِ وَالتَّمِيزَ بِالْبَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرْحَ الْجُرْحَ﴾ (٢٤) [المائدة] .

(٢) وعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة والعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . قال تعالى مصوراً عناد الكافرين : ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَرَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَارِعِينَ﴾ (١٣٦) [الشعراء] فهم لعنادهم يتساوى عندهم الأمران . والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى : ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١١٦) [البقرة] وقال : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ..﴾ (١١٧) [النحل] ، والموعظة لها مقدمات بلاغية من متعلق إيماني . عادة وعظ بتصرف . من «القاموس المجمع» .

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى الموعظة الحكيمة ، فعن العرياض بن سارية قال : قام فينا رسول الله ﷺ ، ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . الحديث أخرجه ابن ماجه فى سنه (٤٢) والترمذى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (١٢٦/٤ ، ١٢٧) .

لأن الموعوظ قد يقول فى نفسه : لقد رأيتنى فى محل دونك وتريد أن ترفعنى ، وأنت أعلى منى . فإذا قدَّر الواقعُ هذا الظرف فى الموعوظ فهو يستميل نفسه .

ولتذكر الحكمة التى تقول : «النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلًا ، ولا ترسلوه جَبَلًا ، واستعبروا له خَفَّةَ البيان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتى له بالأسلوب الجميل المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه .

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا فى خلاصة حكمة الأشياء ، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وَصِيَّتِهِ ، ويوصيهم بعيون^(١) المسائل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾

[يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربى والكفيل ، وإن كفرت به .

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أى : أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تنوزع ما بين قسمين : القسم الأول هو مقومات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

(١) عبون المسائل : أى : أصولها ، والمهم منها ، وعين كل شئ : خياره . [اللسان : مادة (عين)] .

إذن : فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذي خلق من عَدَمٍ وأَمَدَّ من عُدَمٍ ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق .

إذن : فالموعظة تجيء ممن يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّهٌ عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شيئاً منك ^(١) فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي غير مرتبة ولا منسقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل ^(٢) ؟

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ عما في النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خوارطرتها عنها :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

(١) وقد أعطانا القرآن مثالا لهذا عن الهدى الذي يذبحه الجميع ، فيقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دُمُومَهَا وَلَكِنَّ يَنَالَ الثَّقَلَيْنِ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ . [الحج] .

(٢) يدل الشيء غيره ، وبديل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ السَّمَاءِ مَا كَانُوا يَسْتَخِفُّونَ (٥١) ﴾ [البقرة] أي : غيرهه بكلام آخر . ويقول الحق : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٦) ﴾ [النمل] أي : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشيء من الشيء ، وأبدل الشيء بالشيء جعله بدلاً منه ، وتبدل الشيء بالشيء ومن الشيء جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَفْجَيْتَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٦٦) ﴾ [الأحزاب] .

أى : أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلّ يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُتقى باطن الإنسان ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصح ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى نابعة من وجدان طاهر مُصَفّى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة^(١) .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ؛ لتبين أن الهداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخرج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم .

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب : إن الشفاء هو إخراج لما يُمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٨٢) [الإسراء]

وهكذا يتبين لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

(١) عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

ومثال ذلك : طيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بشوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرب الفاهم فهو يعالج الأسباب التي تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها .

وفي القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه :

﴿ اَرْكُضْ ^(١) بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص]

أى : اضرب برجلك ذلك المكان يخرج لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجه ^(٢) التي تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصل إلى الغاية الحقّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأىِّ داء ، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إن صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

(١) ابتلى الله سبحانه عبده نبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض في جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يبق معه إلا زوجته التي اضطرت للعمل في خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضَّرَّ وَأنتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمِ ﴾ [الأنبياء] استجاب الله له وأزال عنه الضرر إذ قال له : ﴿ اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله في الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض في مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ذكرها ابن كثير في تفسيره ٢٩ / ٤ ، ٤١] وقال عنه سبحانه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْمُجْتَدُّ ﴾ [ص] .

(٢) المواجه : المقصود بها أعمال القلب التي إن استقامت استقامت الجوارح .

والرحمة ، والعمل الصالح ، فيأياك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلنا بعباداتنا لن نؤدي حقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلِّف ، وعلينا أن نتدبر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد في دنياه ، وهو لن يؤدي بطاعته حق كل النعم التي أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكَلِّف إلا عند البلوغ ، أى : فى سن الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التي أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السن ، فهو لن يحصيها ^(١) ، فما بالناس بالنعم التي تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدّقتُ بكذا ، أو صليتُ كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبدي ، وتذكّر القول

(١) تغمّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمّدني » : يلبسني ريتشاني ريتشني . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة

هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة فى نظرك فهي مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رَبٌّ مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانْكَسَارًا ، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةِ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ ﴾

إن تمتع الإنسان في الحياة بالملك والمالك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبنا الحق سبحانه آيَّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذي يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحريمه ^(١) ؛ لأن الحق سبحانه حدّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعامل نفسك كما تعامل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يملك بها ما حلّله الله لك .

وكذلك حرّم الله عليك ما يضرّك .

وليك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّني فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْمَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا آمَلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ۚ ﴾ (النحل : ١١٥) .

ما فى الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضج لك الطعام .

إذن : فهناك شئ مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرّم عليك لحم الخنزير^(١) ، فلا تسأل : لماذا خلق الله الخنزير ؟ لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يللملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التى أرادها الله لها .

وبعض الناس قد حرّم على نفسه أشياء حلّها الله تعالى^(٢) ، وهم بذلك يُضيقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلل ما حرّم الله أنه يوسع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ .. ﴾ (٥٩) [يونس]

أى : أخبرونى ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تتفعنون به ، إما مباشرة ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيّن لكم الحلال والحرام ؟!

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى^(٣) ، وكل ما ترونه

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْفُدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْفِدِينَ (١٧) وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٥) ﴾ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّكُمْ سَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] فنزول المطر من السماء هو رزق ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبت الزرع فيأكل منه كل كائن حى على الأرض من إنسان أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَخَضَلَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ .. ﴾ (٩٣) [يونس] .

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذي تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشتري به ما يأكله .

وكلمة ﴿أَنْزَلَ﴾ تعني : أَوْجَدَ ، وخلق من أعلى ، وما دام كل شيء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿أَنْزَلَ﴾ من جهة العلو الحسية ، بل خُذها من جهة العلو المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّرٌ مَن خلق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [٢٥] [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذي نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أي : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الرزق ، ويبيّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) البَيِّنَات: الآيات الواضحة . والقِسْط هنا: العدل . والبَأْس: القوة . [لسان العرب] .

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْلَ لمن خَلَقَ وهو سبحانه أَدْرِ بِمَصْلَحَتِكُمْ ؟

﴿ قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ ۝٥٩ ﴾ [يونس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ ﴾ أى : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبين لنا مدى قُبْحِ السلوك فى تحريم ما أحلَّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلَتْ الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرننا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٠ ﴾ [المائدة]

والبَحِيرَة - كما ذكرنا - هى الناقة التى أنجبت خمس يُطُونُ آخرها ذَكَرٌ ، وكانوا يَشْقُونَ أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة^(١) غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أى حمل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّامَ الآلهة التى كانوا يعبدونها ، وسمَّوها «بحيرة»^(٢) ؛ لأنهم كانوا يشقون آذانها علامة على أنها أدَّتْ مهمتها .

(١) السائمة : الغنم والماشية ترمى حيث شاءت ، والسائم : الداهى على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم]

(٢) وبسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنها يكون شقاً واسماً فأشبه البحر فى سحته . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٢/٦٠٨) وفى تحديد المقصود بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن أم بنتها التى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٢/١٠٧ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل فى بعض الأقوال أن السائبة هى أم البحيرة .

أما السائبة فهي غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً^(١) وَهَبَ أَنْ يجعل ناقةً لخدماء الأصنام ، واسمها سائبة ، وهي أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرض لها .

والوصيلة : هي الأنثى تلدها الناقة في بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وَصَلْتُ أَخَاهَا» ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

﴿وَلَا حَامٍ﴾ والحام : هو الفحل الذي يحمى ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبطن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَل عليه ، ويترك لخدماء الأصنام .

هذه هي الأنعام المحللة التي حرّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خدّام الأصنام ، وفي ذكر عدم تحريم تلك الأنعام راقعة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرْمٌ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ اشْتِمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرْمٌ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ اشْتِمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٤)﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حرّموا بعضاً مما أحلّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

(١) كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برى من حلة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتي سائبة أي : تسبب فلا يتنفع بظهرها ، ولا تحلب من ماء ، ولا تمنع من كلاً ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة (سبب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ^(١) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ^(٢) وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ^(٣) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ^(٥٩) ﴾ [يونس]

وهكذا تدخلوا في تحريم بعض الحلال وحلّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدّ ما كان يجب أن يقتضوه ^(٣) ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَذُوفَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ^(٦٠) ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

(١) ذرأ : خلق . والحراث : هو الزرع والثمار .

(٢) بزعمهم ، أى : بقولهم الكذب ، [لسان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم في قوله : ﴿ قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ حَنْزِيرٍ لِإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلُ لِقَابِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١٥٠) ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدّه الله لهم من العذاب والنكال^(١) يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦٠) [بونس]
إن الله سبحانه متفضل على كل خلقه - وأنتم^(٢) منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزد من عطائكم ، لكنكم تسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾



(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣٩) [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَعًا وَيَتَغَفَّلُونَ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَنِفَالِطِلْ يُؤْمِنُونَ وَبِعِصَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (١٧) [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا مَعًا يَجْنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٥) [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : تندفعون فيه وتبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى : ما تكون يا محمد فى شأن .
والشأن : هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر .

ونحن فى حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب
السامع بالشىء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور .

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

أى : لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ،
وقال لها : اعملى أنت ، لا فهو سبحانه كل يوم فى شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء^(١) : ما شأن ربك الآن ؛ وقد صحَّ أن
القلم قد جفَّ ؟ فقال : «أمور يديها ولا يبتديها» .

أى : أنه سبحانه قد رسم كل شىء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو
سبحانه قيوم ، أى : مُبَالِغٌ فى القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئنتنا
سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سنة
ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث فى الآية التى نحن بصددھا موجه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ .. ﴾ (٦١)

[يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذى يهتم به ليس المأكَل ولا المشرب ، إنما المهم
بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ .. ﴾ (٦١)

[يونس]

(١) هو : الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه
الآية ، فقال : إنها شئون يديها لا شئون يبتديها . ذكره القرطبي فى تفسيره (٩/٦٥٦٧) .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦٠١٣

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له ^(١) ، وتعنى تأييداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ^(٢) أُغْرِقُوا .. (٧٥)﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبي ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأييداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا آتَاكُمُ ^(٣) الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصاب ^(٤) الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرع .

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهمزة فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شيئاً ، فيتلو من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبي فى تفسيره (٣٢٨٣/٤) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآني ، وإما تطبيق فعلي للنص القرآني بالحديث النبوي ، وبالأسوة التي تركها لنا ﷺ في سنته .

والْحُجَّةُ عَلَى الْحُكْم - أَى حُكْم - يَأْتِي بِهَا الْقُرْآن ، فَإِنْ كَانَتْ الْأَحْكَامُ غَيْرَ صَادِرَةٍ مِنَ اللَّهِ مَبَاشَرَةً ، فَيَكْفِي فِيهَا أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِتَفْوِيضٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيُشْرَعَ .

وبذلك نردُّ عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا بِشَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: «بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ»^(١) ، وَهَدَفَهُمْ أَنْ يَرُدُّوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَعَلًا ، أَوْ قَوْلًا ، أَوْ إِقْرَارًا .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ..﴾^(٦١) [يونس]
وفي هذا انتقال للسامعين للقرآن ، المبلَّغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنية القلب - يسمَّى عملًا ؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولًا ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلًا .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين: قول ، وفعل .

(١) عن المقدم بن محمد يكرّب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدّث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرّمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطني (٢٨٦/٤) في سنتهم ، واللفظ للدارقطني .

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمتهيج فور أن يبلغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق ، وتلك الלהفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أى : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ^(١) مِنْ عَرَفَاتٍ^(٢)﴾ [البقرة] أى : شَرَعْتُمْ^(٣) فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَّيْتُمْ نُسْكَأ أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسْكَ ثَانٍ .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيات وما بُيِّتَ فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شيء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

يقول الحق سبحانه :

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة رفقاً بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (٥١٨/١) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته حتى إن رأسها ليصيب مورك وحله ، ويقول بيده اليمنى : أبها الناس المسكينة السكينة ؛ أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) شرعت فى الأمر : بدئته ودخلت فيه .

﴿وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١) [يونس]

أى : أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكلمة «يعزب» تعنى : يغيب ويختفى .

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضع عندك جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلّة .

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذرّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهباء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهباء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكونات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها .

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين : إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المجاهر التى تُكَبِّرُ الشيء المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصغر بحيث

لا تستطيع عينك أن تدركها ، فإن رأيته بالمجهر كَبُرَتْ فتري
فجوات وتعاريج وعُلُوتَ وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذي تراه
تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين
الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت
إذا رأيته - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل
صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله في عينيك .

إذن : لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لآى
شيء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى :
النملة الصغيرة .

وأنت إذا وطأت غملة في أرض رملية فهي لا تموت ، بل تدخل في
فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى .

قد بيّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدّث عن سليمان - عليه
السلام - في وادي النمل ، فقال تعالى :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهي في الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة في الحياة ، وأن من بينهم
جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير^(١).

إذن: الذرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .
وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه
مثقال ذرة .

ويعزب ، أى: يغيب ، ويقال: «هذا البئر مأوه عازب» ، أى: قادم من
عمق بعيد ، ويحتاج استخراجُه إلى دلوٍ وحبالٍ طويلة .
ونسَمَّى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَب» .

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ . أى: لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر
شيء ولا أكبر شيء .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان
إنما يشهدها الله ، وَيَعْلَمُهَا ، وهو المُجَازِي عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعْمَى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعْمَى
على قضاء السماء^(٢) .

ومسألة الذرة والصغر يقول عنها الحق سبحانه:

- (١) قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل] وسار سليمان
بمركبه العظيم هذا: ﴿فَإِذَا نُورًا عَلَى وَادِ النَّمْلِ (١٨)﴾ [النمل] أى: مَرُّوا على وادى النمل فقالت
غلة لإخوانها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٩)﴾ [النمل] فهى
خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان .
﴿فَلَمَّ سَاعِكَانَ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (٢٠)﴾ [النمل] . أى: ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت
بها على من تعلّمتى منطق الطير والحيوان وعلى والدى بالإسلام لك . [ابن كثير: ٣/٣٥٧ - ٣٥٩] .
(٢) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولعلَّ بعضكم أن يكون
أخسَّ بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً
فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
[الزلزلة]

هذا للمتساوي في الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ (٦)﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هي الجزء الذي لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل في زمن نزول القرآن .

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلة لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجواهر الفرد. أي : الشيء الذي لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتي عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه «الجواهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّت الذرة .

وقد جعل الحق سبحانه المقياس في الصغر هو الذرة .

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَّس المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا يَغْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

و﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو يغيب ﴿عَنْ رَبِّكَ﴾ أى: عن علمه
﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذرة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى
اللغة، كقولنا: «ما جاءنى من رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر
زائد، و«رجل»: فاعل مرفوع بالضممة الظاهرة التى منع من ظهورها
اشتغال المحل وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد^(١)، ف«مِنْ» فى قوله:
﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مِثْقَال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَٰنَكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ
لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ.. (٣)﴾ [سبا]
وكلمة ﴿وَرَبِّى﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت
هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن
بصددها خوطرنا عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عَالَمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير
مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق
سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة.

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. وأحق أن حروف الجر
«الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد
تأكيد معنى النفى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بصرب هذه الأمثلة؛
لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معنى مال» و«ما معنى من مال» فكلمة «من»
فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفي وجود أى مال مع التكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما
معنى مال».

سُورَةُ الْاَنْشُرِ

٦٠٢١

لقد قال الحق كلمة «مِثْقَالِ ذَرَّةٍ» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ .. ﴾ (٧) [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .. ﴾ (٦١) [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مِثْقَالٌ» .

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣٠) [سبا]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب " ، فيأتى بمِثْقَالِ الذرة ويقدم السماء ويأتى بها مفردة ، ثم يأتى بما هو أقل من الذرة ويقدم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكَةِ الأداء البياني .

وإن عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قدّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

(١) غاب الشيء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيبية : اسم مرة من غابه ، أى : ذكره في غيبه بالسوء كاختابه ، قال الحق : ﴿ وَلَا يَغْنَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا .. ﴾ (١٦) [الحجرات] والغيبية : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٢٣) [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٥٥) [المائدة] .

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (٦١) [يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّی لَتَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣) [سبا]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلفين فى الأرض : قوموا ها هى الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً : لأن علم الساعة عند ربى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١) [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخرج ما قبله ، بل كل شيء

(١) بأن الشيء بين بياناً ظهر واتضح ، فهو بين وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، يستعمل البين والبيين بمعنى المظهر والمظهرة والمرضح والموضحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿كَمْ أَتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ (١٠١) [البقرة] والبين تستعمل بمعنى الحجة والبرهان . وقوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٢) [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان للتعدي ، وقوله : ﴿وَهُوَ فِي الْفُصُحِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ (١١٨) [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من

مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نجد الإنسان إن كان له دين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجّل ما له وما عليه . ولكن ، أ يحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟ إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿الْآيَاتِ أُولَئِكَ اللَّهُ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيبوضات الإمداد على قدر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أَنْ الله قد امتن عليك بنضحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد علّم غيباً لأنه وليّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعلّمٌ غَيْبٍ» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرِق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرِق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ،
والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب " لينزل الماء ،
كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدد لكل أمر منها
ميعاداً كشف ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويعتهد ليكشف أسرار
الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف
كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ،
وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية
فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات
السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو
صدفة .

إذن : فى الكون غيب قد يصير مشهداً ، إما بمقدمات يتابعها خلق الله
بالبحث ، وإما أن تاتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغطى يغلى فيه
الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

(١) يقول سبحانه : هُوَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (١٦) [الحجر]
والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النباتات والشجر ، أو أنها تستدر السحب
لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تَجَرُّ العربات التي تسير على عَجَلٍ ،
وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده
لكي يتأمل ؛ ليكتشف سرّاً من تلك الأسرار^(١) .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لفهم أن عطاء الله بميلادهما -
دون مقدمات من الخلق - أكثر مما وُصِّل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائي في القرآن عن لَوْنِي الغيب ،
تعبيراً دقيقاً لفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له
مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا
يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ .. ﴾ (٢٥٥) ﴿ [البقرة]

هذا هو الغيب الذي يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ،
أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا
هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذي لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيهِ
إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمة
للإنس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَمَرُ اللَّهَ فَلَا تَسْمَعُ لَوْلَا .. ﴾ (١١) [النحل] ، وهناك غيب لله
لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ^(١) عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ ۖ رَسُولٌ.. (٢٧)﴾
[الجن]

إذن : فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خلقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات وحدد من يعطيه بعضاً من الغيب :
﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ.. (٢٧)﴾
[الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة^(٢) ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ خَيْرًا ۖ (٢١)﴾
[الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبة يراها الناس فيعرفون أن من يتبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبة ليست وظيفة ، وليست (دُكَّاناً) للغيب ، بل هى من عطاءات الله تعالى .

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى نبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٥)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِنِ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. (٤٢)﴾ [الكهف] أى : إن يتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكث منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّهْنِ كُلِّهِ .. (٣٢)﴾ [التوبة] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم)

(٢) الأسوة : القدوة [لسان العرب : مادة (أ س ي)] . أى : الاقتداء بفعل الغير واتخاذهُ مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۖ...﴾ (٥٩) [الأنعام]

أى: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [يونس]

نجد أن كلمة «ولى» من وكيه ، يليه ، أى: قريب منه ، وهو أول مَفْزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على من والاه .

ومن يقرب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومن يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة ، ومن يقرب غنياً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قرضاً .

إذن: فالوكي هو القريب الناصر المعين الموالي .

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ۖ...﴾ (٦١)

[الشورى]

(١) قال الزجاج: جاء في التفسير أنه عنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيُعَلِّمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرَى نَفْسٌ مَأْذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرَى نَفْسٌ بَأْسَ أَوْسَرِ لَمُوتٍ ۖ...﴾ (٦١) [الحجرات] . قال: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه قد خالفه . [لسان العرب: مادة (ف ت ح)] .

(٢) نقول اللغة: الولي: هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة ، أو الولي الصديق ، وهو ضد العدر ، والولى: المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان ، ويقوم على شئونه ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء . وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، يقول الحق: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يقيمون (٦٢) . [يونس] والولى: من تولاه الله بالرعاية ، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَهُمُ الشَّرْعُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٦) [يونس] (حرف الراو - القاموس القويم) .

لأنه سبحانه القريب من كل خلقه ، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولي المطلق ، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الولي الحق ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ ۝٤٤ ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فليجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء منهجه من الولاية .

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ۝٧٥٧ ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ۖ ۝٦٢ ﴾ [يونس]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإن قُيدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ، فبطلاقة قدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خَصْلَةٌ من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .

وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلَةً خير فيه ، فهداه .

ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملا خُفَّ

بالماء من البشر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له
سيئاته^(١).

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر
بالعطف على كائن ذى كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قدرته
سبحانه تقدر كل موقف كما قدرّت اختلاف الخلق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ^(٢)﴾
وَأَلْوَانِكُمْ^(٣)﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل
والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجرى ، وهذا بعض من طلاقة
قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خلقه الذين آمنوا أولاً ،
وقربه سبحانه منهم : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ^(٤)﴾ [البقرة]
فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو
سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبة اصطفاوية يراها الذين حولهم وقد
يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خلق الله ، فإذا علم سيئة عن
إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السّتر ويحب من يستر .

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل مشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد
بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا
الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملاً خفه ، ثم أمسكه بفيه (بفمه) فسقى
الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل
ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئة ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألا يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألا تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخصلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌ فبحقّي عليك كن لي مُحِبّاً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله في يد الخلق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وَإِنْ تَقَرَّبْ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »^(١) .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقَرِّبه الله منه أكثر وأكثر .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهي ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ شبراً . [المعجم الوسيط : ذراع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان ممناً وشمالاً ، والمراد : المبالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : باع] . والهرولة : الإسراع .

إذن : فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعباء الحق لعباده ؟

إذن : فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد في معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعري "المحبوبته :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون حبيباً غير محبوبٍ

أى : أنه يستعبد بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فانت حين تحب الله يقربك أكثر وأكثر ، ويسمى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خلقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجحوا واحد منهم متفاخراً بعباء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذي يتبجح بها

(١) هـ ١٠٠٠ ... ١٠٠٠ شاعر فلبسوف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات في معركة النعمان (٤٤٩ هـ) من ... حتى في الرابع من عموره ... وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعر يرثونه . [الأعلام للزركلي (١٥٧/١) .

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيته ، وهو سبحانه الذى بدأ ويُن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور^(١) . فقال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ ﴾ (٧٥٧) [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسّنات ليبيّن المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان أولاً بالمحسّنات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بفهومك .

وإذا كنا نتجنّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنّب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد ترتطم بأضعف شيء فنحطمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمنا .

إذن : فحجّب الموائى يسبّب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبيّن ملامح الأشياء فتسير على هدى وأنت مطمئن .

وهب أنك فى مكان مظلم ويوجد شيء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى مَنْ يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفتن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿ بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ (١٢) وسبحوه بكرة وأصيلاً (١٣) هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالْمُؤْمِنِينَ رَجِماً (١٤) ﴿ [الأحراب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئي ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامي واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ؛ لرأى الإنسان في الظلام .

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسي ، فعالمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر في عالم الحس يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنان^(١) لها التامُ ولا يلتامُ ما جرحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٤) [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجيء في الخطاب .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ .. ﴾ (٢٤) . أي : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٤) . أي : أن الحزن لن يأتي منهم ، والخوف يكون من توقع شيء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان : السهام والرماح . وجراحاتها : آثار الجروح نتيجة الإصابة بها . والالتام : هو اندمال هذه الجروح . [انظر لسان العرب] .

يحدث في المستقبل .

وفي حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه في الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى ولياً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد الولي في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتي من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فات .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا ^(١) عَلَى مَا فَاتَكُمْ .. ﴾ (٢٣) [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومن لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورع الذي يتجلى في قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا» ^(٢) .

(١) الأسى الحزن الشديد . وغام الآية : ﴿ وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. ﴾ (٢٣) [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً ، فلا يحزن على شيء فاته ، ولا يفرح بشيء جاءه قد يذهب بعد حين .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك

وَيبين الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر في الأمر ، والنهي في النهي، والإباحة في الإباحة .

والتقوى - كما علمنا - هي اتقاء صفات الجلال في الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ في صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور»^(١) .

وقد سئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرْباً من الله». وكأنه - رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿سِيمَاهُمْ^(٢) فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾ (٢٩) [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكرك بالخشوع^(٣) ، والخضوع^(٤) ، والسكينة ، ورقّة

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب، وعنه: «إن من عباد الله لأناس ما هم بأبياء ولا شهداء، يخطبهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٥) [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور في وجوههم.

(٣) خَشَعَ (خشوعاً) إذا خضع ، وخَشَعَ في صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَتِ) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً : ذُلٌّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر : أذلّه . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل في الصوت ومنه : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ...﴾ (١٠٨) [طه] والخضوع في الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أى خلل ، بل يرى كل شيء فى موضعه تماماً ، ولا يرى أى قُبْح فى الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح بيّن لنا الحُسْن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناس الحق ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً فى دينك تَرِ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى ، وكلما تقربت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق ^(١) .

ومثال ذلك : العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلم موسى عليه السلام ^(٢) ، فحين قارن بين خرق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غصباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة ؟ وهنا بيّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين ^(٣) .

وحين قتل العبد الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

(١) ويقول رسول الله ﷺ : ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعبدنه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وفاته فى لقائهما بالخضر عليه السلام : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبَادِنَا وَعِلْمًا مِنْ لَدُنَّا عَلَّمَا ﴾ (٦٥) قال له موسى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُطْمِنَ مِنَّا عَلِمْتَ وَشَدَا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ دَكْمًا (٧٠) ﴿ [الكهف] .

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : ﴿ أَخْرِقْهَا لِتَرُقِ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (٧١) ﴿ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٢) ﴿ [الكهف] .

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله^(١) ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعايمص^(٢) الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أى صحابى جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الحسنة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناءً بتاية موقوتة بزمان بلوغ الأبناء لسن الرشيد ؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والذهب من كنز ، ولا يجرو أهل القرية اللثام على السطور عليه^(٣) .

(١) قال موسى : ﴿ أَقْلْتُ نَفْسًا رَحِيمَةً بِمَوْتِ نَفْسٍ قَدْ جَفَتْ شَيْئًا نَكَرًا ﴾ [الكهف] فنبأ الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه . استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنًا فَأَخَذَ الْيَهُودُ الْفُلَامَ وَكَفَرُوا ﴾ [الكهف] .

(٢) دعايمص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدوية التي تكون في مستنقع الماء ، قال : والدغمرص : الدخال في الأمور ، أى : أنهم سيأخرون في الجنة دخالون في منازلها ، لا يُمنعون من مريض ، كما أن الصبيبان في الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم ، ولا يحتجب منهم أحد . [اللسان العرب : مادة (د ع م ص)] .

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة في كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانظُرَا حَتَّى إِذَا نَظَرَا قَرْيَةً اسْتَظْفَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا حِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَهُمْ أَفَامَهُ قَالَ لَهُ شَيْءٌ لَمْ تَحْذَرُوا عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف] . فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرِى .. ﴾ [الكهف] .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدي الناس ، أو كالفئار الذي يهدي السفن في الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٤﴾



والبُشْرَى (١) : من البشر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرية ، وهي الجلد ؛ لأن أي أنفعال في باطن النفس الإنسانية إنما ينضج على البشرية ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٌ تجدد أثر هذا السرور على أساريه ، وإن جئت للإنسان بخبر سيئ تجدد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هي أول متفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : « بشري » فهذا يعني كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشرٌ بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشري ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها » ، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٢) .

(١) بشرٌ بكذا ، وبشّر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنى ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير في الخير أكثر من الشر ، والبشر . والبُشْرَى : فُعِلَ من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشر : طلاقة الوجه . والبشرة : ظاهر الجلد . وبين البشري بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعلٌ يظهر مرئياً في السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصريف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وقد أوحى للنبي ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه في اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هي الحلم ؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل .

والمثل العامي يقول : «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان^(١) .

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام^(٢) .

البشرى - إذن - هي الرؤيا الصالحة ، أو هي المقدمات التي تُشعرُ خَلْقَ الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تَجِدُ واحداً أحبه الله تعالى في السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام : « إني أحب فلاناً فأحبه » . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول في الأرض^(٣) .

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابي جاءه فقال : إني حلمت أن رأسي قطع فأنا أتبعه ، فزجره النبي ﷺ وقال : « لا تُخبر بتلعب الشيطان بك في المنام » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٦٨) .

(٢) أضغاث الأحلام : الرؤيا التي لا يمكن تأويلها لا اختلاطها والتباسها ، والضغث : الخلم الذي لا تأويل له ولا خبر فيه ، وفي التزويل العزيم : « قالوا أضغاث أحلام .. » (يوسف) [أي : رؤياك اختلاط ليست برؤيا يينة ، « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (يوسف) [أي : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل . [لسان العرب : مادة (ض غ ث)] . وهم قالوا هذا المعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة . واللفظ لمسلم ، وقامه عنده « وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضونه . ثم يوضع له البغضاء في الأرض » .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن في رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هي البشرى .

أو أن البشرى تأتى لحظة أن يأتى مَلَكُ الموت ، فيُلْقَى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٢)

[النحل]

أو ساعة يبيضُ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى في الدنيا وفي الآخرة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا . (٣١)

[فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء ^(١) يتلقون من فيوضات ^(٢) الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هي أقل القليل في التكليف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

(١) هؤلاء الأبرياء الذين تخلوا عن المعاصي وتخلوا بالطاعات فتجلى سبحانه عليهم بالفيضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات في قوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وهي الآخرة ولكم فيها ما تنتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ (٥١) ﴿ نَزَّلْنَا مِنْ غُورِ رَحِيمِ ﴾ (٣٦) ﴿ [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا نعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلّي - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود^(١) مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسي :

«من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته»^(٢) .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها بقوله :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦٤) [يونس]

(١) وَدٌ : أحب . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحب ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .

(٢) المساءة : نقیض المسرة ، وأصلها : مسواة ، على مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخففاً ، وبَدَتْ مساوية أى : تقائمه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وصميت سوءة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير] .

والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) عن ابن هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ فلن نجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومن كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه :

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد بيشري الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبشرىات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجيب هذه الآية بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحرزته ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألا يتفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا : ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَر ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟!

إذن : كَذَبَ قَوْلُهُمْ فِي أَنَّهُ ﷺ سَحَرَ عِيْدَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ .

وقالوا : مجنون ، ولم يكن في سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وفند أقوالهم هذه بقوله سبحانه :

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٠٤٢

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِمُجْنُونٍ ﴿ ٢ ﴾ وَإِنْ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿ ٣ ﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ ٤ ﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خلق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل
ما قال " ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون " للشعر والأدب
والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَخْزِنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (٥) لَأَنْ أَقُولَ لَهُمْ لَا حَصِيلَةَ لَهَا مِنَ الْوَقُوفِ
أَمَامَ الدَّعْوَةِ ؛ لَأَنْ ﴿ .. الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٦) والعزة هي القوة ،
والغلبة ، ويقال : هذا الشيء عزيز ، أى : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه
العزيز المطلق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغْلَب ولا يُقَهَّر .

وتلاحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف "الميم" فوق كلمة ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ "
وتعنى : ضرورة الوقف هنا .

(١) مَنْ عَلَيْهِ بِالْعَقِّ وَغَيْرِهِ (مَنَّا) مِنْ بَابِ قَتَلَ . وَامَنَّ عَلَيْهِ بِهِ : أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ . وَالْأَسْمُ الْمُنَّةُ ، وَالْجَمْعُ (مَنَنٌ)
وَالْمُنَّةُ بِالضَّمِّ : الْقُوَّةُ ، وَهِيَ مِنَ الْأَضْدَادِ . وَمَنَّنْتَ عَلَيْهِ : أَيْ : عَمِدْتَ لَهُ مَا فَعَلْتَ لَهُ مِنَ الصَّنَائِعِ .
وَفِي هَذَا تَكْدِيرٍ وَتَنْزِيرٍ تَكْسِرُ بِهِ الْقُلُوبَ . لِهَذَا نَهَى الشَّارِعَ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْلُوبُوا
صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْذَرُ مَالُهُ وَكَلَاءُ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَيُفْطِنُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ
فَأَمْسَاهُ وَابِلٌ فَتُورُهُ صُلْدًا لَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ فَيَسَاءَ كَسْبُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦٥) [البقرة] .
وَمَنَّنْتَ الشَّيْءَ أَيْضًا إِذَا قَطَعْتَهُ فَهُوَ مَمْنُونٌ . وَالْمَنْ : شَيْءٌ يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ . فَيَجْنِي . [المصباح -
بتصرف] .

(٢) وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴾ (٢٨) [يونس] .

(٣) مَرْتَاضُونَ لِلشَّعْرِ : أَيْ : لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ عَلَى قَوْلِ الشَّعْرِ وَنَظْمِهِ .

(٤) وَهَذَا هُوَ الْوَقْفُ الْإِلَازِمُ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَشْجِبُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ وَالْمُؤْمِنِينَ يُنْفِقُهُمُ اللَّهُ .. ﴾ (٣٦)
[الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌ على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُتَوْنًا ، وليس في القرآن ما يُلْزِم الوقف للقارئ ؟

وأقول ردًّا على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف ملكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارئ - الذي لا علم له بالبيان العربي - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٥٠) إلى ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (٥١) . ويخطيء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هي أمر يُحْزَن النبي ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقق القراءة ونُحَسِّن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (٥١) ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٥٠) ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألا تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغير في مجرى حتمية انتصارك عليهم . ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ في أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هي البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلْزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقولهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا بِهَا أَسَاقِطًا ۖ أَنْفُسُهُمْ ۖ ﴾ (١٤)

[النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم . واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين . [لسان العرب : مادة (ي ق ن)].

وأقول لهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجِير ولا يُجَار عليه .

وإذا كانت العزة هي الفهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجَّة ، وقد تكون عزة حُلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيط وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأى شيء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر^(١) في هذه الآية ؟

أى : أن تأتى الصفة للموصوف وتنفى عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلان ليس له كذا .

وإن قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلان كذا» ، ولفلان كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ ۞ ﴾ (٦٥) وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه ويتنفى عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خيراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر باخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٣/١٤٩] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتي قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم ^(١) العزة لنفسه وقالوا:

﴿لَنْ رُجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ..﴾ (٨) [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن: فالعزة قد ادُعيت ، وما دامت قد ادُعيت فلماذا لم تأت بأسلوب الفصير؟

نقول: لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول:

﴿..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ..﴾ (٨) [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿..إِنَّ عِزَّةَ اللَّهِ جَمِيعًا..﴾ (٩) أى: فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإن كانت عزة القبض على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبي راسى النفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال: « قد نافرونا وكاثروا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سَمَنْ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم . هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

العزیز ، وإن كانت عزة الحليم فهو الحليم ، وإن كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكل ألوان العزة لله تعالى :

﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٥) [يونس]

وما دامت العزة هي الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجيء بالسمع ، وإن كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهى عنه هنا هو : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (٦٥) [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ .. أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلل على هذه القضية دلالة كونية في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلاحظ أن قانون «العزة لله جميعاً» محكوم بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ

إِلَّا يَخْرُصُونَ ^(١) ﴿٦٦﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبين الشيء وضده ، فهو يأتي بالقانون والإطار

(١) يخرصون : يتبعون ظنونهم وكذبهم وانكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)] .

﴿لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ.. (٢٨٤)﴾ [البقرة]

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى : ﴿ اِنَّا لَمَذْكُوْنَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبين لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم تنفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن الله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انطلق البحر ، فكان كل فرق كالطود العظيم ^(١) .

فلا شيء يخرج عن ملكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالانقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فرق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿ وَاَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا اِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُوْنَ (٦٤) ﴾ [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبين الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرٰ اٰى الْجَمْعِ اٰى اَصْحٰبِ مُّوْسٰى اِنَّا لَمَذْكُوْنَ (٦١) ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين (٦٢) فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانطلق فكان كل فرق كالطود العظيم (٦٣) وألقينا ثم الآخرين (٦٤) وأنجينا موسى ومن معه أجمعين (٦٥) ثم أغرقنا الآخرين (٦٦) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٦٧) وإن ربك هو العزيز الرحيم (٦٨) ﴾ [١٠٩ : ١٠٤]

والفرق : انطلق أو الجزء منه . والطود : الجبل الكبير . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٦) ، و[السان العرب : مادة (ف ر ق)] .

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:
﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا...﴾ (٤٢) [هود]

فيرد الابن قائلاً:

﴿سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَنْصَبُ مِنِ الْمَاءِ...﴾ (٤٣) [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ،
ولكن ابن نوح نسي أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج ؛ فكان من المغرقين .
صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على
«الجودي»^(١) ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوى إلى الجبل
العالي ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذي حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من
المغرقين .

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى ، وما دامت العزة لله
جميعاً فمصدقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، وليس
هناك كائن فى الوجود يتأبى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه ،
فيكون جندياً للإهلاك ، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت^(٢) .

وقول الحق سبحانه هنا: (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع
فلا يؤخذ على غمرة ، ولا تقوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَنْصَبُ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا غَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ
وَحَالُ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُوقِينَ﴾ (٤٢) [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى
رءوس الجبال ، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاء ذلك من الغرق . [تفسير ابن كثير ٤/٤٤٦] .

(٢) الجردى: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة ، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام . [تفسير
ابن كثير ٤/٤٤٦] . وقيل: إنه جبل أرادت فى شرق تركيا بالأناضول .

(٣) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا﴾ (٤٤) [الفتح] ويقول أيضاً:
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ (٥٩) [الدثر] .

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا «مَنْ» مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للردّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شيء في الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن : فكل الكائنات في عرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء به «مَنْ» أو به «مَا» ، وكل من في الوجود يفهم عن الله .

ونلاحظ أن الحق سبحانه يأتي مرة بالقول : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (٨٢) [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

كما جاء في هذه الآية التي نحن بصددتها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً في الوجود يوجد في السماء ويوجد في الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات "أمرأ" هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما في السموات والأرض .

١٠٠ المُدَبِّرَات أمرأ : هي الملائكة تُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس في السموات لا يوجد في الأرض وهم
الملائكة المهيمون^(١) العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن
لله تعالى جنوداً في الأرض ليس لهم وجود في السماء ، فإن لاحظنا
الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٨١)﴾

[البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين في السماء ، وجنوداً في
الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. (٦٦)﴾

[يونس]

وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده
سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ، لأنه سبحانه قادر
على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو
تعالى يعنى بصير من يرقب الغار^(٢) .

إذن : فلن يجبر^(٣) شيء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

(١) المهيمون : الذين يهيمنون في عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم
القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيرون ، وهم
أقرب الملائكة لحملة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٤)﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فاصطرك فاجرة حتى يسمع كلام الله ..
(٦٦)﴾ [التوبة] وأجلره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿... وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٥٥)﴾ [المؤمنون]
أي : أنه يتكفل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجبر من يريد الله عقابه . [القاموس القويم -
بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث في هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار
وأثبت الله على يابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وهنكياً كبيراً قد سد باب الغار
بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين .

لا يخذلها خادش من وجود الله في الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ..﴾ (٦٦) [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة
الأشركاء له سبحانه .

إذن : فهم يتبعون غير شيء ؛ والدليل على ذلك موجود في طي
القضية ، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن يطاع أمر
وينهى نهى ، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهي ؛ فليس هناك
منهج جاءوا به .

إذن : فلا الوهية لهم .

إذن : فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً
ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواه ؛ لأن الذي يقول : «اعبدني» إنما يحدد
طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم
يكون له منهج ، ولن يستطيعوا ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا ابْتِغُوا إِلَهًا إِلَى ذِي الْعَرْشِ
مِثْلًا﴾ (٤٢) [الإسراء]

أي : أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التي تضيء
والقمر الذي ينير ، والمطر الذي ينزل من السماء ، والملائكة التي تدبر
الأمر ، لو صدقنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم سيبحثون عن الإله الواحد
الأحد ؛ ليأخذوا منه القوة التي ظنتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٦١)﴾
[المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الاسراء]
وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ؛ إذن :
فأنتم تتبعون الظن ،

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ (١) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢)﴾ [يونس]
ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجدوا في القرآن ظاهر تعارض
ليشككوا فيه ، قالوا : إن هذه الآية مثال على ذلك ؛ فيقولون : في بداية
الآية يقول : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦٦)﴾ [يونس]
فينفى أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول
إنهم يتبعون الظن والخرص ، ففى أولها ينفى الاتباع ، وفى آخرها يشبه .

(١) الظن : ما يحصل فى النفس عن أماره ، فهو شك واجمع وفعله من أفعال الرجحان ، من باب نصر .
والظن مصدر ، والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿وَمَا تَعْلَمُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَصِفُ مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٤)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون ، ويستعمل الظن بمعنى
اليقين مجازاً كقوله تعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِمِّيَّةٍ (٢٦)﴾ [الحاقة] بمعنى تيقنت . [القاموس
القيوم - بصرف] .

(٢) الخرص : الكذب والقول بغير علم . وقال تعالى : ﴿فَبُذِلَ الْخَرَّاصُونَ (٥٤)﴾ [الذاريات] قال الزجاج :
أى : الكذابون . [لسان العرب : مادة (خ ر ص) - بصرف] .

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً في الآية ، فالله سبحانه ينفي أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فله من في السموات ومن في الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول : ما هو الظن ؟ وما هو الخرص ؟

إن الظن حكم بالراجع كما أوضحنا من قبل في النسب من أن هناك نسبة إن لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإن كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن - إذن - حكم بالراجع . والخرص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٦٦)

[يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتي بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتبعون الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغير الحقيقة إلى إفك^(١) وإلى خرص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

(١) أفك ، يَأْفِكُ وَيَأْفِكُ - من باب « فرح » و « ضرب » : كذب وافتري باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب . وأفك صيغة مبالغة أي : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ الْاَفْكِ أَثِمٌ ﴾ [الجاثية] .
[المقاموس القويم] بتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبِع - بفتح الباء -
المُتَّبِع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتو ، يشوه الحقيقة
ويزينها ، أما المتَّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أماء فأخذ
كلامهم بتصديق .

إذن: فالمتَّبِع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته ، أما المتَّبِع (بفتح الباء)
فيكون الخُرُص والكذب والافتراء من ناحيته ؛ ولذلك يقول لنا الحق
سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)
[البقرة]

وهؤلاء - إذن - يصدقون ما يقال لهم ؛ لأنهم أميئون ، والكلام الذي
يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح .
أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ﴾ (٧٩)
[البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الخُرُص والإفك وقول الزور والبهتان^(١) .
إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطبق عليهم
قول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ .. ﴾ (٨٠) .

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق
سبحانه : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٨١) .

(١) البهتان : الافتراء والكذب قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مِنْ يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ ﴾ (٨٢) [المنحعة] [لسان العرب : مادة (ب ه ت)] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَةَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدّعيه الكافرون في نبيّ الرسالة ، وبعد أن بيّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتي بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالموجود .

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعا لنا ، وإن أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان من قبل أن يُكلّف ، أهي في مصلحته أم في غير مصلحته ؟

ومادامت الآيات الموجودة في الكون - والمسخرة للإنسان - تفيد الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلفاً .

إذن : فالله سبحانه لم يكلّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فقسّ ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فخذ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكما نفعلك في الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبل حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد^(١) .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت في مراداتك ، ثم تجيء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يصلح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمني للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبين لنا أنه كما قسم الوجود الإنساني إلى مرحلتين :

الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..

[يونس]

﴿ ٦٧ ﴾

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَحْنُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا نَخَافُوا وَلَا نَحْزَنُوا وَابْتَغُوا بَالِغَةَ الْبُغْيِ كُنتُمْ تُرْعَدُونَ (٢٠) نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمُ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمُ فِيهَا مَا تَدْرُونَ (٢١) ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة في الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يرد فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله^(١) .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تنوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيهِ نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها^(٢) ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقاً فى الراحة .

وكذلك عُمر الإنسان ، لم يكلف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذب» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

(١) لأن كلمة (افعل) يدرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يدرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه بالدجام ، وضرب فها بها ؛ أى تقف ولا تحرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

وَيُبَيِّنُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ يَقُولُ: «مَرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَبْعِ سَنِينَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لَعَشْرَ سَنِينَ»^(١).

وَالَّذِي يَأْمُرُ هُنَا الْإِبْنَ بِالصَّلَاةِ هُوَ الْأَبُ ، وَهُوَ أَيْضاً الَّذِي يِعَاقِبُ عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَثِيبُ ابْنَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الصَّلَاةَ مَحْبُوبَةً لِلإِبْنِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ لِلإِبْنِ أُنْساً بِالْعِبَادَةِ.

وَحِينَ يَكْلُفُ الْأَبُ ابْنَهُ بِالصَّلَاةِ ، فَالْإِبْنُ يَطِيعُ ؛ لِأَنَّ الْأَبَ هُوَ الَّذِي يَقْضِي حَاجَاتِ الْإِبْنِ ، وَيَحَقِّقُ لَهُ مَصَالِحَهُ ، وَالْإِبْنُ يَعْلَمُ أَنَّ وَالِدَهُ لَنْ يَكْلِفَهُ إِلَّا بِمَا يَحَقِّقُ تِلْكَ الْمَصَالِحَ ، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يَحِبُّهُ ؛ لِذَلِكَ جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَمْرَ وَالنَهْيَ مِنَ النَّافِعِ لِلإِبْنِ ؛ لِتَوْجُدِ حَيْثِيَّةِ قَبُولِ فِي النَّفْسِ.

وَمَا إِنْ بَاتَ الْبُلُوغُ فَيَكُونُ التَّكْلِيفُ مِنَ اللَّهِ وَالْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ مِنْهُ سَبْحَانَهُ.

إِذَنْ: فَالْأَمْرُ وَالنَهْيُ قَبْلَ الْبُلُوغِ يَأْتِيَانِ مِنَ الْأَبِ ؛ لِتَعَوُّدِ الْإِنْسَانِ اسْتِقْبَالَ الْأَمْرِ وَالنَهْيِ مِنْ رَبِّهِ وَرَبِّ أَبِيهِ.

وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ وَالسَّيْرُ فِيهَا عَلَى ضَوْءِ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى يَقْتَضِي حَرَكَةً فِي «افْعَلْ» وَ«لَا تَفْعَلْ» فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى رَاحَةٍ مِنَ الْحَرَكَةِ ؛ لِذَلِكَ يُبَيِّنُ لَنَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ جَعَلَ فِي «الْيَوْمِ» لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَلِكُلِّ مَهْمَةٍ ، فَلِإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ مَهْمَةً شَيْءٍ مَكَانَ شَيْءٍ آخَرَ ؛ حَتَّى لَا تَرْتَبِكَ الْأُمُورُ ، وَلَكِنْ الظُّرُوفُ قَدْ تَضْطَرُّكَ إِلَى ذَلِكَ ، فَهَنَّاكَ مِنْ يَسْهَرُ لِلْحِرَاسَةِ ، وَهَنَّاكَ مِنْ يَسْهَرُ لِلْعَمَلِ فِي الْمَخَابِيزِ ، أَوْ إِعْدَادِ طَعَامِ الْإِفْطَارِ لِلنَّاسِ ؛ وَلِذَلِكَ فَهَنَّاكَ احْتِيَاطَ قَدْرِي ، فَقَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي آيَةٍ ثَانِيَةٍ:

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (١٨٧/٢) وَأَبُو دَاوُدَ فِي مُتَنِّهِ (٤٩٥) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ. وَالْفَرْقُ لِأَحْمَدَ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَتَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ [الروم]
 لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون
 ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا
 لمن ينام ^(١) بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .
 ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطى القدرى ؛ ليرتاح من يتصل
 عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾ [يونس]
 ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخلق» ، و«الجعل» ، و«الملك» ،
 والمثال على الخلق : أنه سبحانه خلق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل
 منه ليلاً ونهاراً ^(٢) .

إذن : فالجعل هو توجيه شيء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو منزه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع
 الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

(١) نام فلان نوماً : اضطجع أو نعى وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها
 وأنامه : أرقده ، ونوم فلان : أرقده . والتأوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من
 أينات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والنبات فى التفكير والتركيز .
 [المعجم الوجيز - بتصريف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَآ
 تَسْمَعُونَ﴾ (٧٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ
 أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٦) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه وتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (٧٧) [الفصل] .



إبريقاً أو أصصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحول مخلوقاً إلى شيء له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجهه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصرأ ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه .

أى : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدي مهمة للمخلوق .

وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه ملك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملك ؛ فمن عمل قِدرأ من الطين هو مألکه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه .

وهكذا نجد الخلق والجعل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تتفعل بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ .. (٢١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذللها لنا ، وملكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملك» فملكته سبحانه لا تنتهي لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ..﴾ (٦٧) [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هنا بالأداء القرآني المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾ .

فهل النهار هو الذي يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصر أم مُبصر فيه؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء " يخرج من العين إلى المرئي فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربي المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئي إلى العين ، بدليل أن المرئي إن كان في النور وأنت في الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه .

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبين لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرئي إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

(١) الضوء - بفتح الضاد والضـ - بضمها والضياء ، والضوء : النور الذي ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخصَّص الضوء لما كان صادراً من شيء مضيء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصَّص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ..﴾ (٥٥) [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.. (٢٧)﴾ [فصلت]

ويقول:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً.. (٢٨)﴾ [الإسراء]

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت في ظاهر الأمر مُبْصِرَةً فيها.

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (٢٩) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (٣٠) قَالَ أَأَلْقَاهَا يَا مُوسَى (٣١) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٣٢)﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿..خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٣٣)﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحويل العصا إلى حية ، هي تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

(١) جعل الله لليل آية وهي القمر ، وجعل للنهار آية وهي الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أي : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذي فيه . ينصرف من تفسير ابن كثير (٢٧/٣) .

(٢) أي : سعيها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ۖ﴾ .. (١٢) [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصدىرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمى الجيب الذى نضع فيه النقود جيبياً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ﴾ .. (١٣) [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۖ﴾ (١٤) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ۖ﴾ .. (١٥) [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة ^(١) وكأنها تقول للعين : أبصرينى .

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْمَرُهُنَّ عَلَىٰ حُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ (١٢١) [النور] .
 (٢) بَصُرَ بِهِ : رآه بصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بِالْأَمْرِ : علمه كأنه رآه بصره . وقوله : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ (١٠١) [القصص] أى : رآته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿وَأَبْصُرْ فَطَرَفَ يَبْصُرُونَ﴾ (١٧٠) [الصافات] أى : انظر وثرف . وأبصره : جعله يبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ (١٧٢) [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى . والبصير : من له عينان يبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ﴾ (٥) [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضي . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۖ﴾ (١٧) [يونس] ، وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ﴾ (١٤) [الإسراء] وقوله : ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ بِطَبَاقٍ مُبْصِرَةٍ ۖ﴾ (٥٥) [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿.. إِذَا مِنْهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٥٥) [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القريم - بتصرف] .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا...﴾ (٦٧) [يونس]

ولم يقل : لتتحركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه : ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذي ينعكس على الأشياء هو الذي يحفظ للإنسان سلامة الحركة .

ولكن البعض من الناس في زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء في الإسراف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو في غير ذلك من أمور الترفيه ، ثم ينامون في النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل . وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»^(١) ؛ وذلك حتى لا يشغل الجسم بإشعاعات الضوء التي تسبب في تفاعلات كيميائية في الجسم .

لذلك أقول دائماً : خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها ؛ لأننا يجب أن نتيج للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه ؛ لأن السهر ضار ، وإذا ادعى الإنسان أنه هو الذي تحضر ، فليحترم قيمة العمل الذي يصنع الحضارة ؛ لأن الآلة التي يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة ، واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت المخصص .

نحن نساء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذي وفّرته السلاجة للزوجة ؛ حتى لا تقف في المطبخ نصف النهار لتعد الطعام ، وصارت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٣) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخاري .

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنتهي الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيق أمام (التلفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسيء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها في طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملاً صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان في الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزرع ويفسد الهواء .

ويجب ألا نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا في تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى : تغطيته للمرئيات) وتجلّى النهار (أى : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

[الليل]

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٢)﴾

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

[الليل]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (١)﴾

أى : أن حركتكم هى الموصلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعيشتنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن نتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المستجة فى النهار .

(١) شت الجميع يشت شتاً ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شت متفرق وجمعه اشتات . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً .. (١٧)﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٢)﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحس ومنه السيء . وقوله : ﴿.. أَزْوَاجًا خِلَافَ شَتَّى (٢٧)﴾ [طه] مختلفة الطعام والنوع ، وقوله : ﴿فَتَغْشَاهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى .. (١٤)﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصريف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان فى الزمان أو فى الإنسان ، وقرأ جيداً قول الحق سبحانه :

﴿إِنْ سَأَلْتُمْ مَنْ شِئْنَا﴾ [١]

[الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين .
وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنْهِى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [٦٧]

[يونس]

ولقائل أن يقول : لم يقل «إن فى ذلك لآيات لقوم يبصرون» .
ونقول : لنتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبين فى هذا الزمان مهمته ، وهو القائل فى صدر الآية ووسطها :

﴿جَعَلْ لَّكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [٦٧]

[يونس]

فالعلة فى هذه الآية هى سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين فى الليل لا تؤدى مهمتها ، بل السمع هو الذى يؤدى مهمته .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا^(١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِنَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾ [٧١]

[القصص]

أى : أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ولا أحد سيتبين شيئاً .

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليف سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم . [لسان العرب : مادة (س ر م د)] .

سُورَةُ التَّوْنِيسِ



والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِثْنِهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) [الفصص]

إذن : فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع^(١) ، وجاء في آية النهار بالابصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في الليل ، يأتي الكلام عن الينبوع الذي يجب أن تُصدَّر عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الأمر الواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يترك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول :

﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨)

(١) وهنا يلتفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآني في أسرار ، حيث وضع الحاسة في مكان وظفتها التي تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدي مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار في كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى .

ونفس نص الآية الكريمة يكذبهم فيما يدعون .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : «اتخذ فلان بيتاً» أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ﴾ (٦٨) .

[يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزيز ابن الله وهم اليهود^(١) وقد كذبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله^(٢) ، وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك^(٣) .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلاً يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّ رَبِّنا هَبْ لَنا رَبِّنا آية ۖ ﴾ [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ الْنَصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ﴾ [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِمْ يُضاهِنُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ اِنِّى يُؤَلِّفُكُمُ ﴾ [التوبة] .

[التوبة] .

المحرك إليها واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض في تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من أمر واحد يُسَلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزّه في صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزّه في أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله ^(١) .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ﴾ (٦٨) ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد . ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢٦) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ^(٢) (٢٧) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتي ؛ ولذلك يأتي في وسط الآية

ويقول تعالى :

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(٢) ضاز في الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائزة ليس فيها حق ولا عدل . [لسان العرب : مادة (ض ي ز) - بتصرف] .

[يونس]

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٦٨)﴾

وسبحانه تعنى: التنزيه ، وهو الغنى أى: المستغنى عن معين
كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل
البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء
كما يقول الشاعر:

* ابنى يا أنا بعد ما أقضى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت
لا محالة أراد أن يستمر فى الحياة فى ولده.

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ،
والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم
لن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن
الذكر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنى عن
الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس
هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول
وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على
أى لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة: ﴿سُبْحَانَهُ^(١)﴾
لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتَّبِعُ ذلك بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

(١) سُبْحٌ يَسْبِقُ مِنْ بَابِ فَتَحٍ : سَبَّحَا ، ومباعدة : عام ومر فى الماء . ومن المجاز سبَّح الجواد ، أى جرى
كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سبَّحت النجوم ، أى : سارت فى أفلاكها . قال تعالى : ﴿ .. كُلٌّ فِي
فَلَكَ يَسْبِقُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها . وسبَّح اسم ربك : نزه
اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل : سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه
بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله . [القاموس المقوم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيء له - فى الذات أو الأفعال . وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخلقهِ وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى^(١) والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته ؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتى^٢ ، ووجودك وجود عَرَضِيّ . وإذا قال الحق سبحانه :

إِنْ لَهُ - سبحانه وتعالى - يَدًا ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ ۝ (١٠) ﴾ [الفتح] فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلى الله سبحانه لخلقهِ ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١) حَيٌّ يَحْيَا ، كَرَضِيٍّ يَرْضَى وحى بالإدغام يحيا حياةً وحيواناً ضد مات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ۝ (٦٠) ﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ ۖ ۝ (١٢٢) ﴾ [الأنعام] والحى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ ۖ ۝ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ۖ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُغَاةٌ مِّنْ عَرَبٍ ۚ ۝ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] وللحيا : مصدر مسمى بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ ۝ (١٠٧) ﴾ [الأنعام] أى : حياتى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهنًا بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فאלله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لا ينقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُتَرَفَّعٌ عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خَلَقَ الخَلْقَ ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضي ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن في السور التنزيهية^(١) تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

(١) فتجد التسبيح في الماضي : ﴿سُبْحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿[الحديد] وفي المضارع : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) ﴿[التفابن] وفي الأمر : ﴿سُبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٣) ﴿[الأعلى] وفي المصدر سبحاته ، وبهذا نلاحظ أن الماضي يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن في تسبيح مستمر : ﴿... وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤) ﴿[الإسراء]

﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ۚ ۝١﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان .

وأنت إذا سرت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق .

أى : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببعد أو قرب المكان أو كيفية الزمان الذي تعرفه .

وإياك أن تفهم أن إسماء الله تعالى مثل إسمائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يحد أفعاله بزمن .

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسيحانية وآياتها الأولى تتكلم في أدق شيء ، تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسرى به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس^(١) قد خُرق له ،
وحدثنا عما نعلم لنصدق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم
على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم .

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتزويه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخْلُق
الخلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ،
ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه
مُنَزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ،
ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... (١)﴾

[الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... (١)﴾

[الحشر]

فهل سبِّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى
الامر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ... (١)﴾

[الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ

[التغابن]

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾

(١) نواميس الكون : الأسرار التي أودعها الله -سبحانه وتعالى- في الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه
ومكوناته .

إِذْ : قالسبحانية لله أزلاً ، وسَبَّحَ ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسَبِّح باسم ربك الأعلى .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَبْحَأَهُ .. ﴾ (٦٨) [يونس]

وعلة التسبيح والتتزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القاتل في أية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴾ (١١٦) [البقرة]

والقنوت^(١) معناه : الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته .

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِبَدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨) [يونس]

و«إن» قد تأتي للنفي في مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلَّا الْأَبْنَى وَلَدَنَّهُمْ .. ﴾ (٢) [للجاذلة]

وفي قول الحق سبحانه هنا :

(١) قنوت يقتضيه كمنصرف - ذل وخضوع ليد ، وقت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقت في صلاته خشيح راطمناً ، وقت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ خَشْيَةً لَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَعَلَ سَالِحًا تَرْضَاهَا أُجْرُهَا مَرَّتَيْنِ .. ﴾ (٥) [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴾ (١١٦) [البقرة] أي : خاضعون معترفون بالوحيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصريف]

[يونس]

﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا...﴾ (٦٨)

أى: ليس عندكم حُجَّةٌ تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

[يونس]

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

أى: أنكم لا تملكون إعلماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعلم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعلم عن نفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قُلْ إِنِ الْكَافِرِينَ هُمْ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ لَا يَفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفلاح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل:

[الشمس]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١)

وهو سبحانه القائل:

[المؤمنون]

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)

ويقول أيضاً:

[الأعراف]

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧)

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى ، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفْسٌ ، وماء ، وطعام ،

(١) زكاهَا: طهرها وبرأها من أقدار البدن والنفس .

والتنفس يأتي من الهواء الذي يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُسْتَنْبَط مما تسرب في باطن الأرض . والطعام يأتي من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة .

لذلك نقول : إن الفلاحة هي السبب الاستبقائي للحياة ، فكما يُفْلَح الإنسان الأرض ، ويشقها ويذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال : أفلح ، أي : أنتجت زراعته نتاجاً طيباً .

وشاء الحق سبحانه أن يسمي الحصيدلة الإيمانية الطيبة بالفلاح .

ويبين لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد .

وياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً في الدنيا أنه ينقص ما عندك ، لا ، بل هو ينمي لك ما عندك ^(١) .

والمثل الذي أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفلاح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور في الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له : «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردباً القمح المُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردباً من القمح .

كذلك مطلوب الله سبحانه في الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۚ ﴾ [النحل] وقوله : ﴿ وَمَا تَلْفَتُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِ إِلَيْكُمْ ۚ ﴾ [الأنفال] وقوله : ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْخُسْفَةِ فَلَهُ عِشْرُ أُمْثَالِهَا ۚ ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا مِنَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم ۚ ﴾ [التغابن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلاح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة .
وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن
العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك: الفلاح الذي يحرق الأرض ، ويحمل للأرض السماد
على المطية ^(١) ، ثم يستيقظ مبكراً في مواعيد الري ، تجدد هذا الفلاح في
حالة من الانشراح والفرح في يوم الحصاد ، وأمره يختلف عما يهمل
الأرض ويقضى الوقت على المقهى ، ويسهر الليل أمام التليفزيون ،
ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) [يونس]

أى : هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من
الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعلم عنه إلا عن
طريق الله . لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم ، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ،
وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتسكع فى
الشوارع ، الرافض للتعلم ، نجده راسباً غير موفق فى مستقبله ، أما التلميذ
الحريص على علومه ، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به فى المجتمع ،
والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضحامته ، بل قصر
النفع على لذة عاجلة مُضحياً بخير أجل .

(١) المطية : الدابة ، وهى الناقة التى يُركب عليها أى : ظهرها . وجمعها : مطايا . [لسان العرب : مادة
(م ط ي)] .

(٢) يفترون الكذب : يكذبون ، أو يقولون بغير علم . لا يفلحون : لا يفوزون ولا يتصرون . قال تعالى :
﴿ وَقَدْ خَابَ مِنَ الْغُرَى ﴾ [طه] .

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة في مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلَّاقِ الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخَرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (مُرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْمِ الطبيب .

وكذلك عصاية الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفَاجَأُون بِمَقْدَمِ رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة "لنفسه" ، رغم أن أى رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدَمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبى ليكون مَلِكاً " ، ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجباة ، فاختار رب الكل ، وقال فولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : "والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته" ، أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا قد نظموا له الخرز لينتجوه ثم يملكونه عليهم . فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضمن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلب ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِرّاً على نفاق وضمن . سيرة ابن هشام (٢/٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يسوئ بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا كَثِيرًا مِّنْهُمْ ثُمَّ تَذَرْتُهُم مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠)

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داع جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما يتنعم به ويرغب في اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسفينة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمنعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوي عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد في الآخرة ويعرهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» .

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبي نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة «إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته» .

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا... (٧٠)﴾ ؛ لَأَن كُلًّا مِنْهُمْ يُحِبُّ أَنْ يَقْنَعَ نَفْسَهُ ، بِحُصْنِ تَقْدِيرِ الْمُنْفَعَةِ ، وَكَلِمَةِ «الدُّنْيَا» لَا بَدَّ أَنْ مِنْهَا حَقِيقَةُ الشَّيْءِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ .

وَالْأَسْمَاءُ - كَمَا نَعْلَمُ - هِيَ سَمَاتٌ مُسَمَّيَاتٌ ، فَحِينَ تَقُولُ : إِنَّ فَلَانًا طَوِيلٌ ، فَأَنْتَ تُعْطِيهِ سَمَةَ الطَّوِيلِ .

وَحِينَ تَقُولُ : «دُنْيَا» فَهِيَ مِنَ «الدُّنْيَا» أَوْ «الدَّاءَةِ» .

وَإِنْ اعْتَبَرْتَ الدُّنْيَا هُوَ طَرِيقٌ مُوَصِّلٌ إِلَى الْقِمَّةِ ، فَهَذَا أَمْرٌ مُقْبُولٌ ؛ لِأَن الدَّرَجَةَ الْأُولَى فِي الْوُصُولِ إِلَى الْأَعْلَى هِيَ الدُّنْيَا ، وَتَلْتَزِمُ بِمَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى فَتَصْعَدُ عُلُوًّا وَارْتِفَاعًا إِلَى الْآخِرَةِ .

إِذَنْ : فَمَنْ يَصِفُ الدُّنْيَا بِالدَّاءَةِ عَلَى إِطْلَاقِهَا تَقُولُ لَهُ : لَا ، بَلْ هِيَ دُنْيَا بِشَرْطِ أَنْ تَأْخُذَهَا طَرِيقًا إِلَى الْأَعْلَى ، وَلَكِنْ مَنْ لَا يَتَّخِذُهَا كَذَلِكَ فَهُوَ مَنْ يَجْعَلُ مَكَانَتَهُ هِيَ الدَّائِمَةُ ، أَمَّا مَنْ يَتَّخِذُهَا طَرِيقًا إِلَى الْعُلُوِّ فَهُوَ الَّذِي أَفْلَحَ بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى .

إِذَنْ : فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ مِنَ الدَّاءَةِ ؛ لِأَن الدِّينَ لَيْسَ مَوْضُوعَهُ الْآخِرَةُ ، بَلْ مَوْضُوعُهُ هُوَ الدُّنْيَا ، وَمَنْهَجُ الدِّينِ يُلْزِمُكَ بِـ «افْعَلْ» وَ «لَا تَفْعَلْ» فِي الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الشَّيْءِ لَيْسَ عَيْنَ مَوْضُوعِهِ ، وَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَ الدُّنْيَا مُفِيدَةً لَكَ إِنْ جَعَلْتَهَا مَزْرَعَةً لِلْآخِرَةِ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ الدُّنْيَا ^(١) «عَمْرُهَا مِائَتَانِ سَنَةً» ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْنِيكَ كَعَائِشٍ فِي الدُّنْيَا إِنْ طَالَ عَمْرُهَا أَمْ قَصُرَ ، بَلْ يَعْنِيكَ فِي الدُّنْيَا مَقْدَارُ مُكْثِكَ فِيهَا ، وَعَمْرُكَ فِيهَا مِظَنُّونَ ، بَلْ وَزَمَنُ الدُّنْيَا كُلِّهِ

(١) وَقَدْ وَصَفَ لَنَا رَبُّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ الدُّنْيَا فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى . . (٧٦) ﴾ [النساء] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنَّ أَزْلَافَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْطَفَ بِهِ نِهَاتِ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَخُنْ أَعْيُنُهُمْ فَادْرَوْنَ عَلَيْهَا أَنَا هِيَ لَعْنَةُ اللَّهِ أَرَأَيْتُمْ فَمِجْثَقَاتِهَا خَفِيفًا كَأَن لَمْ تَقْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ (١١) ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلُّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خلقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالأب والمال^(١) إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذَّب ، فإن كان المعذَّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذَّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذَّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القاتل :

﴿ إِنْ أَخَذَهُ آلِيمٌ شَدِيدٌ (٦٠٢) ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنى الذي له ما في السموات والأرض ، وبين لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلَّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخم مسألة من

(١) المال والمال : المرجع والمصير .

(٢) آليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل في داء اجتماعي ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أي : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيين الأمر النظري في واقع متخيل .

ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من الموكب الرسالي ؛ ليبين للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله ﷺ .^(١)

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالي . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنذَرُ عَلَيْهِم نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا وَإِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكِيرِي بِبَآئِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾^(٢)

(١) وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحت الكافرين وغيرهم على النظر في عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٧) [الأنعام] . وقوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) [النمل] .
(٢) كبير : عظيم وشق عليكم . مقامي : إقامتي بينكم . تذكيري بآيات الله : دعوتي إليكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمت على قتالي وطردتي ، فبالله أمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتباً مبهماً ، أي : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدتي ، واقضوا إلي : أي : امضوا إلي ما في أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته في نصرته إياه هي التي دعت لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدي ؛ فكان نصر الله له ، والفرق والهلاك لأعدائه بالطوفان . [مختصر تفسير الطبري - بتصرفه] .

ولقائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم - عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهما من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولا ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفتن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يرسل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرْسَلٌ لنفسه ، ثم يبلغ من سوف يأتي بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ۞ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحذّره من الشيطان ^(١) ، ثم وقع آدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباؤه ^(٢) ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

(١) الشيطان : كل عاد متمرّد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۞ (٢٧) ﴾ [الحجر] أي : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۖ ۞ (٣٦) ﴾ [فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَايِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ۖ ۞ (٢٢) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباؤه : اصطفاؤه واختاره ، ومصادقه قوله تعالى عن آدم : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ ۞ (١٢٢) ﴾ [طه] .

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض ؛ في نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده .

وكما علمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلمه المنهج ؛ ليحسن العمل في الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة .

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾ [طه]

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه]

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى .. (٢٨)﴾ [البقرة]

والهدى : هو المنهج المنزل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للمخلق .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإمراء]

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم في قول الحق سبحانه :

﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ (٢٧) [المائدة]

وهما قد قدّما قربان إلى الله تعالى .

إذن : ففخر الألوهية بوجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) [المائدة]

إذن : فهم قد أقروا بوجود الله تعالى ، وأيضاً عرفوا النهى ؛ لأنه في إحدى الآيتين قال :

﴿لَنْ يَسُطَّ (٢٨) إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) [المائدة]

إذن : فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المنهج .

إذن : فالذين يقولون : إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً ، نقول لهم : افهموا عن الله جيداً ، كان يجب أن تقولوا : هذه مسألة لا نفهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذّكر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول ، وأن من أولاده قابيل وهاويل ، وقد تكلمنا في التقوى .

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

(١) القربان : هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الألهة المزعومة ، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم ، ففقر بأكرم غنمه وأسمتها وأحسنها طيبة بها نفسه ، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشمر حرثه غير طيبة بها نفسه ، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذي قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه . انظر تفسير ابن كثير (٢/٤٦) .

(٢) بسطت : مددت .

المُبْلَغُ لَهُ ، ودَلَّهِمْ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ ، ثُمَّ طَالَ الزَّمَنُ وَنَشَأَتِ الْغَفْلَةُ ، فَجَاءَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ تَبَعَتْهُ الْغَفْلَةُ ، إِلَى أَنْ جَاءَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وهنا يَأْتِي لَنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِخَبَرِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِهِ :

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١)﴾ [يونس]

والنَّبَأُ : هُوَ الْخَبَرُ الْهَامُ الَّذِي يَلْفُظُ الذَّهَنُ ، وَهُوَ الْأَمْرُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ .

والْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

[النَّبَأُ]

إِذَنْ : فَالنَّبَأُ هُوَ الْخَبَرُ الْهَامُ الْمُلْفُظُ ، وَقَدْ جَاءَ هُنَا خَبَرُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الَّذِي يُبَلِّغُ قَوْمَهُ أَيْ : يَخَاطِبُهُمْ ، وَهُوَ قَدْ شَهِدَ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ رَسُولٌ يُبَلِّغُ مِنْهُجًا .

وَكَلِمَةُ «قَوْمٌ» لَا تَطْلُقُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا عَلَى الرِّجَالِ " ، يَوْضَحُ الْقُرْآنُ ذَلِكَ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ .. (١١)﴾ [الحجرات]

إِذَنْ : فَالْقَوْمُ هُمُ الرِّجَالُ ، وَالْمَرْأَةُ إِنَّمَا يُبْنَى أَمْرُهَا عَلَى السَّرِّ ، وَالْحَرَكَةُ فِي الدُّنْيَا لِلرَّجُلِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لِأَدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ إِبْلِيسَ ، فَقَالَ تَعَالَى :

(١) الْقَوْمُ : جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ لَيْسَ مَعَهُمْ نِسَاءٌ ، وَيُسْتَعْمَلُ لَفْظُ الْقَوْمِ فِيَشْمَلُ الْأُمَّةَ كُلَّهَا رِجَالًا وَنِسَاءً ، مِثْلُ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ . قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي اللِّسَانِ (مَادَّةُ قَوْمٍ) : «رَجُلًا دَخَلَ النِّسَاءُ فِيهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ ؛ لِأَنَّ قَوْمَ كُلِّ نَبِيٍّ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ» .

﴿إِنْ هَذَا غَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧)

[طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿فَتَشْقَى﴾ (١١٧) [طه]

ولم يقل: فتشقى؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة، فالمرأة تقرر^(١) في البيت؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانِ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ..﴾ (٧١) [يونس]

وهنا يُحِثُّ نوح قومه بإضافات التحنن، أي: جاء بالإضافة التي تُشعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذي يخطب في أهل دائرته الانتخابية: «أهلى وعشيرتى وناخبي» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان]

(١) القر في البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْعَاجِلَةِ الْأُولَى﴾ (٣٣) [الأحزاب].

وقوله :

﴿ يَا بَنِي إِثْنَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمْنَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٦) [لقمان]

وقوله :

﴿ يَا بَنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ .. ﴾ (١٧) [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق .

﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. ﴾ (٧١) [يونس]

والكاف والياء والراء تأتي لمعنيين :

الأول : كبر السن ، وهي : كبر يكبر .

والثاني : العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتي ليبين أنه أمر صعب على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. كَبُرَتْ ﴾ (١) كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف]

[الكهف]

أى : أن هذه الكلمة التي خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق ، وهي

قولهم :

(١) مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ : زنة حبة من خردل . والخردل : نبات عشبي ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق ، تستعمل بزوره في الطب ، ومنه يزور يتبل بها الطعام . الواحدة خردلة . ويضرب به المثل في الصغر ، فيقال : ما عندي خردلة من كذا . [المعجم الوسيط : مادة (خ ر د ل)] .

(٢) ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴾ (٥) [الكهف] أى : أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى - عما يقولون - ولداً ، قول فيه خطأ كبير ، لأن الله سبحانه منزّه عن العاجبة والأولاد ، وعن الشركاء والأنداد . قال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمْنَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ (٢٢) [مريم] . وقال سبحانه : ﴿ أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤) [يونس] من إثبات الولد له ، والولد يقتضى للجانية والمثابة ، والله تعالى لا يجانس شيئاً ، ولا يشابه شيئاً .

﴿.. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [١] [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهي مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً.

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ..﴾ [١٦] [الشورى]

أى : عَظُمَ على المشركين ، وصَعُبَ على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهي تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهي تشق عليهم .

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي^(١)..﴾ [٧١] [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) المقام : مصدر ميمي بمعنى القيام واسم مكان القيام اُخسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ،

وقوله : ﴿وَانْخَلَبُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضَلِّينَ﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله :

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿وَمَا مَثَا إِلَّا لَهْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾

[الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ ..﴾

[يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمي .

والمقام (بالصم) مصدر ميمي من أقام الرباعي المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان .

وقوله تعالى : ﴿وَرَادَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ

بَنِيْنَآ عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين

فارجعوا إلى بيوتكم . . [القاموس القويم - بتصرف] .

أى: أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم.

أو أن : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. ﴾ (٧١) [يونس]

تعنى: أنه حملهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .
إذن: فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل فى الواقع أو المبلغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة .

إذن: فقول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .. ﴾ (٧١) [يونس]

أى: إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى: أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وما هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمّى من يَخْلُقُهُ من بعده ، قال له بعض الناس: لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب: بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُمْ حُكْمِي ؛ لأنى شديدٌ عليكم .

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٧١) [يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى ، ولنلحظ أنك إن قلت: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٧١) [يونس]

فأنت قد قصرت توكلتك على الله فقط .

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم:

﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. ﴾ (٧١) [يونس]

ومعنى جمع الأمر: (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى . وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة .

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردّها ملكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستمرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٢٥٨) [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريد ، وما يرام منه .

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ،
أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين^(١)
بحمل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج -
أيضاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن
يؤمن ، فرفض ، وأثر أن يظل في جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم
الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ،
ولم ينظر ابن نوح إلى جندى آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل
الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٧٦) [يونس]

له رصيد إيماني ضمني ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن
الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى في نصرة
نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شيء .

هكذا كان توكل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما في هذا التوكل
من الرصيد الإيماني المتمثل في :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (١٢٠) [المائدة]

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢٨٤) [البقرة]

(١) ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ قَلِيلًا حِمْلُ فِئْهَا مِنْ كُلِّ ذَرِيَّةٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [مود] فمن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب
الأخبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل غير ذلك . وإياً كان عددهم فهو قليل
جداً بالنسبة لعدة مكث نوح فيهم .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه .

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المختار ،
لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون
مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ،
ولكان كل البشر من جنود الحق .

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ (٧١) [يونس]

والإنسان حين يهمله أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ،
ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان
خواطره كلها في خاطر واحد ، فهذا يعني استقراره على رأى واحد ،
وجمع أمره عليه .

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا
وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جمعٌ للأمر .

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هوية المجتمعين ، فإن
كانوا أهل خير فهم يتزولون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين
أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها :

- ١- مفعول به لفعل مضمر تقديره : وادعوا شركاءكم .
 - ٢- مفعول معه ، أى : أجمعوا أمركم مع شركاءكم .
 - ٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشئ . وكذلك جمع الشركاء .
- وفى ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره فى تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٩٠) .

﴿اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ^(١) لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ^(٢)﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوة ، وما يزالون هم الأسباط^(٣) ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحد منهم: لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا^(٤)﴾ [يوسف]

أى: أنه خفف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى نزول الاختيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ^(٥)﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة.

(١) يخل: فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٢)].
(٢) قوماً صالحين: أى: ناثقين. وقيل: «صالحين» أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٢)].
(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسوا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/١٨٧).
(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقيوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوه، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٣، ٣٤٥٤)].

إذن : فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل .

ومثال ذلك : رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرب من آخر ، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده ، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير .

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، فيقول لنفسه : « سأطلق عليه الرصاص » . وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .. ﴾ (٧١) [برنس]

أى : اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه ، ولن يتصرفوا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم .

أو أنه مثلما يقول العامة : « أعلى ما فى خيولكم اركبوه » أى : أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى .

ولا يكتفى بذلك بل يضيف :

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ﴾ (٧١) [يونس]

والغمة: منها الغمام ، ومنها الإغماء ، أى: فقد الوعي وسرَّ العقل ،
أى: أنه قال لهم: لا تعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم ، بل
افعلوا ما يحلو لكم ، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون .

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون
عليهم ، وتعبدونهم ، أو شركاؤكم فى الكفر ، ولم يابَّه نوح - عليه
السلام - بتقوية العصية المضادة له ؛ لأنه متوكل على الله فقط .

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ أَفْضُوا إِلَىٰ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴾ (٧١) [يونس]

أى: أنه يُحَفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم -
سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا
على المضى فى تنفيذ ما اتفقوا عليه .

و«قضى» أى: حكم حكماً ، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار
بحيث ينفذ ، فقد يُقضى على إنسان بحكم ؛ ويوقف التنفيذ .

لكن قوله: ﴿ أَفْضُوا إِلَىٰ ﴾ يعنى: أصدرُوا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ
ما قضيتم به .

ثم يقول: ﴿ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىَّ .

والتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً ، فهو أولاً يطلب أن
يجتمعوا على أمر واحد ، هم وشركاؤهم ، ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّةٌ وغَمٌّ سواء ، ومعناه: التغطية ، من قولهم: غم الهلال إذا ستر ، أى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً
تتمكنون فيه مما شئتم ، ليس كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد . وهذا دليل على ثقة نوح عليه
السلام من ربه سبحانه ، ونصره إياه على قومه الكافرين . [تفسير القرطبي: ٤ / ٣٢٩٠] .

غُمَّة^(١) ، ثم اقصوا إلى ما اتفقت عليه من حكم ونفذوه ولا تؤجلوه ،
فهل هناك تحداً للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم
ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ،
ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقى في التحدى ،
فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم
الإبطاء في تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى
قبول تنفيذ الحكم .

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ،
وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على
الأرض ، تجدد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذهل» الذين أتعبوا قوم الشاعر
كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر^(٢) :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ	وَقُلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	مَنْ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعَدَا	نَ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشَيْنَا مَشْيَةَ اللَّيْثِ	عَدَاً وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ

(١) غم الشيء يغمه - كغمر - غمماً : أخفاء وغطاء وستره وغمه الأمر . كربه وأحزبه ، قال تعالى :
﴿ فَاسْتَفْحَمَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥١) [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم
وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ﴾ (٧١) [يونس] وقال : ﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ
(٦٦) [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيان ويلقب بالفند الزماني ، توفي نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل شاعر جاهلى
سمى الفند لمظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ٣ / ١٧٩) .

يَضْرِبُ فِيهِ نَوْهَيْنِ^(١) وَتَخْضِيعُ^(٢) وَإِقْرَانُ^(٣)
وَطَعْنُ كَقَمِ الزُّقِ^(٤) غَدَا وَالزُّقُ مَلَانُ^(٥)
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيَّةٌ مِنْ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ^(٦)
وَبَعْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ^(٧) لِلذُّلَّةِ إِذْعَانُ^(٨)

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد ، لعل بشرينهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلمهم يعلنون الإيمان بالله تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٩)

أى : إن توليتم عن دعوتي لعبادة الإله الحق ، فأنا لا أدعوكم إلى مثل لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم ، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاه ، فالجاء كله لله تعالى .

(١) التخضيع : تقطيع اللحم .

(٢) الزق : الإناء .

(٣) أورد هذه الأبيات أبو علي الفاي في الأمالي (١/ ٣٠٩ ، ٣١٠) ، وهي من بحر الهزج .

(٤) «توليتم» : أمرضتم عما جئكم به «فما سألتكم من أجر» أى : فليس ذلك لأنى سألتكم أجراً ؛ فيجمل عليكم مكافأتى . [تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٩)] .

(٥) «إن - هنا - نافية بمعنى (ما) أى : ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى .

(٦) «المسلمين» أى : الموحدون لله تعالى . [تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٩)] .

والله لا يحتاج إلى جاء منكم لأن جاءه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم ونجبركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ.. (٧٢)﴾ فهل يُمَالِيءُ^(١) نوح - عليه السلام - أعداءه .

إن الإنسان يُمَالِيءُ العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفع سيعود على نوح - عليه السلام - ويمنع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقصدرون على ضربه ، ولا يقصدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركزاً قوياً .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر»^(٢) تعني : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة في المعاملات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب في شراء «شقة» في بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

(١) يُمَالِيءُ : يعاون ويساعد . قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تابعوا برأيهم على أمر : قد تمالؤوا عليه . [لسان العرب : مادة (م ل أ)] .

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور . والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله يأجره ويأجره أجراً وأجره . أي : أعطاه الثواب . [لسان العرب : مادة (أ ج ر)] .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة في البيت ، أى : يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلحّة .

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا في أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول : إن عملي كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن أخذ أجراً عليه .

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

فهذا التولّى والإعراض لا يضرّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضرراً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن أخذ منكم أجراً .

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (٨٦) ﴾ [ص]

إلا في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتي قول الحق سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾
[الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضاً في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْخُلَا بَابَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأَتَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)﴾
[الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾
[يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق سبحانه :

(١) العكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه ، أى : أنهم مقيمون مستمرون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/٢٣٧)].

سُورَةُ يُوسُفَ

٦١٠٥

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٢) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء]

إذن : فعالية الموكب الرسالي يأتي على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبي الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة كانوا يعبدونها . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٥)] .

[الشعراء]

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾ (٦٦)

فكان الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة، لكننا لا نريد منكم أنتم أجراً، إنما سنأخذ أجراً من رب العالمين؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقومها، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنْزِلُه على رسله.

وها هو القرآن الكريم يأتي على لسان رسول الله محمد ﷺ، ويقول:

[الشورى]

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ (٢٣)

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فتحزن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا؛ دعا عمه، وكان للعم حفظ تربية إبراهيم، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة.

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام، فقد دعا فرعون، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى، وكانت زوجة فرعون تريده قرّة عين لها ولزوجها، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكره بذلك، وقال:

[الشعراء]

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ^(١) فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٦٨)

أما هنا في دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضح الأمر لقوم نوح:

فإن توليتم فلا حزن لي، ولا جزع؛ لأنكم لن تصيبوني بضرٍّ، ولن تمنعوا عني منفعة؛ لأنكم لم تسألوني أن آتي لكم بالهدى لأخذ أجرى منكم، ولكن الحق سبحانه هو الذي بعثنى، وهو الذي سيعطيني أجرى،

(١) لبث: عشت ومكثت بيتاً.

وقد أمرتني سبحانه أن أكون من المسلمين له حقاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا آيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (٧٢)

وكان الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشملهم ؛ لأنه لا يقال : نجيتك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطرفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. ﴾ (١٢)

[القمر]

(١) الملك : السيف .

(٢) خلقه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه - خلفاً وخلافة وخلفه خلفاً : صار خلقه قال تعالى : ﴿ قَالَ يَتَّبِعْ خَلْفَتَايَ مِنْ بَعْدِي .. ﴾ (١٠٠) [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أي الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. ﴾ (١٠١) [الأعراف] والخلف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح . والخليفة من يخلف غيره ، أو يتوب عنه ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ (١٠٢) [البقرة] ، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (١٠٣) [الأعراف] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ .. ﴾ (١٠٤) [الأنعام] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) ماء منهمر : مطر غزير .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر
انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجرت بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه
وتعالى يقول :

﴿ فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمع]

أى : أن ذلك الأمر كان مقدراً ؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة
ظاهرة طبيعية .

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه
السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴾ [٣٧] [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها :

﴿ وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ^(١) مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ
تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [٣٨] [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله
تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلِّ نوع اثنين ذكراً وأنثى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَجَنَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ .. ﴾ [٧٣] [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم
مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

نقول: إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسَخَّرَةٌ لخدمة الإنسان ، وكان لا بُد أن توجد في السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخرة تسبح الله^(١) ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم ألبس من الكائنات المسخرة ذلك الغراب الذي علم «قابيل» كيف يوارى سواة أخيه^(٢)؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَبَهْتَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ...﴾ (٣٦) [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددھا الآن:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبْجِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٢) [يونس]

وكلمة «الْفُلْكِ» من الألفاظ التي تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَتَبْجِئْنَاهُ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ^(٣) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر]

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً ففهموا﴾ [الإسراء].

(٢) يوارى سواة أخيه: يخفي جد أخيه «هابيل» الذي قتله أخوه بغير حق. أى: يدفنه.

(٣) الذِّكْر: القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر بينين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يشكرون﴾ [التحل].

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوجدانية وتكون بضمير الإفراد مثل : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴾ (١٤) [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَجِّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ .. ﴾ (٧٣) [يونس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «نَجَّى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ .. ﴾ (٧٣) [يونس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجرى بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴾ (٥٩) [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤)

[يونس]

(١) خلائف : جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه . وتجمع أيضاً على «خلفاء» . قال تعالى : ﴿ وَادْعُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٦٩) [الأعراف] .



ولأن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فسوف يلقى مكانته على ضوء ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيَزِدَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا.. (٥٥)﴾ [النور]

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالح ، وإما أن يكون صالحاً يخلفه قاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٢)﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّك على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليذك فيه دُخُلٌ ، وما ليس ليذك فيه دُخُلٌ ؛ ستجد كل ما ليس ليذك فيه دُخُلٌ على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤١)﴾ [يس]

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوي . والجمع : أفلاك . [المعجم الوسيط : مادة (ف ل ك)] .

أما ما لديك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي مناط الاستدلال العقلى على وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور العجيبة التى جاءت على أيدى الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم صادقون فى البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. (٧) ﴾

[آل عمران]

وهى الآيات التى تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾

[يونس]

فهو يعلمنا أنه أغرق من كذبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بدیع صنعته سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها^(١) ، وهم أيضاً كذبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذبوا بآيات الأحكام التى جاءت بها رسولهم .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ^(٢) (٧٣) ﴾

[يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتى منه النظر ، وأولهم سيدنا محمد ﷺ ،

(١) رتابتها : أى : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْفِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (١٠) ﴾ [يس].

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم يوح الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا ، فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مخاطب بالقرآن .

وأنت حين تقول : « انظر » ؛ فأنت تُلفت إلى أمر حسّي ، إن وجّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليسم أبعاد الشيء ؛ فتراه .

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهي أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه .

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهي تلقف الحبال التي ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكمّة والأبرص^(١) ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفي القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمي ؛ لأننا آمنة بصدق المبلّغ عن الله تعالى .

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء ليتنظم الناس الموجه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة .

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب في أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول : محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هي معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ فَاَنْظُرْ ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

(١) الكمّة : الغمى الذي يولد به الإنسان . أما البرص فهو : مرض جلدي عبارة عن بقع بيضاء تكون في الجسد . انظر اللسان .

وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١) [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذ على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول :

﴿أَلَمْ تَرَ..﴾ ؟ [الفيل]

وأقول : ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبى عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين .

إذن : «فانظر» تعنى : اعلم الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسائله ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يقل الحق : «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه :

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾^(٢) [بونى]

(١) أصحاب الفيل ، هم جيش «أبرهة» الحبشى حين قدموا لهدم الكعبة ، فمزقههم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول . ووافق ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمس وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادث بعينه ، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق ، فكانه قد رآه بعينه فعلاً .

وهنا نقول :

إن الحق سبحانه وتعالى قد بين أنه لن يعذب قبل أن يُنذِر^(١) ، فهو قد أُنذِر أولاً ، ولم يأخذ القوم على جهلهم .

« فانظر » - كما نعلم - هي خطاب لرسول الله ﷺ ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخبر تسليية لرسول الله ﷺ ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلم أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ مِرْسَلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ^(٢) فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِمِثْلِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ^(٣) ٧٦ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ لَدُنْهِ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ^(١) ﴾ [فاطر] ويقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا^(٢) ﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر ، قال تعالى : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ^(٣) ﴾ [المائدة] .

والنذير هنا : هو الرسول المنذر بالمعذاب . والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى : ﴿ فَالْمُفْلِقَاتِ ذِكْرًا^(٤) عَذْرًا أَوْ نَذْرًا^(٥) ﴾ [المرسلات] وقوله : ﴿ .. وَمَا نُنْفِئُ الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ^(٦) ﴾ [يونس] يحتمل أنها الإنذارات . أو المنذرون من الرسل جمع نذير ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ^(٧) ﴾ [الأحقاف] ، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون .

(٢) بالبينات : أى : بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٢)] .

(٣) الطبع : هو الختم على القلب ، ولكنه لا يُمَحَى ولا يُفَكَّ أبداً ، أما الختم فقد يفك ، وقد تكون له مدة معلومة ، وقد يقبل مع التوبة الخالصة . وبكلا الأمرين ورد القرآن : ﴿ أَوْ لَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَنَسِيَهم وَأَنبَارِهِمْ^(١) ﴾ [النحل] . وقال سبحانه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً^(٢) ﴾ [البقرة] .

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج^(١) هو إمالة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشئ منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبحر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليعبثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على السنة الرسل^(٢) المبلغين عن الله تعالى .

(١) نهج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ فِرْعَةً وَمُنْهَاجاً ..﴾ (١٥٨) [المائدة] أى : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوى .

(٢) الرسالة : اسم لما يرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن يؤنث . يقول الحق : ﴿إِنَّا رُسُلُكَ ..﴾ (١٧) [طه] أما في آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التسمية فيه إذا وصف به بين المرسل والمرسل ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَارْسِلْ نَجِيَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ ..﴾ (١٦٠) [الأعراف] (الزمخشري - بتصريف) .

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

[يونس]

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ .. (٧٤) ﴾

أى : من بعد نوح ، فمسألة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرُّعْبِ الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عاماً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عاماً بخصوصية من بقوا وهم المرسل إليهم بخصوصية الزمان والمكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[يونس]

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾

فهل قص الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام ؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القاتل :

[غافر]

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهي لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمه ، وبدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » ، وأحلت لى الخاتم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم ^(١) ، مثلما قال سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ^(٢)﴾ (١٤٧)

[الصفافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوي في العصر الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت ^(٣) في الأرض ؛ لأن الأقوات التي كانت تكفي ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفي بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ^(٤)﴾

.. (١٠٠)

[النساء]

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ..﴾ (٢٤) [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أُنجاه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل نينوى ، بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٢)] ، و[صفوة التفاسير للصابوني (٣/ ٢٤)] .. بتصرف .

(٣) انساح : من السباحة وهي الذهاب في الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ي ح)] .

(٤) مراعيماً كثيراً : المراغمة الهجران والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - بتصرف] .

وسعة : أي : بعيداً عن تضيق المشركين ، وقيل : سعة ، أي : كثرة في الرزق . [مختصر تفسير الطبري] بتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث ^(١) ،
فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب
الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحارى ، مثلهم مثل
العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد
وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العدوّين اللذين لم يقدر
عليهما البشر هما النار والماء .

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التي
أخذوا منها الماء على قدر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة
المواجهة مع الماء .

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت في بقية
الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق
سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ^(٢) ۝ (٢٤) ﴾

[فاطر]

وقصّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض
الآخر .

يقول الحق سبحانه :

(١) الغيث : المطر .

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أي : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم . خلا : مضى وسبق . قال
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ^(٢) ۝ (٢٤) ﴾ [الرعد] .

نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أي : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به . قال تعالى : ﴿ قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ^(٣) ۝ (٢٥) ﴾ [المائدة] .

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِيُؤْثِرَ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٧٨) [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَبَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴾ (٧٩) [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى
ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح -
عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتى لنا
بخبر عيون الرسالات ^(١) .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم
رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم» ^(٢) فى الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع
بالجمع تقتضى القسمة أحاداً ، مثلما نقول : هياً اركبوا سياراتكم ،
والخطاب لكم جميعاً ، ويعنى : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أى : بالآيات الواضحات الدالة
على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) عيون الرسالات : أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .
(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ .. ﴾ (١١) [الحجرات] ، ثم
قال : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ .. ﴾ (١١) [الحجرات] فدل على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ،
ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس الفري] .
وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ
الْمُتَعَدِّينَ (٧٤)﴾ [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى ، فمركب
إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة^(١) ، وطبع الله تعالى على
قلوب المعتدين . والطبع - كما نعلم - هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه
ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على
هذه القلوب ألا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا
منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب
كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم .

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه يبين أنه قد طبع على قلوب المعتدين ،
فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله
تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع
على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى
هو القائل فى الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»^(٢) .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يسدر^(٣) فى غيئه: ما دمت تعشق
ذلك الأمر فاشبع به .

(١) الغفلة : سهو يمتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ..

(٢) [ق] ، أى : غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت . [القاموس القويم]

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) السادر فى غيه : الممن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم بشيء ولا يبالى ما صنع . [اللسان مادة : سدر] .

ومثل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (١٣) [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (١٤) [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدّ عضدّه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٣٦) [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجع موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْطَلْ عُقْدَةً ^(١) مِنْ لِسَانِي ^(٢) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٢٨) [طه]

(١) ملته : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم وروساؤهم الذين يرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملا] .

(٢) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْطَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ (٢٨) يَفْقَهُوا قَوْلِي [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام .

وقال الحق سبحانه : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴾ (٢٤) [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوث في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد - إذن - أن يصبح هارون رسولاً .

ولذلك نجد القرآن معبراً عن هذا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ﴾ (٤٧) [طه]

أى : أنهما رسولان من الله .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) [الشعرا]

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهم واحدة لم تعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وقداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا رَسُولَا .. ﴾ (٤٧) [طه]

(١) طغى : تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر] أى : ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة] .

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمَجاً^(١) رَذُل^(٢) الخُلُق ، فإن تكلم هارون
ليشد أزر^(٣) أخيه ، فقد يقول الفرعون : وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون
هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى تغلق الباب على من يريد أن يتورك^(٤) القرآن متسانلاً:
ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفى هذا ردٌ كافٍ على هؤلاء المتوركين .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا .. (٧٥) ﴾ [يونس]

والملا: هم أشرف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقربون من صاحب
السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملا» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ،
أى : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملا ؛ لأنهم هم الذين
نصّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة
يؤكدون أن الفرعون إله .

(١) سَمَجُ الشيء : قُبْح . والسَمَجُ والسَمِيج : الذي لا خير فيه [لسان العرب : مادة (س م ج) - بتصرف].
(٢) الرَذُلُ والرَّذِيل : الدون من الناس ، وقيل : هو الخسيس . وقيل : هو الرديء من كل شيء . [لسان
العرب : مادة (ر ذ ل)].

(٣) الأَزَرَ : القوة والشدة ، وأَزَرَةً وأَزَرَهُ : أهانه وساعده . [لسان العرب : مادة (أ ز ر)] .

(٤) التوريك : إضافة الذنب أو النقص إلى الشيء ، وحمله عليه على غير الحقيقة ، وتحمل معنى إسقاط
عنه على غيره [انظر : لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يحملون القرآن تناقضاتهم .

ولكل فرعون ملاً يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : «قالوا لفرعون من قَرَعَكَ ، قال : لم أجد أحداً يردني» .
 أى : أنه لم يجد أحداً يقول له : تَعَقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات ^(١) التي بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملئه استكبروا . والاستكبار : هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى : طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى : طلب الفهم . ومن يطلب الكبر إذاً يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

[يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة ^(٢) له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال تعالى : ﴿ وَتَقَدَّاتِنَا مُوسَىٰ نَسِجَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْلَمَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ (١٠١) [الإسراء] والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وصنى الجذب ، والبحر ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .
 (٢) المندوحة : اتساع الأمر . والمراد : أن فعلهم هذا لا مسبب معقول له ، ولا مبرر . [لسان العرب : مادة (ن د ح) بصرفه] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبى^(١) على الرسول ، لا يتأبى على مساو له ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذي بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذي خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجري بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجيء من ناحية اختيار الإنسان للبدايل التي لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التي لا دخل لكم فيها ، فامثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(١) اللام في كلمة «السحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا نَبَأُ الْفُلْكِ مَا جَاءَهُمْ وَمَعَهُمْ يَتَكَلَّمُ إِلَهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ي)] .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾

[الرحمن]

أى: إن كنتم تريدون أن تعادل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا .. (٧٦) ﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا تدخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ ، فهُمُ من قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن (٣١) فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وتحذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن احتداد الموازين ثبات للحق ، وإثبات الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القريةتان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقليل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (١٢٧ / ٤) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله خللاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء يقول هو ساحر بفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . سيرة ابن هشام (١ / ٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايير لقرمه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك^(١).

والحق هو الشيء الثابت، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق، وأن الباطل تغلب عليه، فهذا يعنى ظهور المفسد؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

واتشاع المفسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق، وتحمس له؛ لأن الباطل حين يَعْصُ الناس، تجدهم يتجهون إلى الحق ليمسكوا به. والحق سبحانه هو القائل:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا^(٢) رَابِيًا^(٣) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ^(٥)﴾ [الرعد]

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها». أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه فى سننه (٤١٦٩). قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل، يضعف فى الحديث من قبل حفظه.

(٢) الزبد: هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه. وبحر مزبد، أى: مائج يقدف بالزبد. وزبد الماء: طفاوته وقذاه. والجمع: أزياد. [لسان العرب: مادة (ز ب د)].

(٣) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء. [اللسان: مادة (ر ب ي)].

(٤) جفاء السيل: هو ما يقلفه من الزبد والوسخ ونحوهما. [اللسان: مادة (ج ف ي)].

(٥) أمثال: الصفة العجيبة يشبها غيرها. فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص، لأنها أثبتت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس. وأمثال القرآن قسمان:

- قسم ظاهر مبصر به، مثل قوله تعالى: ﴿مِثْلُهٗ﴾ أى استوفد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يَصِيرُونَ^(١) [البقرة]

- قسم كامن، مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(٢)﴾ [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل «خير الأمور أوساطها». [انظر: الإنفاق فى علوم القرآن ٤/ ٤١].

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كميل من السماء على الجبال ،
 فيأخذ كل واحد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى
 الأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من
 الطمي ، والقش ، ويستقر الطمي في أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ،
 أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية
 زَبَداً ، وساعة تضعها في النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة).

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذي
 يطفو ، ويبقى الحديد النقي في القاع .

هذا الزبد الذي يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما
 نراه على شواطئ البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطئ ، هذه
 القاذورات التي ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب
 جُفَاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ.. (١٧)﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل
 يترك الباطل ؛ ليحفر غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار
 هو عليه ^(١) .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التي جاءت مع
 موسى - عليه السلام - هي السحر المبين ، أي : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إلي المدح من الله ، من أجل ذلك
 مدح نفسه ، وليس أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم في صحيحه
 (٢٧٦٠) ، والبخاري في صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُهُ هَذَا
وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُهُ هَذَا .. ﴾ (٧٧) [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا
إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا
متسائلين : أسحر هذا ؟

وقمهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿أسحر هذا﴾ من
كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه
السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا
استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء
بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس
سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خبر لكان يحتمل
الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذب له
سبيل بلجلة^(١) .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ،
فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ،
والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات
له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك
أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقي يا رجل ؟
وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله
كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. ﴾ (٧٧)

[يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه
سحر مبین ؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر
إلى الحق مجرداً عمن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَصِحَّرَ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر
لا ينفع ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد
ابتلعت عصاه - التي صارت حية - كل ما ألقيوه من حبالهم ؛ وكل
ما صنعوه من سحر^(١) .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (١٧٧) فوق الحق وبطل
ما كانوا يفعلون (١٧٨) ﴿ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة^(١) من جنس ما نبغ فيه القوم .

فألله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة ودربة^(٢) ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ لبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبني لك هرمًا ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، وري الأرض وانتظار الشجرة بعد بذل كل ذلك الجهد ،

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

هو لفتنا أن السحر نوع من التخيل ، وليس حقيقة واقعة .

ولذلك قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

(١) المعجزة هي : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبي أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص ، وخمس^١ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله^٢ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه^٣ .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

[الأعراف]

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. (١١٦)﴾

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿.. فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (١١٦)﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط ^(١) وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدت كل القدرات ^(٢) ؛ لذلك أعلن فرعون التعيسة العجاجة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر ^(٣) .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيتهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف ^(٤) ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيتهم مجرد عصى .

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخيل والأخذ بالعيون ، ومبناء على أن البصر قد يخطئ ويستقل بالشئ المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. (١١٦)﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿.. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (١١٦)﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشئ بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعلمه عليهم بقدرته التي لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكروه جعل الملا من حوله هم الذين يستبدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿.. إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٤١) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٤٢)﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ تَرَجَّعْ وَارْجِعْ إِلَى الْمَلَأِئِمَةِ حَاضِرِينَ (٤٣) يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ (٤٤)﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها
السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خروا^(١)
ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ بِرَبِّ قُرُونٍ وَمُوسَى ۝ (٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو من فعل خالق
أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة نابعاً من التدريب
الذي تلقاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۝ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ^(٢) عَلَيْهَا وَأَهشُّ^(٣)
بِهَا عَلَى غَنَمِي ۝ (١٨) ﴾ [طه]

وقد أجمل موسى وفصل في الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة
للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ .. وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ^(٤) أُخْرَى ۝ (١٨) ﴾ [طه]

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب
التخاطب مع الله تعالى ، ودرّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسروها بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : اتكأ وأعتد وأستند عليها . [اللسان : مادة (و ك أ) - ينصرف] .

(٣) ﴿ وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ۝ (١٨) ﴾ [طه] أي : أهرز بها الشجر لتساقط أوراقه لترعاه غنمي . نقله ابن كثير
في تفسيره (١٤٥ / ٣) .

(٤) مأرب أخرى : أي : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس^(١) منها خيفة ولرأها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخيّل إلى الناس من سحرهم أن عصيهم وحبالهم تسمى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - في إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا - كما نعلم - أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت مستظل نباتاً .
وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهي المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا أَاجْتَنَّا لَتْلَفُنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ

لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨)

(١) أوجس : أى : وقع فى نفسه وقلبه الخوف والفرع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنتين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى صورة بشر ليسروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا فى القرآن مرتين : الأولى فى سورة هود : ﴿ ولقد جاءك رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حديد ﴾ (١١١) فلما رأى أيديهم لا تعيل إليه نكسهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (١١٢) ﴿ [هود] . أما الثانية ففى سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبى الثانى فهو موسى عليه السلام : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ (١٢٥) قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى (١٢٦) فأوجس فى نفسه خيفة موسى (١٢٧) فلما لا تخف أنك أنت الأعلى (١٢٨) ﴿ [طه] .

(٢) لتلفتنا : لتشتينا وتهددنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٤/٢٦٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية ، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول ^(١) .

ولو قال فرعون لموسى : « جئ بك » لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٧٨) [يونس]

والالفتات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٧٨) [يونس]

(١) فيما قاله فرعون عن موسى يطمئن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥٢) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٣) ﴿ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (٥٤) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ (٥٦) وَأَحِلِّ عِقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴾ (٥٧) بِقَهْوَرِ قَوْلِي ﴾ (٥٨) [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلد ، فلا يُعْمَلُ عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، وينى عليه سلوكه^(١) .

والمثل العامى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش فى الزفة » أى : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أى جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له انجهاً .

والمقلد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذى يطيل أمد^(٢) الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمَلُ عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ فى حديثه ، فعن حنيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسناً ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تمشوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذى فى سننه (٢١٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والآمد : مستهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَى الْغَيْبُ مَا تُوَعَّدُونَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ نَبِيًّا أَمْعَا (٢٥) ﴾ [الجن] أى : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْعَاً بَعِيدًا .. (٣) ﴾ [آل عمران] أى : فى غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَخَّاهُمْ لِعَلَّهُمْ لِيَأْخُذُوا أَخْيَرَ لِيَأْخُذُوا أَمْعَاً (١١) ﴾ [الكهف] أى : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الأبناء وهم يعانون من أبائهم حين يتسلط عليهم أقران^(١) السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على أعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التنشئة التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والردائل . [لسان العرب : مادة (قرن) - بصرف] .

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْثَقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا..﴾ (٤٣)
[الفان]

إذن : فأمر الابن يجب أن يكون تابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمَلَ عقله بين البدائل^(١) .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على السنة مَنْ قُلِدُوا الْآبَاءُ :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفِينَا^(٢) عَلَيْهِ آبَاءَنَا

..﴾ (١٧٠)
[البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

﴿..أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)
[البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا يتام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأدوات التي تسهل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفي إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فلتُهْتَدَ بما جاء لك من هو فوقك ، وهذا الاهتمام للمختار هو السمو نحو الحياة الفاضلة .

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهي مواضع الاختيار في التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿وَنُفِّسَ وَمَا مَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) [الشمس] .

(٢) آَلَفِينَا : وجدنا . أَلْفَى الشيء وجدته . قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَقْبَوُا آبَاءَهُمْ حَالِينَ﴾ (١٩) [الصافات] ، وقال : ﴿وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..﴾ (٢٥) [يوسف] أي : وجدناه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (١٠٤) [المائدة]

أى : أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فردُّ عليهم القرآن :

﴿ .. أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤) [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلدين :

الآية الأولى : هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧٠) [البقرة]

والآية الثانية : هى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤) [المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آبائهم .

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره .

(١) حسبنا : بكفينا . وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لأبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة : ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿ .. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٢) [آل عمران] ، وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرِسَالَاتُهُ .. ﴾ (٥٧) [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم من الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيفسرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات .

إذن : فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا :

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء في آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون في ظلمات من الجهل .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَنَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ .. (٧٨) ﴾ [يونس]

أى : هل جئت لتصرفنا ، وتحوّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم ؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء في الأرض ؟ وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم في الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمـر هنا يشمل نقطتين :

الأولى : هى تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء .

والثانية : هى الكبرياء ^(١) والعظمة في الأرض .

ومثال ذلك : حين يقول مقاتل لآخر : « ارم سيفك » وهى تختلف عن قوله : « هات سيفك » ، فَرَمَى السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك .

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم » : هى العظمة والتجبر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة بتصرف .

وهم هنا وجدوا فى دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هى ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هى سلب الكبرياء ، أى : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والمعظمة والائتمار^(١) ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة^(٢) الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصدددها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨) [يونس]

أى : أن قوم فرعون والملا أقروا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوُونَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٧٨)

وكان فرعون يعلم تقدم السحرة فى دولته ، ويكفى أنه شخصياً خيّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتى أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جىء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه فى الآية التى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠)

(١) الائتمار : التشاور فى الأمر والتواصى به . ويسمى التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَشْعُرُ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ... ﴾ (٢٥) [الفصل] . [القاموس القويم . وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣] .

(٢) بطانة الرجل : خاصته . [لسان العرب : مادة (ب ط ن)] .

وكان المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى تفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتي بأشياء تفسد الصورة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقْرَأُونَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠) [يونس]

وفي هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم في ورطة ^(١) تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف ؛ لأن القصة تأتي بنقاطها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التي تأتي بذكرها ^(٢) .

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن ^(٣) ليأتى السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن ^(٤) .

(١) الورطة : الرجل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت في ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان في الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له للخروج منه . [لسان العرب : مادة (ورط)] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآني في الإشارة إلى قصصه عدا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهي القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع في القرآن خاصة بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠] [المنافقون : ٨] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاضِرِينَ ﴾ (٤١) [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاضِرِينَ ﴾ (٣٦) [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون^(١) :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف]

ووضَّع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخييراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون فى أزمة ؛ طالبوا بالأجر .

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرئين^(٢) ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للملك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا فى هذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنها - وجاء ببقية اللقطات فى المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠) [يونس]

(١) فرعة : الفرعة الكبير والتجبر ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صرّفه فى قول بعضهم ؛ لأنه لا سمي له وكإبليس فيمن أخذه من أبله . وقال ابن سيده : إن فرعون علّم أعجمى . ولذلك لم يصرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون ، والعناة الثفراعة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعة أى دهاء وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التماح (لسان العرب) وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو متفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢٦) [طه] والله أعلم .

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقرلهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١١٤) [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وَأَلْقَى السَّحْرَةَ عَصِيَّتِهِمْ وَحِبَالَهُمْ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۚ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه يبين بالتفصيل ما حدث ، في آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضي من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه ؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخيل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخيل^(١) للعيون .

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى في ذلك التخيل :

﴿ .. مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس]

(١) والخيال ما تشبه لك في اليقظة أو في النوم من صورة . والظل : ما يتصوره ذهنك من شيء - والخيال إحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء ، ويتصورها .

قال تعالى : ﴿ .. يَخْلُقُ إِلَهُ مِنْ سَحَابِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى ﴾ [طه] أي : تشبه له ، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسعى كالحيات ، والحقيقة أنها ليست حيات ، ولكنه توهم وتخيل (القاموس القويم) .

وهكذا جاء القول الفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون وملأؤه^(١) والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولا مؤيذاً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه بمعجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كن» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخيلات .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشيء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويرز بإرادة الله تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبين لنا أن الحق إنما يأتي على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين في الرغام^(٣) ،

(١) ملأؤه : آل فرعون ومن يرجع إليهم .

(٢) يحق : يثبت ويظهر . بكلماته : بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

(٣) الرغام : التراب . والمراد : إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم .

وليربح العالم من إضلالهم ومن مفسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١)
﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٢٧)

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا
الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

﴿آمَنَ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (٧١) [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛
ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ (٢٧) [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذي كان
متشعراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون في خلوة
من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحرَّصُ عليها ،
ومع ذلك فهم قد آمنوا ؛

(١) ذرية : طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦] . وقيل : من بني إسرائيل
[مختصر تفسير الطبري : ص ٢٣٩] .

(٢) ملئهم : آل فرعون والمقربون منه والموافقون له .

(٣) يفتنهم : يصرفهم عن دينهم بتعذيبهم لهم .

(٤) عال في الأرض : جبار مستكبر . والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

(٥) المسرفين : المتجاوزين الحد بادهاء الربوبية . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

﴿ عَلَى خَوْفٍ ^(١) مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمْ .. ﴾ (٨٢)

[يونس]

وكلمة ﴿على خوف﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا: «على الفرس» أو «على الكرسي» ويكون المستعلى في هذه الحالة متمكناً من «المستعلى عليه» ؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء .

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتي بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ .. ﴾ (٨)

[الإنسان]

أي : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَ لَكُمْ فِي جُدُوعِ

[طه]

التَّخْلِيفِ .. ﴾ (٧١)

جاء الحق سبحانه بالحرف «في» بدلاً من «على» ؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) الخوف هو الفرع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤١) [قریش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوَسَّرٍ جَيْفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤٥) [البقرة] أي : فرح لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوفاً جعله يخاف . قال تعالى : ﴿ .. وَتَخَوَّفَهُمْ لَمَّا بَرَزُوا لَهُمْ إِلَّا ظَنَانًا كَبِيرًا ﴾ (٦٦) [الأنعام] وخوفه فلاناً أي : جعله يخافه بتعدي لمفعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. ﴾ (٦٤) [آل عمران] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ۖ ۞ (٨) ﴾ [الإنسان]

فكانهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .
وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَى خَوْفٍ ۖ ۞ (٨٣) ﴾ [يونس]

أى : أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقع الآلام ^(١) .
وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ أَنَّ يَفْتَنَهُمْ ۖ ۞ (٨٣) ﴾ [يونس]
والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبين لنا أن الخوف ليس من
فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويق بمن حوله ، فمثلهم مثل زوَّار
الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يياثر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به زبانيته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم .

وقال الحق سبحانه هنا : ﴿ يَفْتَنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل : «يفتنوهم» ؛ ليدلنا على
ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون
التعذيب لشهوة عند الفرعون .

(١) من معانى الحرف (على) : الاستعلاء ؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ ۞ (٢٢) ﴾ [البقرة] . والظرفية ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ
أَهْلِهَا ۖ ۞ (٢٥) ﴾ [القصاص] أى : فى حين غفلة . والمصاحبة ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ۖ ۞ (١) ﴾ [الرعد] أى : مع ظلمهم ؛ ونحو قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ
مِسْكِينَ وَإِيمَانًا ۖ ۞ (٨) ﴾ [الإنسان] . أى : مع حبهم للمال . ومن معانيها أيضاً : أن تكون بمعنى (من)
نحو قوله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْ لِلنَّاسِ طَبَقَاتِهَا ۖ ۞ (١) ﴾ [الأنعام] أى : الذين إذا اكتفوا على الناس يستوفون (٢) ﴿ [المطففين] أى : من
الناس . ومن معانى (على) أيضاً : المجاوزة ، والتحليل ، والإضراب ، وأن تكون بمعنى الباء . انظر
تفصيل ذلك فى [التحوى الوافى] : (٥٠٩/٢ - ٥١٢) .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ؛ ليكون كل لفظ في القرآن جاذباً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا^(١) : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، وَمَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - وَكُتِمَ إِيمَانُهُ .

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى ؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً في الأرض ، مدعياً للالهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يחדش ادعائه للالهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم^(٢) ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفذوا ما أَرَادَهُ فرعون .

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَلَّتْهُمْ .. (٨٢)﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الأمر في قوله سبحانه وتعالى :

﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ .. (٨٣)﴾ [يونس]

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبي في تفسيره (٣٢٩٦ / ٤) وعلى هذا يكون الضمير في ﴿قَوْمَهُ﴾ عائداً على فرعون . وقد ذكر القرطبي قولاً آخر - ونسبه للفرأ - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون في نفس الوقت ، باعتبار أن الذرية أقوام آبائهم من القبط أي : آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل .

(٢) استحيا النساء : أي : تركهن أحياء . وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتبهم موسى ، فبطش فرعون بهم كان مستمراً ، ولذلك قالوا لموسى : ﴿قَالُوا أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا .. (١٣٩)﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبني إسرائيل قبل مجيء موسى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٢١)﴾ [القصص] .

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذي يقوم به أعوانه .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٢) [يونس]

والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود . وهو قد تجاوز في إسرافه وادّعى الألوهية .

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون :

﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٦٤) [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي .. ﴾ (٢٨) [القصص]

وعلا فرعون في الأرض علوً طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون :

﴿ أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِّصْرَ " وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي .. ﴾ (٥١) [الزخرف]

إذن : فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا

إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ (٨٤)

(١) المصّر : البلد العظيم ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبُوا مِصْرًا .. ﴾ (٥١) [البقرة] أي : بلاداً عظيماً كبيراً .
ومصر بغير تنوين هي بلادنا العزيزة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا مِرَآةَ .. ﴾ (٥١) [يوسف] [القاموس القويم] .

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : « إن جئت يوم السبت القادم قبيلتك فى المدرسة إن كان معك ولى أمرك ؟ ومجىء ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ^(١) (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام ^(٢) ، وقد ينفك مرة أخرى من

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فينبغي تلازم حقيقى ليلوغ المراد .
(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب ونصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٠٣) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجدد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ (٢٥)

[البقرة]

ونجده سبحانه يبين هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. ﴾ (١٤)

[الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتي الأمر الإلهي :

﴿ قُلْ لِمَ تَقُولُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

[الحجرات]

.. ﴾ (١٤)

أى : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. ﴾ (٨٤)

[يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه في كل أمر إلى مَنْ آمَنَ به ؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله في التكليف إلى الله في «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الآخر هو المقدم ؛ لأنه شرط في الشرط الأول ^(١) ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ^(٢)
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٣) ﴾

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْرٌ وَحْصَرُ الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ .. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥) [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : فتنن الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها . أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : ٤٨٩/٤ ، ٤٩٠] .

(٢) فتنة : موضع عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

(٣) لا نجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيفتنوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

الشوائب ، ونحن نعلم أن صنّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك .

والفتنة التي قالوا فيها :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

هي فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذّبتهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد .

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين ؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التّبع الحقيقي لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقي .

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ (٥٠)

[المتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ ﴾ (١٢٤)

[البقرة]

أي : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان ؛ لأنه أسوة ^(١) ، فلم يتم بعمل

(١) ابتلى : اختبر . بكلمات : بأوامر ونواه كلفه الله بها .

(٢) أسوة : قدوة حسنة .

إيماني بمظهر سطحي .

إذن : فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير في أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضللاً .

وجاء قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَفِتْنًا يَرْحِمُكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

وهنا توضيح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا في إيمان العدو ؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) .

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

وهكذا يعلم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُقق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوه بالشر ؛ لأن الذي يتعبك من عدوك هو شره ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (١٣) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدى النفع إليك ، وهذه من عميزات الإيمان أن نفعه يتعدى إلى الغير .

وهم حين دعوا ألا يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضح لنا أن الظلم درجات ، وأن فرعون وملاء كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ . . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق . وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدقته من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك ينتزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦) [يونس]

أى : اجعلنا بنجوة^(١) من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سبيل المياه ، حين تندفق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان فى ربوة عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦) [يونس]

(١) النجوة: المرتفع من الأرض . ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه يرى سالم . [المعجم الوسيط : مادة (ن ج و)] .

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. ﴾ (٨٧)

[الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الداء ، والرحمة هي ألا يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه

فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا يُبْغِضُ يَهُودُكُمْ
وَأَجْعَلُوا يُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٧)

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة

واحدة ، وأن الوحي قد جاء للثنين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعه يختار نبياً رسولاً ، فلما يختاره بتكوين وفطرة

تؤهله لحمل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخلق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبرؤا : اتخذوا جعلاً ، قبلة : مصلى يصلون فيه لتأمينوا من الخوف . وكان فرعون قد منعهم من الصلاة . أقيموا الصلاة : أتموها . وبشر المؤمنين : بالنصر والجنة . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

وذكر ابن كثير في تفسيره (٤٢٨/٢ ، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا أي : يتخذوا لقومهما بمصر يوتاً ، واختلف للفُسر في معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلُوا يُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) فمن ابن عباس : قال : أمروا أن يتخذوها مساجد . وعن إبراهيم النخعي قال : كانوا خائفين فأمرُوا أن يصلوا في بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيّقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا بِالصَّلَاةِ .. ﴾ (البقرة) . وقال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية : (قبلة) أي : يقابل بعضها بعضاً . [من تفسير ابن كثير . . بتصرف] .

ولا رَوِيَّةٌ " ، مثل الساعة التي تُؤدِّن ، أو المذيع الذي يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحي شمل كلا من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر ؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا : هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس ؟ أو ما إلى ذلك ؟ فهب أن فرعون المعنى هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك مجيء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالى ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوة وأكثر شحنة ضد هؤلاء القوم .

(١) الروية : النظر والتفكير فى الأمور ، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط : مادة (ر و ي)] .

وقول الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا^(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
يَبُوتًا^(٢) ۚ ۞ (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر »^(٣) وهي إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .
ونحن هنا في بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من
البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .
ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .
ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات في القاهرة : « محطة مصر » .
وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا^(٤) (٨٧) ﴾ [يونس]
نفهم منه أن التبوء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءة^(٥) ؛ أى : مرجعاً
ييوء الإنسان إليه .

التبوء - إذن - هو التوطن في مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن
له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

(١) تبوءاً : نزل وسكن .

(٢) ورد اسم « مصر » في القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَبُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ
مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفي قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ
(٢٢) ﴾ [يوسف] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾
[الزخرف] . أما قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ .. (٢٦) ﴾ [البقرة] فقد وقعت ليها كلمة
مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون الملم الأعجمي الذي يُمنع من الصرف
والتنوين ، فهي مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة : المكان الذي ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب : مادة (ب و أ) - بتصرف] .



ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوة ^(١) .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هى المتجّه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا يتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

(١) البيتوة : مصدر للفعل بات بيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ي ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ أَنْ تَبُوءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

والى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات^(١) اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حياً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى ..

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه، ويسمى باسم «حى اليهود». وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. ﴾ (٦١) [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفرعهم ؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا.

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) [يونس]

أى: أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة.

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربية بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات: جمع ساحة وهى الناحية من البيوت. وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى. وساحة الدار: باحتها. [اللسان مادة: س وح] ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَعَدَّيْنَا لِلْمُصَلِّينَ (١٢٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُسَلِّينَ (١٢٧) ﴾ [الصافات] أى: بالمحلة أو الديار التى يسكنونها.

(١) المتأكب: جمع متكب، وهو مجتمع عظم العضد والكف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].
 (٢) القبلة: الوجهة. قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلْيُوَلِّتْكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ خَطَرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ [البقرة: ١٤٤]، روى الجهة التي تتجه إليها في صلاتنا. ومعنى الآية هنا أن يتروا بيوتهم، مواجهة للقبلة. أو: اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير.

[يونس]

﴿ رَاقِبُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧) ﴾

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء^(١) لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونُزَكِّي - إن كان عندنا مال - مرة واحدة في السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العمر .

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيُزِدْ ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن مَنْ الذي اختار المكان في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلاحظ هنا أن الأمر بالتبوء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

وَيُنْهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

[يونس]

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وفي هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين .

ونلاحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتنبيه في التبوء ، وجاء بالجمع في جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد في نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل في الرسالة إلى بنى إسرائيل .

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْمَانُ بِهِمْ وَاللَّهُ وَهُمْ يَصْطُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُشْكُونَ وَلَكِنْ أَخْلَوْهُمْ لَا يُقِيمُونَ (٢٥) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى : التبشير بالجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

والزينة : هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لآى غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى العطش .

أما إن كان الطعام منوعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس التى لا تستر العورة فقط ، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسيج والتصميم والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه

(١) اطمس على أموالهم : قال ابن عباس ومجاهد : أى : أهلكها . وقال الضحاك وأخرون : جعلها لله حجارة منقوشة .

(٢) واشدد على قلوبهم : اطمس عليها . وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه ، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يرجى منهم شيء . [ذكره ابن كثير فى تفسيره : ٤٢٩/٢] .

(٣) رأى : نظريته كأبصر . ورأى بفكره وقلبه بمعنى : علم . ورأى : اعتقد . ورأى فى نومه رؤيا : حلم . والرؤيا : الحلم فى النوم . ورأى : هنا هى البصرية . أى : حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة .

بفاخر الرياش^(١) ، ولكن الضرورة فى النوم يكفى فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يقى من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال ، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب .

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتت فانت تعيد صَهْرَه ، فتستخلص ذهباً مُجمَعاً .

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يستخرجون الناس فى كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غريبة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون فى القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

(١) الرياش والريش : الخشب ، والملابس ، والمال ، والأثاث واللباس الحسن الفاخر . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَدِّي سَوَاءَ بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف] .

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجدد قناع «توت عنخ آمون» آية في الجمال ، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام ؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفي هذه الآية الكريمة بقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ ۚ ﴾ (٨٨)

[يونس]

وهم لم يضلُّوا فقط بل أرادوا أن يضلُّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووِزْر إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنتك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير . وقد ينزل هذا الابن ليشتري شيئاً غير مفيد ولا يشتري - مثلاً - كتباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هدَّته إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتي لبيان عاقبة الفعل .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجي موسى - عليه السلام - في طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى :

(١) أي : أن فرعون لم تكن علة النقاطة لموسى أن يكون عدوآ له بل ليتخذه ولداً ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها وفرعون ، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أي : أن ما حدث كان عكس ما كان يريد فرعون .

﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ﴾ (٧)

[القصر]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن خُطف أو قُفد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاءه في الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنجه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهي تجد ألف منازع لها في النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال ^(١) ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

﴿..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (٣٩)

[طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿.. إِنَّا رَافِدُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧)

[القصر]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل في مصر .

(٢) كان فرعون وزبائنه يذبحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوة التي قيلت من أن ولداً من بني إسرائيل سيقضي على فرعون . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصر] وقال تعالى : ﴿.. رَأَى فِرْعَوْنُ هَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصر] .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ (٣٩) فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ (٣٩) ۖ ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿ قُرْتُ عَيْنَ (٣) لِي وَلَكَ ۖ (٤) ۖ ﴾ [القصاص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قرّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هي العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى في كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصددّها : ﴿ لِيُضِلُّوْا ﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهِمُ الْمَالَ لِيُضِلُّوْا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالا وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

(١) التابوت : الصندوق الذي وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه في اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطئ النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرّة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس]

ومعنى الطمس أى : إخفاء المعالم ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ نُطْمِسَ^(١) وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ..﴾ (٤٧) [النساء]

ومعنى الطمس هنا : إخفاء معالم تلك الوجوه ؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينيْن أو أنف أو شفاه أو ذقن .

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء . ودعوة موسى - عليه السلام - هنا :

﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس]
أى : امسحها .

وقال بعض الرواة^(٢) أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً .

أو أن ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس]
أى : أذهبهما ؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع ، هى قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ .﴾ (٦٦) [يس] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ طَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ (٩٧) [القمر] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طَمَسَتْ﴾ (٨) [المرسلات] ، وقوله تعالى : ﴿آمَنُوا بِمَا نُزِّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا ..﴾ (٤٧) [النساء] ، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس] .

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي : صارت أموالهم وحرامهم حجارة منقوشة كهبتها مصحاحاً وثلاثاً وانصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد .

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أحكم يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم ؛ حتى يروا العذاب الأليم .

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يدع مثلهما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» ؟
والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ .. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَلَّمَ لَكَ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا .. ﴾ (٨٥) [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر^(١) وبين إيمان الاختيار^(٢) .

(١) القصر والقسر : الإجلال على كره . وت : قصرت نفسى على الشيء إذا حبستها عليه والزمتها إياه . انظر [لسان العرب مادة : قصر ، قسر] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (١٠٩) [الكهف] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُفْثَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَعَبَّدْهُ سَمِيحًا بَصِيرًا ﴾ (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرْنَا وَإِنَّمَا كَفَرْنَا ﴾ (١) [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان .

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان ^(١) . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١ ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله :

﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَهْرًا ۝٢٦ ﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام :

(١) قال تعالى : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩٠ ﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝٢٥ ﴾ [النازعات] وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ۝٢٥ ﴾ [القصر] جاء الآن عندما حايين الموت وآية الله على صدق موسى فطلق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يُأْتِيَهُمْ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ۝٩٢ ﴾ [الأنعام] .

(٢) دهمراً : أحداً . أى : استتصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلرحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة » . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ

سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

ويلاحظ أن الذي دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه :
﴿ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا .. ﴾ (٨٩) يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا
مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة في الرسالة لوجدنا موسى -
عليه السلام - هو الأصل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده " ، وإن نظرنا
إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعال واحد
منهما لشيء فلا بد أن ينفعال الآخر لنفس الشيء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع
أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء
نفسه ، أو أنه - أي : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً .

والدعاء معناه : أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ،
فأنت لا تدعو إلا في أمر عَزَزْتَ عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لي رباً أو من
به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطي
بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرته مَنْ
أمن به ، وهو المسبب الأعلى سبحانه .

ولذلك نجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطئ
البحر ، وكان من خلقهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : المعون
والمساعدة . قال تعالى : ﴿ مَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. ﴾ (٤٥) [الفصص] .

[الشعراء]

﴿.. إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١)﴾

فَرَدَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

[الشعراء]

﴿.. كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾

أى: لا ترتبوا الأمر بترتيب البشر ؛ لأن معى رب البشر ، فجاءه الإنقاذ:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ^(١) (٦٣)﴾

[الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر» ، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة.

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك ، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة: «يا سارية^(٢) الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب ، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر ؛ فانهاز إلى الجبل.

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زعيم الدثلى. أمره عمر بن الخطاب على جيش وسير إلى فارس سنة ٢٣ هـ ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد هموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية: الجبل ، الجبل» ورفع صوته فألفاه الله فى سمع سارية فانهاز بالناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة فى تميز الصحابة لابن حجر العسقلانى: ٥٢/٢ ، ٥٣].

ويقال في هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن اتصل بك هاتفياً، وهذا يعني أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصفائية؟ وفي أرقى درجاتها وهي النبوة؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمناً^(١)، والمؤمن هو أحد الداعيين، وما دام الحق سبحانه قد قبل دعوة موسى عليه السلام، فقد قبل أيضاً دعوة المؤمن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب، أما ميعاد إنجاز الطلب، فقد يتأجل بعض الوقت، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه، فحين دعا موسى، وأمن هارون، جاءت إجابة الدعاء: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا..﴾ (٨٩) بعد أربعين عاماً، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسما ليس وظيفة عند من يدعو، وتقبل أي دعاء، ولكن قبول الدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه؛ فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون منفذاً لدعاء ما، ولكته هو الذي يبدع مقاليد كل أمر، فإذا ما أجبت دعوة ما، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم؛ لأنها لو أجبت على الفور فقد تضر.

(١) التأمين: هو قولهم آمين وراء الداعي. ومنه التأمين في الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا^(١)﴾

[الاسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ^(٢)﴾

[الانباء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شرّاً ، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقية علينا ، وتعلم ما في صالحنا ؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ^(٣) بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ

[يونس]

أَجَلُهُمْ^(٤)..﴾

(١) عجلولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير ، وعلى العجلة في طلبه لنفسه ، ويلج في الدعاء ، حتى لو كان الأمر شرّاً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ..﴾ [الانباء]. وقال تعالى: ﴿أَتَنْهَى النَّاسَ أَنْ يَسْتَعْجِلُوهُ..﴾ (١) [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجللاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿اعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ..﴾ (٢) [الأعراف] وقال: ﴿وَمَا أَصْحَابُكَ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ (٣) [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن ، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه^(١)، ألا تسمع أمّا تدعو على ابنتها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم.

والولد قد يقول لأمه مغاضباً: يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى . فهب أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ قَدْ أَجَبْتَ دَعْوَتَكُمْ فاصْتَبِيَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

[يونس]

أى : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدخلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَفَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤٣)

(١) ثبت في صحيح مسلم النهى عن الدماء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سرت مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني ، وكان الناضح يعتقبه من الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناحه فركبه ثم بعث فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : « من هذا اللاعن بعيره » ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : « انزل عنه فلا تصحبته بجمعون » ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا ترافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم » أخرجه مسلم (٣٠٩٩) .

فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ ^(١) أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ^(٢) ﴿٤٦﴾

[هود]

أى : كُنْ مُؤَدِّباً مع ربك حين تدعو وتنفس عن نفسك ، ودعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجلة إلى حين أو أنها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَاكُهُ الْعِرْقُ قَالَ
ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِدِينِ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٣) ﴾ ﴿٤٧﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ .. ﴾ ^(١) لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : فلتصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلين قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبي في تفسيره (٣٣٦٦/٤) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. ﴾ ^(٢) [هود] . أى : إني أنهك عن هذا السؤال وأحذرك لتلا تكون من الجاهلين . أى : الأتمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم : اتبع أثرهم ؛ ليدركهم . وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً ، وتبعهم فرعون مصحباً في ألفي ألف وستمائة ألف . بغياً وعدوًّا : أى : في حال بغى وظلم واعتداه . وقال المفسرون : بغياً : طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، وعدوًّا في الفعل . أدركه الفرق : ناله ووصله . قال أمت : أى : صدقت ، والإيمان لا يرفع حيثذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس . [ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٠٤ / ٤) ، ٣٣٠٥] - يتصرف .

في اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٢) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق^(١) هو وسيلة السيولة ، وهي عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز .

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ . فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنْ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٤) ﴾ [الشعراء]

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوب أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية] .

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشئ الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ۖ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٤)

[الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ۖ ۝٩٠﴾

[يونس]

فهل كان هذا الإتياع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها ؟

لا ، لم تكن هذه نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتياع : ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا ۖ ۝٩٠﴾

[يونس]

أى : أنه اتباع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

ويعصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

(١) قال الأزهري : رهواً ساكناً من نعت موسى ، أى : على هيئتك . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقاء ساكنين فقال لموسى : دع البحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . [ذكره ابن منظور في اللسان ، مادة : رها] فقوله تعالى : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ۖ ۝٩٠﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليختروا فيترلو فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ .. ﴾ (٩٠) [يونس]

والإدراك : قصد للمدرك أن يلحق بالشئ ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شئ يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندي من الجنود ، وله عقل يفعل ؛ فيجربى إلى الأحداث :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١) [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (١٤) [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنتم بالله ثم استقم »^(١) . وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى .

لكن لو قلت - مثلاً : « آمنتم أنك رجل طيب » فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب :

﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (١٤) [الحجرات]

(١) وأنا من المسلمين ، أى : من الموحدين المسلمين بالانقياد والطاعة . وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان .

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنتم بالله ثم استقم » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤ / ٣٨٥) .

وهنا يأتى القول على لسان فرعون :

﴿ . آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ ﴾

[يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجبهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجبهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩١ ﴾

[يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ . الْكُفْرَ وَالْعَصْيَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩٢ ﴾



وهذا يعنى : أقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجبار وإيمان الاختيار ، أقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة^(١) بعيدة عن الشر الذى حاق^(٢) به .

(١) قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل . وقيل : ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثم قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه التذمة . ونظيره : ﴿ إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ . . ٩٠ ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم . والكلام هنا هو كلام القلب . [ذكره القرطبي فى تفسيره ١/ ٣٣٠] - بتصرف .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) حاق به الشيء يحيق حيقاً : نزل به ، وأحاط به . وقيل : الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فعله . قال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ٩٥ ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ . إِذْ كَانُوا يَمْخِذُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٩٦ ﴾ [الأحقاف] .

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الخلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبة للمعبود .

وهذه المحبوبة للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار^(١) .

إذن : فالردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافات التى ابتدعتها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى أمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَأَلَيْسَ لِنُجْجِكِ بِدَنَكِ لِتَكُونِ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۚ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ۝١٢﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا لَأَمَنَّ تَكْرَهُ النَّاسِ خَفِيَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

(١٢) [يونس] .

ونحن نعرف أن الإنسان مكوّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة.

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول : جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ۖ﴾ (٣٤) [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آناه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخر له الجن والرياح وعلمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿.. ثُمَّ أَنَابَ ۖ﴾ (٣٥) [ص]

أى : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُقاض عليه ، لا أمر نابع من ذاته .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددّها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ﴾ (٣٦) [يونس]

(١) أناب : رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .
(٢) تنجيك : نخرجك من البحر . بيدتك : بجسدك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلقتك . ببدنك . آية : عبرة ، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ البيهقي وابن السميع «تنجيك» بالخاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أن يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصر]

وبعض من باحثى التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حللوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحتطة تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعض كل إنسان ويرى كيف انتهزت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١) (١٠) ﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٢) (١٤) ﴾ [الفجر]

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد : لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥١٣] . وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يتد لكل من يقض عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه . وفى [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] الأوتاد : الجنود أو البانى القوة .

(٢) إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

ونلاحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظيفة «عزیز مصر» - أى : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ...﴾ (٥٠) [يوسف]

ولم يُكْتَشَفَ الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» في التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيده» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون «الفراعنة» إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنْهِى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿.. وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢) [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آيات غافلون : لا يفتتقون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات يتفجع بها الإنسان، أذن ميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَكَايِن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

[يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذي تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التي تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التي تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذي لاحظ أنه كلما غطس شيء في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

(١) كايِن من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة في الكون ،
وهم تميّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً^(١) من
المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي
تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها
بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

فكانهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس
ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛
فعلى الناس أن يسلموا ويقولوا : «آمنّا» ، لا أن يظفروا في حالة إعادة
للتجارب السابقة ؛ لأن ارتفاعات البشر في الأمور المادية قد توصلت ؛
لأن كل جيل من العلماء يأخذ بنتائج العلم التي توصل إليها من سبقوه ،
فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله
تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولوصل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، ويكسرهما ، ويضمهما) : الأصل . والأصيص : أصل الدَّن (إناء) أي : أسفله
ويقال : هو كهيئة الجر له عروتان يحمل فيه الطين . وفي الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو
نصف الجر أو الخاية تزرع فيه الرياحين . [لسان العرب : مادة (أ ص ص)] . وتطلق هذه الكلمة على
أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وكّد بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرّم ؟ وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعَامُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ^(١) ٩٣ ﴾

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهي تعنى الإقليم أو الوطن .
والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرى فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانيات الأسرة .

(١) بؤأنا: أنزلنا. مبوأ صدق: منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا: بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم . [تفسير الجلالين: ص ١٨٧ - بتصرفاً] .

إذن: فيوجد فرق بين تبوء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوء المواطن هو الوطن.

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿أَنْ تَبُوءَ الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧)﴾ [يونس]

هذا فى التبوء الخاص ، أما فى التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ .. (٩٢)﴾ [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. (١)﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مَبُوءًا صدق.

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نحمد الرسول ﷺ حينما سئل: أياكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم». وحين سئل: أياكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم». وحين سئل: أياكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»^(١).

(١) سبحانه الذى أسرى بعبد: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى عما يقول فيه المشركون . والإسراء والسرى: السير فى الليل . المسجد الأقصى: بيت المقدس . الذى باركنا حوله: لسانه فى معاشهم وأقواتهم . [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣١٣].

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطنه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلًا .

ولذلك فأنت تجدد في الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق ^(١) ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هي مَبُوءُ الصديق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ ^(٢) ﴾ (٨٠)

[الإسراء]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَشْرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ^(٣) .. (٧) ﴾ [يونس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلْ لِّيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ^(٤) ﴾ (٨٤) [الشعراء]

أى : اجعل لي ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصديق فهي سوابق الخير التي يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصديق هو ما يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ^(٥) ﴾ (٥٥) [القمر]

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي : الزنا ، والقذف ، والمسرقة ، والسُّكْر ، وللحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة للمجتمع من نواحي : الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا في كتب الفقه (أبواب الحدود).

(٢) وقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ ، أى : ادخلني المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره . وأخرجني : من مكة مخرج صدق : إخراجاً لا ألتفت بقلبي إليها . [تفسير الجلالين : ص ٢٥١].

(٣) قدم صدق : سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٤) لسان صدق : ثناء حسناً وذكرأ جميلاً . [كلمات القرآن].

(٥) مقعد صدق : مكان مرضى . [كلمات القرآن]. عند ملك : ذي مُلْك . مقتدر : على كل ما يشاء ، لا إله إلا هو . [مختصر تفسير الطبري : ص ٦٠٧].

وهو مقعد عند ملك لا يسخل ، ولا يجلس فى رحابه إلا من يحبه ،
ولا يضمن بخيره على من هم فى رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ،
وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن برأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مُبَوَّأ صدق ، فى مصر والشام ،
وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ^(٦١) ۝ ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ^(٦٢) ۝ ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ^(٦٣) ۝ ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ،
ومنهم من ترقب مسجىء النبى ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى فى
الطغيان ؛ لذلك قطعهم الله - سبحانه - فى الأرض أمتاً .

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآنى نجد أنه يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم
فى كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذنبهم فى الشعوب . بل
لهم فى كل بلد ذهبوا إليه مكان خاص بهم ، ولا يذوبون فى غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ^(٦٤) لِبَنِي إِسْرَءِيلَ امْكُنُوا الْأَرْضَ ^(٦٥) ۝ ﴾ [الإسراء]

(١) اهبطوا: انزلوا. مصرًا: من الأمصار ، أى : بلدًا من البلاد.

(٢) من بعده: أى من بعد إفراق فرعون .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦١٩٢

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن في غير الأرض؟

ونقول: لنا أن نلاحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم في أية بقعة من الأرض يسكنون، فكان الحق سبحانه قد بين ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع في الأرض أماً؛ فهو سبحانه القاتل:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا^(١).. (١٦٨)﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم في أيماننا هذه وقد صار لهم وطن، فاعلم أن الحق سبحانه هو القاتل:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَثِيرًا^(٢)﴾ [الإسراء]

وقد قال في آخر سورة الإسراء:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا^(٣)﴾ (١٠٤) [الإسراء]

والمجىء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم في وطن قومي لتأتى لهم الضربة القاصمة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله:

﴿.. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا^(٤)﴾ (٧) [الإسراء]

(١) أي: فرقناهم في الأرض فرقا. [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أي: إذا أتتكم الكرة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم، أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ.. (٧)﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. (٧)﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿.. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)﴾ أي: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. يتصرف من تفسير ابن كثير (٢٦/٣) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وهذا لا يفي أن يحدث عدة مرات، ولذلك قال رب العزة: ﴿وَأَن مِّنْ عِندِنَا.. (٨)﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

وحين نظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا في يثرب صار لهم الجاه : لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هي المهجر لنبي ورسول يأتي من العرب في آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : «لقد أظل زمان يأتي فيه نبي نتبعه ، ونقتلكم فيه قتل عاد وادم»^(١) .

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية .

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۖ ۝ (٩٣)﴾ [يونس]

أى : أن علمهم بمجيء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فأمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

(١) قال الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَعَنُوا لِمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۚ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ (٨٥)﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرأ في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فتقتلكم معه قتل عاد وادم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعدوا المشركين من قريش . وما إن أهل الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج : إنه النبي الذي توعدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبqهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكان اليهود هم الذين تسببوا في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لتعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في اختلافهم يأتي عبد الله بن سلام ^(١) إلى رسول الله ﷺ ويقول : إن اليهود قوم بُهتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله فيقولون في ما يسيء إلى ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامي أسألهم عنى .

وكان ابن سلام في ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي ﷺ وقال : ما تقولون في ابن سلام ؟

قالوا : حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثروا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السباب ، فقال ابن سلام : ألم أقبل لك يا

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبي ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابة . ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلى ٩٠ / ٤) .

رسول الله إنهم قوم بُهت^(١) ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿لَمَّا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣)﴾ [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾

[يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقُوا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلاحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرني به جبريل أنفأ . قال ابن سلام : ذلك عذر اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحترق من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامي . فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبي ﷺ : أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاده الله من ذلك . فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٢٨) وأحمد فى مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصي .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾^(١)

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ،
وحين وعده أهله بالسيادة قال :

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

(١) يخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها : ﴿ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ لِيَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبي ٤ / ٢٢١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك : من أهل التوراة والإنجيل ، كمحمد ﷺ بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية - قال : «ما أشك ولا أسأل» . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فبرئى - من البر - أى : كن باراً بى . وهو لا يشك فى أنه ابنه . من الممترين : الشاكين . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٢١] .

(٣) امترى فى الشيء : شك فيه ولم يستيقن . ومارى القوم به : تجادلوا . ومارى فى الشيء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ [النجم] أى : تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس المشهور] وراجع : لسان العرب مادة [مري] .

هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته «^(١) .

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمّر خطاب الأمة في خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا^(٢) عن أى أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنتين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيه من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفذ كل ما يؤمر به بدقة^(٣) ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة لنا ، وإنا قد استهينك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وهيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننزله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبى عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستكاف : الامتناع تكبراً وأنفة . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٤) ﴾ [النساء] .

(٣) ومصدق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلِلَّذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ نَفْسُ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ .. (٥٥) ﴾ [الشورى] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد»^(١) .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوب في التوراة^(٢) من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة ،

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أنعرف محمداً كما تعرف وللك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَبَائِلَ وَيُحْيِي عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْهُ أُولَئِكَ هُمُ السَّافِحُونَ ﴾ (١٠٥) [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَحَرْزاً لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمِيتُكَ : الْمُتَوَكِّلَ ، لَسْتُ بِفَعْلٍ وَلَا غَلِيطٍ وَلَا مَخَابٍ بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيْئَةَ بِالسَّيْئَةِ ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ ، وَلَنْ نَقْبِضَهُ حَتَّى نَقِيمَ بِهِ أُمَّةً الْعُوجَاءَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عَمِيًّا ، وَأَذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ (٨/ ٥٨٥ فتح) واليهيقي في الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقق الدقيق أن يقلب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

[يونس]

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ .. (٩٤) ﴾

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

[يونس]

﴿ .. فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ (٩٤) ﴾

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجه إلى الأمة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

[الزمر]

﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك .. (٦٥) ﴾

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المتزعة عنها رسول الله ﷺ خاصة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليبطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجه إلى الخير قد يأتي بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرّسك جيداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإغراء الخير ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيَّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجَمَا حَسَنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ^(١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ
فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتلقت هذه الآيات إلى بديع صنعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته .

وكذلك يقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى .

(١) الأضداد : في ظهورها تظهر مميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلا إذا تدرّقنا مرارة الباطل . ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل في إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم .

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .

وهم كانوا يكذبون بكل الآيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴾ (٩٤)

[يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيّا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم في أمته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم^(١) .

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إن كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسمع له لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه عليّ .

ألم يَرِدْ في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحض من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهْلُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٤٠)

[سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ .. لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦)

[التحریم]

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ قَاسِمًا ﴾ (٢١٣) [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم سبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ .. (١١٦) ﴾ [ب]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسمع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك ^(١) - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفس وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وهماً وافتراء وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط ^(٢) .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضمُّ شيء إلى شيء ، ومنه الشكائك ^(٣) ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفي ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .

(٢) شك الشيء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٣) الشكائك : جمع شككة ، وهى مجموعة أشياء شك - أى ضم - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح» أي: الذي ضمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفي النسب تضم النفي والإثبات معاً ، لأنك غير قادر على أن ترجع أحدهما .

وكل خطاب في الشك يأتي على هذا اللون .

والآية التي نحن بصددتها تقول :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعني : إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بآله ، أو يؤمنون بآله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بآله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

والذي يؤيد هذا وجود آية في آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ (١٠٤) ﴾

[يونس]

(١) الشُّكَّة : ما يحمل أو يلبس من السلاح . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٢) دون : نقيض فوق ، وتكون ظرفاً ، وتأتي بمعنى أمام ، وبمعنى وراء ، وبمعنى غير ، وبمعنى قرب أو جهة ، وبمعنى قبل ، وبمعنى أقل . والتمييز بين هذه المعاني يكون بالقرائن . وهي في الآية ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ وَأَمَرْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤) [يونس] بمعنى (غير) . [القاموس القويم] بتصرف .

فكان الخطاب المقصود منه الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾



وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم علماً أزلياً بأنهم لن يُوجهوا اختيارهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم .

وحُكمه سبحانه مبنًى على الاختيار ، وهو حكم تقديرى .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يأتى وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضى المزروعة قطعاً ، وبالتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بأفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففي المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطئ ؛ لأن الإنسان يُقدّر بغير علم مُطلق ، بل بعلم نسبى .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى ، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدره .

(١) حقت : وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهري ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّرَ من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره، وهذه هي عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبي لهب^(١)، فقد نزل فيه قرآن يُتلى:

﴿ تَبَّتْ^(٢) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(٣) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ^(٤) ﴾

[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة، لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عني إنني سأصلّي^(٥) النار، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب، فقد علم الله أولاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمر بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدَّرُ البشر التقدير، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التي ذُكر فيها، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريش فقال: أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(١) ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبَّتْ: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيُصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^(٤) ﴾ [المسد] أي: سيُشوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونياً أزلياً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدَّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه تابع من علمه الأزلى ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا (١) إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٢٧) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٢) أَوْ تُكْرِنَ لَكَ جُنَّةً مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبَ فَضْجِرَ الْأَنْهَارِ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (١١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

(١) الرجس : القذر والتن حسيّاً ومعنوياً ويطلق على ما يستجيب في الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّجْسٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَغَضِبَ (٧٥) ﴾ [الأعراف] أي : عذاب بسبب الرجس الذي اقترفوه [القاموس القويم] يتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا يفتحهم حيثئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) ينبوع : العين التي لا ينضب مائها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا^(٢) أَوْ يَكُونُ لَكَ
بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ^(٣) أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْنَا
كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ مَسْبُحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(٤) ﴿٩٣﴾ [الإسراء]

وكان الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لست أنا الذي يُنزل
الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم
تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ [الإسراء]

إذن : فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة والمعارضة ، ويقابل
قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه .

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون
مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا
الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في الوجدانية ، وكلاماً
في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

(١) كسفاً : قطعاً . والكسف : السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَخْطِفُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقُ يَخْرُجُ
مِنْ خَلَالِهِ .. ﴾ [الروم] .

(٢) قبيلاً : متقابلين . والمراد (يتهم عياناً) .

(٣) الزخرف هنا : هو الذهب . والزخرف : الزينة . وقد يقصد به التمويه والتزوير وتزيين الكذب ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِسٍ عَذَابًا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا
.. ﴾ [الأنعام] .

(٤) ينسوعاً : عياناً تنبع لنا بالماء بيلدا هذا . جنة : بستان . فتشجر الأنهار : بأرضنا هذه التي نحن بها .
خلالها : يعني : خلال النخيل والكروم . وخلالها : بينها في أصولها . تفجيراً : ميلاً يسيل بينها .
كسفاً قطعاً . قبيلاً : مقابلة أو جميعاً ، فتعينهم معاينة . زخرف : ذهب . ترفى . تصعد في درج إلى
السماء . [مختصر تفسير الطبري : ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف .

وقصّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصل قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب ^(١) ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسائل : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيَت السورة باسمه .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمّس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود ، وشمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلّى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض مواكب الرسالة ومواكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمَنَ به .

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر .

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفادته . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقال . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف .

إذن: فَمَنْ ذَكَرَ هُنَا مِنَ الرُّسُلِ كَانَ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالمَاءِ ، أَمَا بَقِيَّةُ المَرْكَبِ الرِّسَالِي فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ عِلَاقَةٌ بِالمَاءِ .

ونحن نعرف أن الماء به الحياة ، وبه الإهلاك ؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشئ ، ويهلك بالشئ نفسه . وكأن الحق سبحانه يبين لنا الحكمة : أنا أهلكم بالغرق هناك ، ونجيتكم من الغرق هنا .

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هي المستولية على هذه السورة ، كما تظهر طلاقة القدرة في مجالات أخرى ، وبألوان أخرى^(١) .

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس ؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف^(٢) ، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثنىها الحق سبحانه من الإهلاك ، فقد أغرق قوم نوح ، وأغرق قوم فرعون ؛ فكلاهما قد كذب الرسل ، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس^(٣) آمنوا فألجأهم الله سبحانه .

وسُمِّيت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب ، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب ، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشئ في خدمة مثل النار ، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً . والماء به الحياة وبه الغرق ، وبه النجاة ؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ وَرَأَيْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (١١٢) ﴿ الصافات ﴾ وهم من قرية فينرى جهة الموصل بالعراق الحالية .

(٣) البأس : العذاب . يقول تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسًا . . ﴾ (٤٨) ﴿ الأنعام ﴾ ، ويقول : ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بَاسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (٤) ﴿ الأعراف ﴾ . والبأس : شدة الحرب ، يقول تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَاسِ وَالصَّرَافِ وَحِينَ الْبَاسِ . . ﴾ (٧٧) ﴿ البقرة ﴾ . والبأس : القوة . يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم في أمر سليمان : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَاسًا فَهَبْ . . ﴾ (٣٢) ﴿ النمل ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَعَنَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾^(١)

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فقبل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فمن وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يقبل منه ، ومن أحسن واستشف بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لأتيناك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : «أداة تحضيض وحث» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴾^(٢٧) [التوبة]

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويختلف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع مفعول [القاموس القريم] .

(٢) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ .. ﴾^(١٨) : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فتصمها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ .. ﴾^(١٩) قبل : إنهم لما أظلمهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، فذف الله في قلوبهم التوبة ، وفرقوا بين كل أنثى وولدها ، وعجوا - أي : رفعوا أصواتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب . ﴿ .. وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾^(٢٠) : لم نعالجهم بالعقوبة ، واستمتعوا بأجالتهم في الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم . [مختصر تفسير الطبري : ص ٢٤١ ، ٢٤٢] .

أى : أنه كان يجب أن يفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ .. (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب .

إذن : فقوم يونس هنا مُسْتَحْتُونَ ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب .

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٠٣) لَنَبِذَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٤) ﴾ [الصفات]

أى : أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح .

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

(١) المسحون : هم الصالحون لله تعالى ، قبل البلاء والمعقوبة التي نزلت به . وفيل : المسبحون : هم الذَّاكِرُونَ ، بقوله كثيراً فى بطن الحوت : ﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] .

﴿ .. لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٤) ﴾ [الصفات] : لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة . [مختصر تفسير الطبرى ، وتفسير الجلالين] .

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى : مكاناً مُهيئاً ، أهله متوطنون فيه ،
فإذا ما مرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قرياً^(١) أى : وجبة طعام .
ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد» ، وهؤلاء من
يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس
عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفىهم ويكفى الزائر لمرة واحدة .
وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»^(٢) ؛ لأن كل القرى تزورها .

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبي ﷺ فى قصة
الذهاب للطائف ، وهى قرية العبد الصالح يونس بن متى^(٣) ، وهى فى

(١) القرى: هو طعام الضيفان . والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر ، مكة ، الطائف ،
نينوى ، وغيرها مما أشار إليه القرآن . فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٢٧ مرة) غير المتى منها
(١١) والجمع (١٩) مرة .

(٢) قال عنها الحق سبحانه : ﴿ وهذا ككتاب أنزلناه مبارك مصفى الذى بين يديه ولتندبر أم القسوى ومن
حولها .. (٩٨) ﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآننا عربياً لنندبر أم القري ومن حولها .. (١٧) ﴾
[الشورى] .

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعبه وشية ابنى ربيعة يقال له عداس ، فعندما هم رسول
الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال : باسم الله . ثم أكل ، فظفر عداس فى وجهه ، ثم قال : والله إن
هذا الكلام ما يقرله أهل هذه البلاد . فقال له ﷺ : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟
قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن
متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذلك اثنى ، كان نبياً وأنا
نبي ، فأكتب عداس على رسول الله ﷺ يُقبَل رأسه ويديه وقدميه . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية
(١/ ٢٢١) .

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿وَذَا النُّونِ ۖ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا ۖ﴾ (٨٧) [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة» .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَذَا النُّونِ ۖ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء]

وسمى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحيوت الذى ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجرى إنما يجرى ليقوم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل .

(١) النون : الحوت . و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى : صاحب . أى : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام .

وأبو الطيب المتنبي^(١) يقول في هذا المعنى :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا
أَلَّا تُغَادِرَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ
أَي : إِنْ كُنْتَ تَعِيشُ مَعَ قَوْمٍ ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَفَارِقَهُمْ وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ تَعِيشَ
مَعَهُمْ ، فَالَّذِي رَحَلَ حَقِيقَةً هُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :

﴿ فَظَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ .. ﴾ (٨٧) [الأنبياء]

أَي : أَنَّهُ رَجَّحَ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةَ ،
وَسَيَهَيِّءُ لَهُ مَكَاناً آخَرَ غَيْرَ مَكَانِ الْمِائَةِ الْأَلْفِ أَوْ يَزِيدُونَ الَّذِينَ بَعَثَهُ اللَّهُ
تَعَالَى إِلَيْهِمْ .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا
الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة
تُحَفِظُ^(٢) وتَمَلُّ القلب بالألم والتعب ..

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التي أرسل إليها يونس عليه السلام هي قرية «نينوى» ، وهي
التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي ﷺ والغلام النصراني «عداس»
الذي قابله ﷺ في طريق عودته من الطائف .

(١) هو : أحمد بن الحسين المتنبي ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل في
البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفي مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١
عاماً (الأعلام للزركلي ١/ ١١٥) .

(٢) تحفظ : تنصب . والحفيظة : الغضب . ويقال : إن الحفائظ تلعب الأحقاد : أي : إذا رأيت جميعك
يُظَلَمُ حيث له ، وإن كان عليه في قلبك حقد . [اللسان مادة حفظ] .

وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصره بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد النصير^(١) ، وجلس النبي ﷺ قريباً من حائط بستان .

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقي من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عدّاس ، فقالا له : خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك؟» . قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى» ؛ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن مَتَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي» ، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّلُ رأسه ويديه وقدميه .

ولما سأل صاحبا البستان عدّاساً عن صنيعة هذا . قال لهما : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي^(٢) .

(١) لما يش رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين أدروه وأذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصره «ثقيف» وكلهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وأجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة . ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه . وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك . أو يحل عليّ سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . [السيرة النبوية لابن هشام : ٤١٩/٢ ، ٤٢٠] . . بتصرف .

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة في السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/٢ - ٤٢١) .

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب الله لهم^(١) ؛ فَهَرَعُوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هي بؤادر العذاب ، وقالوا لهم: عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فأمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة .

وهَرَعَ الناس إلى الإيمان بالحقى الذى لا يموت ، الحقى حين لا حى ، والقيوم والمحيى والمميت .

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان يتقضى ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جدار له^(٢) .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٣) وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

حِينَ (٩٨) ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) .

(٢) نقله القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود .

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدنوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين :

• الأول : إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة .

• والثانى : كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٠٧) فَأَمَّنُوا فَمَزَّجْنَاهُمْ إِلَى حِينَ (١٠٨) ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان متقدّم من

العذاب الأخرى ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)] .

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الفرق
بركابها ؛ فألقوا الأمتعة في البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر
اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوقعت
القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن
الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى
العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خلُقاً ،
لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين .

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن
تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن يتزل إلى البحر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾^(١) (١٤١)

[الصفحات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه^(٢) الحوت وابتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن
الحوت :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (١٤٣) ﴿ تَلْبِثُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
يُغْثُونَ ﴾ (١٤٤)

[الصفحات]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق سبحانه :

(١) ساهم . قارع ، أى : اشترك في الاقتراع . المدحضين : المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه . [ابن كثير
٢٠ / ٤ - بتصرفه] .

(٢) التقمه : ابتلعه في سرعة . قال سبحانه : ﴿ فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (١٤٣) [الصفحات] ، والمليم : هو
من أتى ذنباً بلام عليه .

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ (٩٨) [يونس]

وعذاب الخزي في الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجَسِّدًا فيمن افترى وتكبر على الناس ، ثم يراه الناس في هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزي في الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخزى وأشدُّ .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَنَعَّمْنَا إِلَىٰ جِئِ ۖ ﴾ (٩٨) [يونس]

أى : أنهم نَجَّوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ (٩٩)

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبي مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنْزِلَ الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

(١) تُكْذِرُ النَّاسَ : تلزمهم وتلجنهم . أى : ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضِلُّ من يشاء ويهْدِي من يشاء . كما قال تعالى في ذلك : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ ﴾ (١١٤) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٥) . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ عَذَابُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (١٢٧) [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (١٢٨) [القصص] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادي من يشاء ، المضل لمن يشاء ، لحلمه وحكمته وعدله - سبحانه . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٣٣] بتصريف .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزلي بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

ولذلك يُسمَّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حيٌّ ، ومُحيٍّ ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف به «مُحيٍّ» بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍّ ، وبهذه الصفة أحياء .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه : قد نرى المصور أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَقَ الخلق .

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا يتفجع من خلقه بل هو الذي ينفعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن^(١)

(١) وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] .

وأما بقية الكون فمُسَبِّحٌ^(١) مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكل نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يشب له القدرة ولا يشب له المحبوبة .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يشب له المحبوبة إن جشته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسَبِّحٌ له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۖ ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

وهذا ليس تسبيح^(٢) دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۖ ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

فإن فقهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ الْمَسْنُونُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۖ ﴾ (٤١) [الإسراء] . ويقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ ﴾ [الحشر] .

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلاحظه يقيناً فى حركة الجحش وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ، فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢٤) [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والمعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسها قلب .

عَلَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ (١) ، وَسَمِعَ النَّمْلَةُ تَقُولُ :

﴿ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[النمل]

وَالْهَدَّهْدُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا رَأَيْتُ عَنْ بَلْقَيْسَ مَلَكَةً سَبَّأً :

﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٤)

[النمل]

إِذَنْ : فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَبَّحٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، يَسِيرُ عَلَى مَنْهَجِهِ
سَبْحَانَهُ مَا عَدَا الْمُخْتَارَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ : الْإِنْسَانَ وَالْجَانَّ ؛ لِأَنَّ كُلَّاهُمَا فِيهِ
عَقْلٌ ، وَلَهُ مِيزَةُ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْبَدَائِلِ .

وَمِنْ عَظَمَةِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارَ حَتَّى يَذْهَبَ
الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ اخْتِيَاراً ، وَلَوْ شَاءَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُجْبِرَ الْإِنْسَانَ عَلَى
الْإِيمَانِ لَفَعَلَ .

أَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ : وَلِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنْ خَلْقٍ وَإِرْسَالِ
رُسُلٍ ، وَتَكْذِيبِ أَنْاسٍ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ ؟

وَلِلذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩)

[يونس]

(١) قَرَّبَ الْعِزَّةُ سَبْحَانَهُ يَقُولُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمَنَا مَنْطِقَ
الطَّيْرِ وَأَوْثِقْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَعْلُ الْمَعْنَى ﴾ [النمل] .

إذن : فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ^(١) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ محباً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فنبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلف نفسه شططاً^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حق الاختيار وسخر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيرة إن وجد من يعارض فيها فهذا ما شاء الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإن غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتخلّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) باخِع : أى : مهلك نفسك ، أى : مما تحرم وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسليية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَنْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ خُسْرًا .. (٥٨)﴾ [فاطر] . وكفره سبحانه : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ .. (٣)﴾ [الكهف] .

قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخِع نفسك : أى : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

إلا أيها الباخِعُ الحزَنُ نفسه
لشيءٍ نَحَنُّه عن يديه المقادِرُ

[ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣١)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القدر في كل شيء ، والمقصود : لا تنظم نفسك ، ولا تتجاوز الحد في الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللئيمين طلباً لحكم داود بينهما ، فقال له : ﴿و... فاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاعْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الْعَرَابِ (٦٢)﴾ [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَفَعَلَ
الرَّجْسُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٠)

هكذا يُبَيِّنُ لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛
لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك فطرة نتيجة تفكير في سماء ذات
أبراج ^(١) ، وأرض ذات فجاج ^(٢) ، وبحار تزخر ^(٣) ، ورياح تصفر ، كل
ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه .

لكن أترك الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

(١) الرجس : الخبال والفساد . [بين كثير ٤٣٣ / ٢] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استغذر
من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسماها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب
كالرجز ، وهو المأثم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٢٤) [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان
العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآتَاهُ جَعْلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا
(١٠٠) لَسَلَكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فَجَاجًا ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا
فَجَاجًا سَبِيلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٦) [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أى : كثير ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لغير أو حارب . [لسان العرب ،
مادة : زخر] وهذه الجملة من خطبة خطبها قس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية ، كان أولها : « أيها
الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » انظر : البيان والشيء -
للجاحظ (٣٠٨ / ١) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكروهم بالآيات الموجودة في الكون ، وليتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكان الحق سبحانه يُبين لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن ملكي إلا بإرادتي ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبة .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً علِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةً باتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدل لى حياتى ، فلا بد أن أرهف^(١) له السمع .

وساعة يُقبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان .

إن العبد متى إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدخلوه . وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد . والرهافة فى اللغة : الرقة واللفظ . [اللسان : مادة رهف] .

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاقٍ .

أما إذا دقَّ بابُه عبدٌ آخر ، فتجده يأمر معاونه أن يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورجبة فى صدق اللقاء والمودة .

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملا خير منه» .

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .

إذن : أقبلُ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إن ذكرت الله فى نفسك ، فالله يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملا ذكرك فى ملا خير منه ، فالملا الذى ستذكره فيه ملا خطاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك فى ملا طاهر .

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى ^(١) : «إن تقربَ إلىَّ شبراً تقربتَ إليه ذراعاً» .

والذراع أطول من الشبر .

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيتُه هرولة» .

فالمشى قد يتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إن يعلم أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وقامه : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله ، لله أفرح بنوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهراً» .

سُورَةُ التَّوْنِيسِ

٦٢٢٧

شئ ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق ، وهو الحق القائل :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧) [محمد]

ونلاحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض جميعاً ؛ ليبين لنا أنه حتى إبليس الذي دخل في جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ ليُحكِمَ الأمرَ حول كل خلقه ومخلوقاته ، فلا يشك منهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿.. أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١٩) [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّهَ رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ۖ ﴾ (٢٥٦) [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قلباً أن تستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب^(١) .

وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألا يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم . والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكراهة ، والقوالب مادة تمسير حسب الإدراك الذي انفعَل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، رُيَسِي (التزوع) .

لا يصلى فينهره صديقه ، فيرد : لا إكراه فى الدين . وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطيء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى .

ولكن من أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإن أخل بحكم من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخص القضية العقدية الأولى ، وأنت حر فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإن دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرت محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرهما ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرق ؛ تُقطع يدك ، وإن زنى تُرجم أو تُجلد^(١) ، وإن شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلت قواعد الإسلام وشريعته .

وإن رأى واحد مسلماً يسرق ، فلا يقولون إن الإسلام يُسرق ، ولكن إن رآه يُعاقب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب من يجرم .

إذن : ف ﴿ لا إكراه فى الدين ٢٥٦ ﴾ [البقرة]

تخصر المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إن خرجت على الحدود .

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا^(٢) عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ،

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد . أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج . أما الجلد مائة فهو لعير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : **مَنْ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤) ﴿ [النور] .**

(٢) استهموا : اقترعوا .

فكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو آتّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركبوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً^(١) .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب عن دخل الدين دون إكراه ، وإن خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشد من ذلك ، وهو حكم من ارتد عن الإسلام ، وهو القتل^(٢) .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إن آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلم أنك إن دخلت على الدين ثم تخلّيت عنه فسوف تُقتل ، وفي هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيماني ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس]

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٤) والترمذي في مسنده (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه » . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد في مسنده (٢١٧/١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه في سننه (٢٥٣٥) .
- وقد قال رسول الله ﷺ في حديث آخر عن ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأثنى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمبارق لذية التارك للجماعة » . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوًى ؛ لا بُدَّ أن ينتهى العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّةَ^(١) ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظنون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تنجهِ إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادئ الإسلام ، وفرّقوا بين مبادئ الدين ، وبين الممتنعين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرَّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذن من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ۖ ﴾ (٢٨)

[المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا^(٢) ،

(١) الغلّة فى اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفة ودرسه كأنظماً يطلب الماء .
(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢٤) [الإسراء] . ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَا عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١) والذين يرمون المحصنات فَمَنْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٢٢) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) [النور] .

وغير ذلك من الجرائم التي جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكّر العقاب الذي أوقعه الإسلام على السارق ، وإن رأيت مسلماً يزني ، فتذكّر العقوبة التي حددها الحق سبحانه للزاني .

وهكذا الحال في جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالمين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادئ الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادئ الدين الحنيف .

وما هو ذا «جينو» المفكر الفرنسي يقول : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنت قد عرفت المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام » .

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو منَاطُ التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفي الرجس ؛ لأنهم سيقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألني سائل : ما هو العقل ؟ وما هو منَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقّال البعير ، وهو ما يُشدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن ينهضه فهو يفكّ العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (عُثْرَة) ويشبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطَيِّرَه .

إذن : فالعقل أرادَه الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى في تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل .

فحين يفكر الإنسان في تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك ؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أرادَه الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التي فيها هوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبتها "متعبة" .

ويخطيء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مشول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل .

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتَوِفٍ للملكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إغجاب مثل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طعمها مقبولا مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

(١) غِبَا الأمر مَفْبُتُهُ : عاقبته وآخره . [لسان العرب : مادة (غ ب ب)] .

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لبها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذي صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللب وتزرعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يزن السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للماعقل البالغ غير المكره بقوة تقهره على أن يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدريبه على الطاعة .

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١) .

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكرِّمه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقول له : إن لم تشرب الخمر أطلقت عليك النار ، فهذا يرفع عنه التكليف .

ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ ، والنسيان ، وما استُكْرِهوا عليه»^(٢) .

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرْشاً أو غيرها .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) ، وأبو نادر في مسنده (٢٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٠٤٥) والدارقطني في مسنده (١٧٠/٤) والحاكم في المستدرک (١٩٨/٢) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع .

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل في كل شيء ، ففي الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطي الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أَكْثَلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذي يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذي يدفع إلى التأنى والإجادة في العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمريء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى في مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠١)

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم الملِك الذي تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا في السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على الوهية لله ووحديته ، والآية تفيد عموم النظر في ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أي : عمن سبق له في علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبي : ٣٣١٤ / ٤] - بتصرف .

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صنّعه في السماء والكواكب ، وأعجبت بدقة نظام سير تلك الكواكب.

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقة المنظّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاذ وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١٠)

[بس]

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمّم التلغراف ، ومصمّم جهاز التليفزيون ، فما بالنّا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى فى المجرات الأولى ، وكل مجرة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

- (١) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حينئذٍ يُلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دأبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجوم والكواكب ؛ فكانها نسيج فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٥٧٣ / ٣] بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس^(١) ، وقال عن كوكب الشعري :

[النجم]

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾^(٢) (٤٩)

لأن كوكب الشعري أكبر من الشمس .

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبلاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهَش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هش^٣ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات براءة الحديد ، وتتخلل الأرض التي شققتها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرين^(٤) في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخصب الذي نأخذ منه الأقوات^(٥) .

ولو أن الجبال كلها كانت هشة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه في سورة الشمس : ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١)﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس في كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعري) إنه هو النجم الرقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه في الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٢٥٩ / ٤] .

(٣) الغرين : ما بقى في أسفل الخوض والغدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعي : الغرين أن يجيء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)] .

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى .

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة ؛
ليحمل الخصب إلى الأرض .

ومن يتأمل هندسة التكوين في الاقليات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات
لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد في تجهيل الحياة ، وتجدد الحديد
مخزوناً في الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ،
أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور^(١) في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ،
أو وسيلة للترف فوق الاقتيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصب من الطبقة الهشة^(٢) على
سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للناس ، ففي إفريقيا مثلاً توجد
مناجم للفحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن
جذور أشجار .

وانت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض
الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية في الخير مع القطاع
المقابل للقطاع الأول .

(١) طمر الشيء : خبأه . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطمر : إذا تقيَّب واستخفى ، والمراد : خيرات
الله المخفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور .

(٢) والشيء الهش القير متماسك ، وهشم الشيء اليابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ .. كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ

(٣١) ﴿ [القمر] أى : كالخشب والحشب المحطم في يد المحتظر . أى : صانع الخطيرة [القاموس القويم

ص ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترو) في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تم حديثاً .

وكل قوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمن للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه . وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في مجال النظر في السموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادي يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفل ، ورأس الجبل في قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمر برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادي الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملا مساحة الوادي المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقليات .

ومثال ذلك تجده في الغرين القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادي النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ،
يكتشفها الإنسان ويُعمل عقله في استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبق المؤمن حكماً تكليفاً
مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .

وليُجربُ أى مسلم هذه التجربة " ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً في ضوء
منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يزن نفسه ويُقيّمها ليعرف الفارق بين أول
الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلى في
مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه
يصرف ماله في حلال .

زن نفسك يقيناً في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفت شفافية
رائعة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجماً بينك وبين الكون كله
في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ
منهج الله الشفافية تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فلننقُص
اليوم بما بقي من طعام أمس ، ثم يُقَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقد
جاءه ومعه الخير ،

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ،
فيصله رزق الله تعالى له من أى مكان .

وتجد الشفافية أيضاً في أعقد الأمور ، ألم يقل يعقوب عليه السلام :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رَيْحَ يُوسُفَ .. ﴾ (٩٤)

[يوسف]

(١) هذه تجربة التبريض الإيماني : فالسلم الذي تخلى عن المصامى وتغلى بالطاعات تجلى الله عليه
باليقونات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره ^(١) .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش في انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارَة بينه وبين الكون .

والمثال الحى لذلك هو فرح الكون بمجيء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسَبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِي الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۚ ۝ (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لَا تَحْزَبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٠٠) أَفَصَبِرَا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُرَّةُ عَلَيَّ وَجْهَ أَبِي بَاتَ نَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَعْلَانِكُمْ أَجْمَعِينَ (١٠١) وَلَمَّا فَعَلَتِ الْعَمِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن نَّقْدُوحَ (١٠٢) ﴿ [يوسف] آى : لولا أن تنهمونى بفساد الرأى والحرف .

سُورَةُ يُنُوسٍ

٦٢٤١

﴿ .. وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ﴾^(١) عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ [يونس]

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾^(٢)



وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظنون في طفيلانهم يعمهون^(٣) ، وكأنهم يتظنون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذبين السابقين .

ونحن نعلم أن اليوم^(٤) هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعده الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسم اليوم إلى ساعات ، وقسم الساعات إلى دقائق ، وقسم الدقائق إلى ثوانٍ .

وكلما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوّن من ليل ونهار .

(١) النذر: جمع نذير، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه .

(٢) خلوا: مضوا وسبقوا أى : فما يتظنون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التي سبقتهم من العذاب والعقاب . [تفسير الجلالين ص ١٨٨] .

(٣) يعمهون: يتخبرون ويترددون في الضلال . قال ابن الأثير : العمّة في البصيرة كالعمى في البصر . [لسان العرب: مادة (ع م هـ)] .

(٤) اليوم : في علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجميعه أيام . وأيام العرب : زهرة لهم . وأيام الله : أيام جلّت فيها نعمه وعذابه . القاموس القويم ص ٣٧٤ .

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلَفَتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرْد»^(١) و«يوم حنين»^(٢) و«يوم أحد».

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذي حدث فيه ، وحين ننظر في التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»^(٣) و«يوم أوطاس»^(٤) وكل يوم يمثل حرباً.

إذن : فالיום ظرف زمني ، ولكن قد يُقصد به الحدث الذي كان في مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش في أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالي ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شيء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسب اليوم إلى الحدث الذي وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا .. ﴾ (١٠٢)

[يونس]

(١) ذو قرد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلي بلاد غطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخاري في صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : سيرة ابن هشام (٢٨١ / ٣) ودلائل النبوة (٤ / ١٧٨ - ١٩٣) .
(٢) كان في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِئْفاً وَضَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (١٠٢) [التوبة] .

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتل في الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سمك الأشجلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، فقتل جميعاً . (سيرة ابن هشام ٢ / ٥٥٥) .

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان في سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : واد في ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم
فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً .

والله سبحانه هو القاتل :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۝ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتِ
الصَّيْغَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل
هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرنوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مأس
كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع
من يقول : « لك يوم يا ظالم » أى : أن اليوم الذى يتقم فيه الله تعالى من
الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يقترب على خلق الله ؛ لذلك
يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع
ما ظلم الناس به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۝ (١٠٢) ﴾ [يونس]

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسمر به . قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَن تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ
.. ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنَ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا .. ﴾ [الملك] أى : أعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر
من ذلك .

وقوله هنا : ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢)

والحق سبحانه قد أنجى - من قبل - رُسْله وَمَن آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث التي تعصفُ الناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذي يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خطراً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد في ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى في أثناء النوم ، وفي النوم رَدْعٌ ذاتيٌّ للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢) [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير في الدنيا .

(١) أى : أن الله سبحانه قد نجى رُسْله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، وسينجى النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تغليب الكفار والمشركين . [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف] .

وكلما زاد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في المدد ، ففي أى بلد يُفتري فيها على الإيمان ويظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجدد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .
وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجز المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٣) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤)

والشكُّ "معناه : وضع أمرين في كفتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها في كفة ، ويضعوا في الكفة المقابلة ما يؤمنون به .

ويترك لهم الحكم في هذا الأمر .

هم - إذن - في شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعرض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أى كافر ، وهو يتبته أحياناً إلى قيمة الدين .

(١) الشك : نقبض البقيتين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَكُّ فَاطِمِ السَّنَوَاتِ وَالْأَوْجِبِ ۖ ﴾ (١٠٤) [إبراهيم] . [لسان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فإن كنتم في شك من الدين الذي أنزل على رسول الله ﷺ ، وهل يتصر الرسول ﷺ ومن معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضاياء دينه إن نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجئ الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يونس]
 أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مرأى فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ (١) ، ولا يوجد من يقدر أو يتأبى على قدر الله سبحانه حين يميت .
 وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يونس]

(١) المرأى ، والمارة ، والتمارى ، والامترأى : الجدال والشك . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَعَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ۝ (٥١) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفَتَعَارُونَ عَلَى مَا يُرَى (٥٢) ﴾ [النجم] . وكذلك المرية (بكسر الميم ، وبضمها) ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِي مِرْيَةً مِنْهُ ۖ ۝ (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ي)] يتصرف .

(٢) يتوفاكم : يمتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ۖ ۝ (٥٦) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مدد أجالهم في الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

وكان لا بُدَّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) ^(١) تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقتاً للعلاقات ^(٢) .

وهذا أول قُطْعٍ للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

(١) نزلت سورة الكافرون في رمط من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتبع ديننا وتبع دينك ، تعبد آلِهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأنعت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر السورة ، ففدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملا من قريش ، ففراها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأبسوا منه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدي ص ٢٦٦] .

(٢) أقوال مُفسّري وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا . فقال البعض منهم البخاري وغيره أن المراد بـ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون] في الماضي و ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] في المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصّره الإمام ابن تيمية ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [الكافرون] نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون] نفي قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكانه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفي الوقوع ، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤ / ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفتحته ، فَهَرَعَ الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان ^(١).

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هي القضية الأولى :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١-٤) ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة.

وأنت إذا نظرت إلى الأجناس في الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذي سخر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون في خدمته.

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان.

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبة من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتي الجحش كادنى الأجناس مرتبة ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة.

وتأتى القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كان بين سورتي «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت في بداية الدعوة ومحاوله قريش إنشاء رسول الله ﷺ عن الاستمرار في دعوته ، ثم حدثت الفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تم نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد الفتح مع معسكر الشرك ، ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

﴿ . . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤) فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هم دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٥)

وما دام الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بالآلة يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا . . ﴾ (١٠٥) [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً^(١) ، كأن يعبد الإنسان من هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان .

(١) حنيفاً : مانحاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .

(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال الله ﷻ : «إن أخوف ما أنتخوف على امتى الإشراك بالله . أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمرأ ولا وثناً . ولكن أعمالاً لتغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ۖ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ ۚ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ.. (١٢٥)﴾ [النساء]

والحنف ^(١) أصله ميل في الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلتَفَّة ، هذا اصوجاج في التكوين .
أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتي مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عمَّ ؛ فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد . وفى هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى .

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشرعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القويم - باختصار ص ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الميم ، ونضعيف اللام) : الشريعة ، والدين . قال تعالى : ﴿.. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧)﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ.. (٧٨)﴾ [الحج] . [لسان العرب : مادة : م ل ن] . - بتصرف .

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإيهامها . ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّيَ «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجله . قال الجوهري : الحنف : الاعوجاج فى الرجل . وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير . وحنف عن الشيء ونحنف : مال . والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ۚ.. (١٢٥)﴾ [آل عمران] . وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين . [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف] .

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿...وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لآى شىء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كعلاج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطئ مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

• وعلى المؤمن ألا يُفتن فى أى سبب من الأسباب .

ونذكر مثلاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعت ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ

فَأِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أن عبد الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكن لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين
يجيء الضر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فمن يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع
ولا يضر .

ومن يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حق لغير ذي
حق ، سواء أكان في القمة ، أو في غير القمة^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِمَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٠٧ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق
الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ،
ولا يأخذ منهم ؛ لأنه في غنى عن كل خلقه .

ويأتي الكلام عن الضر هنا بالمس ، ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ
إِلَّا هُوَ .. ١٠٧ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة» .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المس ، أي : الضر
البسيط ، ولا ثقل ؛ إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرُون عليه ، فلا أحد

(١) أي : سواء كان ظمناً في القمة - أي : بالإشراك بالله - أو ظمناً في غير القمة بظلم العباد بأخذ حقوقهم
والتعدي عليهم .

يقدر على الضر أو النفع ، قُلُ الضر أم كُبُرُ ، وكَثُر النفع أو قُلُ ، إلا بإذن من الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمس ، أي : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمته - جَلُّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشف عنه ، وهذه هي الرحمة .

ثم يأتي سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرد .

ونحن نجد كلمة «يُصِيبُ» في وَصَف مجيء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء من عباده .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة في قوله تعالى :

﴿ .. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففي الشر جاء به مساً ، ويكشفه ، وفي الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه .

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه ^(١) ؛ ولذلك نجد سبحانه في آيات النعمة يقول :

﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(٢) .. (١٨) ﴾ [النحل]

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١) .

(٢) الإحصاء : العد والحصر .

وجاء الحق سبحانه بالشك ، فقال ﴿إِنْ﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العدّ هو مظنة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدّ النقود ، وقد يعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعدّ أو يحصى حبات الرمال مثلاً .

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شك في أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العدّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي ﴿نِعْمَةٌ﴾ ولم يقل : «نعم» فكان كل نعمة واحدة مطمور فيها نعم شتى .

إذن : فلن نستطيع أن نعدّ النعم المطمورة في نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عدّ النعم في آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ^(١) (٣٤)﴾

[إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

(١) ظلم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً .
وكفار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشيء إذا أخفاه . فكان الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأخفاه ولم يؤد حقها من الذكر والشكر .

وصَدَّرَ الْاَيَتَيْنِ وَاحِدًا ، وَلَكِنْ عَجَزَ كُلُّ مِنْهُمَا مُخْتَلَفٌ ، فَفِي الْاَيَةِ الْاُولَى : ﴿ .. اِنَّ الْاِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢١) [ايراميم]

وفِي الْاَيَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ .. اِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [النحل]

لَاِنَّ النِّعْمَةَ لَهَا مُنْعَمٌ ؛ وَمُنْعَمٌ عَلَيْهِ ، وَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِ - بِذَنْوِيهِ - لَا يَسْتَحِقُّ النِّعْمَةَ ؛ لِأَنَّهُ ظَلُومٌ وَكَفَّارٌ . وَلَكِنَّ الْمُنْعَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفُورٌ وَرَحِيمٌ ، فَفِي آيَةٍ جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ .

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ نَجِدُهُ ظَلُومًا كَفَّارًا ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ النِّعْمَةَ ، وَلَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا .

أَلَمْ تَقُلْ السَّمَاءُ : يَا رَبِّ ! ائْذَنْ لِي أَنْ أَسْقِطَ كِسْفًا عَلَى ابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنْعَ شُكْرِكَ .

وَقَالَتِ الْأَرْضُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَنْخَسِفَ بِابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنْعَ شُكْرِكَ .

وَقَالَتِ الْجِبَالُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَسْقِطَ عَلَى ابْنِ آدَمَ .

وَقَالَ الْبَحْرُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَغْرُقَ ابْنَ آدَمَ الَّذِي طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنْعَ شُكْرِكَ .

هَذَا هُوَ الْكُؤُنُ الْغَيُورُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يِعَاقِبَ الْإِنْسَانَ ، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْجَمِيعِ يَقُولُ : « دَعُونِي وَعِبَادِي ، لَوْ خَلَقْتُمُوهُمْ لَرَحَمْتُمُوهُمْ ، إِنْ تَابُوا إِلَى قَانَا حَيِيهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَيِيهِمْ » .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۖ ﴾ (١٠٨)

إذن : فالحق سبحانه لم يُقصر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفي أن تفكروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر في القوى الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن يرسل لها القوى رسولا بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف أذانهم لما يقول .

إذن : كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ، ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»^(١) تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أَعْلَمَ الْفَلَسَفَةَ - إذن - أن هناك شيئا وراء المادة .

وكان العقل المجرد ساعة يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول :
إن وراء الكون الواضح المحسُّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من

(١) الوكيل : الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم ، والحفيظ الذي يحفظ أعمال الناس . قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۖ ﴾ [الأنعام ١٠٧] ، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ .

(٢) الفلسفة : لفظ يوناني ومعناه البحث عن الحقيقة . والميتافيزيقا : ما وراء الطبيعة والكون . أي : الغيبات التي لا تخضع لقوانين المادة .

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذي وراء المادة هو الذي يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً في ذلك ، وقلنا : هَبْ أَنَا جالسون في حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ في الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التي تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعرَّف بالعقل ؛ لأننا ما دُمنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذي يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب ؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

إذن : فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن يتتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتي بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَسْأَلُهَا النَّاسُ فَذْجَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وأن يأتي

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمد من عدم^(١) ،
ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا
خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا
لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من الربى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى
ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمْ الْحَقُّ^(٢) مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (١٠٨)

[يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عذر لأحد أن يقول : «لم يُبلغنى أحدٌ بمراد الله » ،
فقد ترك الحق سبحانه العقول لتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصور للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولا
يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن
نقول للرسول بعد أن تصدق معجزته : أهلاً ، فأنت من كنا نبحت عنه ،
فقل لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) العدم والعدم والعدم : فقدان الشيء وذهايه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرشد والرشد - الحزن
والحزن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا الله الذى لا يُغنى الرشد من الغي .. ﴾ (١٠٦) [البقرة] . وقوله
تعالى : ﴿ .. ربنا آتانا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشداً ﴾ (١٠) [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل
والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ ألا
إن الله ما فى السموات والأرض إلا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعقلون ﴾ (٥٥) [يونس] ، والحق ما
وجب عليك لتغيرك [القاموس القويم بتصرف ص ١٦٤ ، ١٦٥] .

[يونس]

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ (١٠٨)﴾

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتبهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

[يونس]

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ (١٠٨)﴾

وكلمة ﴿ضل﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضلَّ عنها .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾ [يونس]

وأنت لا توكل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسمع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل على فقط مهمة البلاغ^(١) عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً فى نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۖ (١٥)﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٢)﴾ [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جليلاً واضحاً .

وإذا كان الإنسان منّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره .

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجِدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلّم .

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسعة الرزق .

وكلما كانت الثمرة التي يريدتها الإنسان أينع ^(١) وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما يتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ ضَلَّ ^(٢) فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ^(٣) ١٠٨ ﴾

[يونس]

(١) أينع : أكثر نُضْجاً . والينع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ١٠٩ ﴾ [الأنعام] .

(٢) ضلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفي وغاب فهو فعل لازم ، وضلَّ المسافر الطريق مُتَعَدِّ : لم يعرفه . [القاموس القويم ص ٣٩٤ - يتصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالاضلال - والعباذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملك ، لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْمُخَافِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ^(١) عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ .. (٥٩)﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاغًا لِّقَوْمٍ هَادِينَ (٦٦)﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذكر من الأخبار والمواظ .

ومبلغ الشئ : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى يتهى به . قال تعالى : ﴿قُلْ مَتْلُفُهُمْ مِنْ الْبَطْمِ .. (٢٥)﴾ [النجم] [القاموس القوم - بصرف ٨٣ / ١ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هي للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال في الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة .

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ ۖ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ (٢١)
[الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۖ ۝ (١٠٩) ﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتبع ما يوحى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، قوطن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر .

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذي يقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ ۝ (١١) ﴾ [المتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [المتحنة] .

(٢) ورد الرجاء في القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والامل في تحقق شيء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۖ ۝ (٧٨) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ۖ ۝ (٦٥) ﴾ [النور] .

- منها : الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۖ (٧) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ (٨) ﴾ [يونس] .

سُورَةُ يُوسُفَ



ومجىء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن
تصبر وتعطى النموذج لغيرك ^(١) ، والثقة في أنه لو لم يكن هناك خير في
اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتي حكم الله ﴿ .. وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ
اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١٠٩) [يونس]

وليس هناك عدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى .

وهذه السورة التي تُخْتَمُ بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان
بالله ، قمة في عقيدة لإله واحد يجب أن تأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه
الرب الذي خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عَدَم ، ولم يكلفنا إلا بعد مرور
سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلف يستحق أن يُكَلَّفَ
بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبت من صدق الربوبية .

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى الربُّ الربِّي إلى أن يبلغ حَدُّ
الكمال المرجو منه .

وقد صدقت هذه القضية في الكون .

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذي خلق ، حين يُبَيِّنُ لنا
مهمتنا في الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع
الغاية التي يعرفها قبل أن يخطو أي خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضَيِّعَهُ ، بل
لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه ^(٢) ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُلَاقَوْمٍ مِنْ الرُّسُلِ .. ﴾ (٣٥) [الأحقاف] . فالصبر هو اقتداء بالرسول
الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل : نوح وموسى وعيسى
 وإبراهيم ومحمد ﷺ .

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَنُحِشِبُ الْإِنْسَانَ أَن يُفْرِكَ سُدًى ﴾ (٣٩) [القيامة] . قال ابن كثير في تفسيره
(٤٥٢/٤) : « الآية تُعْهِشُ الْحَالِينَ . أي : ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في
قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منه في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة » .

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحلنا ^(١) وغيّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرئ غاية ، ولكل امرئ منهج ، ولكل عقل فكر ، ولصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد ^(٢) يُضعف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه .

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً ^(٣) في العقيدة ، وتوحيداً في المنهج .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لنا في هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى .

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾

[يونس]

بلاغاً عن الله تعالى .

وما دُمْتَ تَبْلُغُ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

(١) أحلنا الأمور: حولناها وبدلناها لغير ما وضعت له . وفي اللسان: كل شيء تغير عن الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال . ويقال: حال الرجل يحول مثل تحول من موضع إلى موضع . (مادة: حول).

(٢) الأنداد: الأمثال والنظراء .

(٣) الرسالات في جوهرها تسير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] .

النبوة ، ولم تُعدْ هناك نبوة بعك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً .

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذي نزل إليك .

إذن : فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلغ ، ويجب أن تكون أمة شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا " ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أي رسول تقشّر ، وتبتهت تكاليفه " ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولا ، ولكن الأمر يختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تُعدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى .

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة في تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقي حتى لا يكلف الناس فوق ما تطبيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض :

[فصلت]

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴾ (٦)

(٦) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج] .

(٦) أي : يطول عليهم الزمن فتتسى رسالة الرسول ، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير ، وقد حدث أكثر هذا مع بني إسرائيل .

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلاً.

ولذلك نلاحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحي ويُطبِّقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (٢١) [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقل الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبار ، وهو كنموذج سلوكي تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق في أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكون كل عمل صادر منه ﷺ أو عن يتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومنْ يبعد في القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعده .

(١) الأسوة والإسوة: القدوة. ويقال: اتسب به ، أى: اقتد به وكن مثله. قال الليث: فلان يأتسى بفلان ، أى: يرضى لنفسه ما رضىه ويقتدى به. وقال الهروي: تأسى به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أس)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة .

إذن : فالاتباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحي بلاغاً ، واتباع ما يُوحى به تطبيقاً ، وسيطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجياورة المتطفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقبل على عقبات قَلِيلَةٍ نفسه لتحمل هذه العقبات بالصبر^(١) .

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون . يقول سبحانه :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا^(٢) .. (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى : إن صبرت ، فقد يصبر خصمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم مستقيماً الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

(١) وقد كان الحق سبحانه يُمدُّ يده ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَفُوا بِحَلْفِنَا وَلَا نُغَيِّرُ الْكَلِمَاتِ اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ (٢١)﴾ [الأنعام] .

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصي . وصابروا الكفار فلا يكونوا أشدَّ صبراً منكم . ورابطوا أى : جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه . [تفسير الجلالين : ص ٦٤] . وصيغة «صَبَرُوا» من «فَاعِلٌ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى : شدة الصبر والتحمل . والاستمرار عليه حتى الوصول للهدف .

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطِن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قُام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داعٍ إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حفظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ خطأً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نُضِرَّ^(١) الله امرأ سمع مقالتي فوعاها^(٢) وحفظها وبلغها ، فربَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه»^(٣) .

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٢١)

[الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۖ ۝١٠٩﴾

[يونس]

هو دليل على أن الوحي بصدد الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن

(١) النضارة : إشراق الوجه ونوره .

(٢) وعاءها : حفظها ، فكان كالوعاء يملأ ما يوضع فيه ، وإن لم يترك تفاصيل ما وعاء .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٣١) من حديث عبد الله بن مسعود .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٦٩

دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَقَدْ كَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَالَ حَيَاتِهِ ^(١) .

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هي مقام الاستقبال للوحى .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمِيرٌ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ...﴾ (١٠٩) [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ،
وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿يَحْكُمُ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدعى أنه على حق ، ثم
يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال
لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون بمن
يُدارون فسقهم فى ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ،
فهو لا يحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم
فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة
الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن فى زماننا نرى القوى وهى تختلف ، فنجد القوى من الدول وقد
نسلط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ،
ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة
التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

(١) أى : كان ينزل مُتَجَمِّعاً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله
ﷺ غَفْصاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزُّلٌ آخر ، حيث نزل جملة واحدة
من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإنفاق فى علوم القرآن (١/١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدَلِّسَ عليه في الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمَّى على قضاء السماء ^(١) .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حكماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق ^(٢) .

ويعلمتنا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنا هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها ، أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِأَلِّهِ النَّفْسَ مِنْكُمْ .. ﴾ [الحج] . فإله تعالى هو النفس عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دماؤها . فبين عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٢٢٤ / ٣ بتصرف) .

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ .. وَتَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) ﴾ [النازعات] أي : منعها عن المعاصي والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنتج بما يخرج من معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب . أما المراد به في الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْبُدُوا (٢٥) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .. ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ .. ﴾ [القصر] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَثُرُوا لَا ضَرَرَ بِأَهْوَائِهِمْ بَغْيَ عِلْمٍ .. ﴾ [الأنعام] . [لسان العرب : مادة (هوى) - بتصرف] .

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسن عبادة الخالق سبحانه .

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدلٌ للرسول بعضاً من الأحكام .

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حكماً ، وحين يُنزل الله حكماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حكماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدل من الحكم .

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من رأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذي عدل له ليس مساوياً له بل هو خالفه .

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد مَنْ يضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عدل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحي تحلى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له ^(١) .

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فقلبي عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿ عبس وتولى ﴾ (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنه الذكرى (٤) أنا من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه ظهري (١٠) ﴿ عبس ﴾ . وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ ينسأها النبي لم تحرم ما أحل الله لك فيطي موطأت أزواجك والله غفور رحيم ﴾ (١١) ﴿ التحريم ﴾ .

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لتتجراً ونجتهد.

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيي لا ألو^(١) . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور ^(٣) ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ^(٤) ، ولا هوى له ، وهو الذى يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تُجبر عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

(١) لا آلو : لا أقصر في اجتهادي وبعثي المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يآلو خيراً . أى : لا يدعه ولا يزال يفعله . ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُونُكُمْ خِلَالاً .. ﴾ (١٨٨) [آل عمران] أى : لا يقصرون في فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) وقال: ليس إسناده عندي بم متصل - لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَتْلُمُ خَائِفَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر]. فإله عز وجل يعلم العيون الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بينهم ، وفيهم المرأة الحسنة ، أو تحربه ويهم المرأة الحسنة ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غصَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غصَّ ، وقد اطلم الله من قلبه أنه ود أن لو اطلم على فرجها . ذكره ابن كثير في تفسيره (٧٥/٤) .

(٤) يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْزِمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَرْزُقُهُ إِلَّا بِمَقْدُورٍ﴾ (٤) عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٤) سواء منكم من أسر الأقول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسار به بالنهار (٤) ﴿[الرعد].

على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس^(١) عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى في أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إيدان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى :

﴿ ..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى :

﴿ ..رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين]

وكلما وجدت جمعاً أدخل الله ذاته مع عباده من لهم هذا الوصف ، فهذا يدلّسك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

(١) التدليس : الإغفاء وللخادعة بعدم تبين العيب في الشيء . ومنه التدليس في الإستاد بأن يحدث المحدث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ، بل سمعه ممن هو دونه في المرتبة .

سبحانه وتعالى أزلى مُطلق الصفات ، وهم أحداث^(١) وأغيارٌ تتابهم القوة والتغير والضعف .

ونجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

[المؤمنون]

﴿ .. أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

[الجمعة]

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

والرزق هو ما به يُتَفَع ، وقد يأتي لك وليٌ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

[آل عمران]

﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾

والإنسان حين يمكر قد يُدارى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن : فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ .

(١) الأحداث : جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمنياً ، وقد يُعبر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً . (التعريفات للجرجاني - ص ٧١) .

ومثال ذلك : قصة زيد بن حارثة ^(١) ، وكان مولى أو عبداً لحديجة بنت خويلد ^(٢) رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا ييحتنون عنه أنه في مكة ، وكان قد خطف صغيراً من بلده وبيع في مكة ، كمادة العرب في الجاهلية مع الرقيق ^(٣) ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأخبره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى » . فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ .

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرط فيه ؛ فأعطاه شرف النبوة ، فأسماه زيد بن محمد ^(٤) .

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٣/ ٥٧) .

(٢) مى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول من صدقت به بعثته ﷺ ، كانت مؤمنة ، تأجر رسول الله ﷺ بمالها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بنى هاشم من الشعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/ ٦٠ - ٦٢) .

(٣) الرقيق : العبد ، وقد سُمى العبد رقيقاً لأنهم يرقون لما لكهم ويذلون ويخضعون . [راجع اللسان مادة رقق] وقال الجرجاني فى التعريفات (ص ٩٩) : فالرق فى اللغة : الضعف . ومنه رقة القلب ، وفى عرف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . أما إنه عجز فلائنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكمى فلائنه العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحر حسناً .

(٤) وذلك أن حارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام ، فقالا له : يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أئتم جيران الله ، وتفكون العاتى (الأسير) ، وتطمعون الجائع ، وقد جئتكم فى ابنتنا عبيدك ، فحسن إلينا فى فدائنه . فقال : أو غير ذلك ؟ فقالا : وما هو ؟ فقال : أدهره وأخبره ، فإن اختاركما فلك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له : قد زدت على النصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال : من هذان ؟ فقال : هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا مى كعب بن شراحيل ، فقال : قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أقمت مى ، فقال : بل أقيم معك . فقال له أبوه : يا زيد ، أنت اختار العبودية على أهلك وأهلك وقومك ؟ فقال : إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى اللأ من قريش فقال : اشهدوا أن هذا أبى وارثاً وموروثاً . فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يدعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٥) . (الأحزاب) .

وهكذا رأى النبي ﷺ في التبنّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۝٤١ ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنّى قد تُحدث خلطاً في الأنساب ، فالابن بالتبنّى له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبنّى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبنّاه إن رحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومستولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۝٤٢ ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم .

وقال الحق سبحانه في تعديل حكم التبنّى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ ۝٤٣ عِنْدَ اللَّهِ ۝٤٤ ﴾ [الأحزاب]

وهذا ردّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عندلٌ وقسطٌ بعُرف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدل ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلي «زيد بن حارثة» .

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝١٥٩ ﴾ [المائدة] . أما القاسطون فهم الجائزون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝٦٠ ﴾ [الحن].

وحتى لا يؤثر هذا الأمر في نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرمه لصحابي غيره ، فهو الصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه بالشطط والعلم في القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ^(٢١) ذُوجَتْهَا .. ﴾ [الأحزاب]

وحصار اسم «زيد» كلمة في القرآن تُتلى ويُجهر بها في الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذكراً ثانياً خالداً في القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ . . وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعم من أن يكون حكماً في الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه في الدنيا نصراً لدين الله ، ومن مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كني من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ ^(٢٢) إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نُّقَدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهي وطره ، وجمع الوطر : أوطار . وقال الزجاج : الوطر والأرب في اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . [لسان العرب : مادة (وطر)] .
(٢) النون : الحوت . وذا النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أي : صاحب الحوت ، وهو الحوت الذي ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه في البحر .

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿ .. وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أسدى^(١) إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧ ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغم ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دفعاً .

ولذلك يقال : إن العدو كلما لطف^(٢) عَنَفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخماً الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعد ، فيجرب منه الإنسان أو يختبئ ، لكن إن كان العدو ثعباناً رقيقاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإن كان ميكروباً أو فيروساً لا يرى بالعين المجردة ؛ فهو أعنفُ قدرة وقوة في مهاجمة الإنسان .

إذن : كل مُتَعَب في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصص عليك بدقة ولُطْف ؛ فَإِنَّكَ لَا تَعْرِفُ مَدْخَلَهُ .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجيء

(١) غم الشيء يغمه غمًا : أخفاه وغطاه وستره .

وغمه الأمر : أخزنه .

قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ لَمْ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ۝٧٦ ﴾ [يونس]

[القاموس القويم - ٢ / ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى : أعطى ، وأهدى . [لسان العرب : مادة (س د ي)] .

(٣) لطف الشيء يلطف : صَفَّرَ . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)] .

(٣) الكلام للسرد: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يصترك شيئاً على التكلم ، أو يحفظ منه شيئاً .

يحمل الماء ، والرياح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستشعر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والله يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - اللهم .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهم والغم من أشد جنود الله تعالى ، ويكفان سيدنا يونس عليه السلام سبياً في أن قدم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة منجى من الهم والغم بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعددت «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طيبة» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، في كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا يبتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعماً ومرفهاً في كل لمور الحياة ، يجعله عرضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق ^(١) له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

(١) هو : جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثوري ومالك . توفي بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف .

فمن عنده صدادح يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه :

﴿ .. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لنة السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

﴿ قَاتِلُوا " بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ .. (١٧٤) ﴾

[آل عمران]

أى : أن سيدنا جعفر أهدأ بالحيشية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق : « عَجِبْتُ لِمَنِ اللَّهُ » - وهو الموضوع الذي نبهته الآن - ولم يفرع إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مكر به كيف لا يفرع إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. وَأَفْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

(١) انقلبوا : رجعوا . أى : أنهم لما توكّلوا على الله كفاهم ما أمّتهم وردّ عنهم بأس من أرادوا كيدهم ، فرجعوا إلى بلادهم بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء مما أضمر لهم عيودهم ، (ابن كثير ٢ / ٤٣١) .

﴿فَرَقَاهُ﴾^(١) اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا وَخَاقٍ^(٢) بِأَلِ فِرْعَوْنَ سُوءِ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾

[غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرع إلى قول الله سبحانه :

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ..﴾^(٣)

[الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى يعقبا يقول :

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾^(٤)

[الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع
حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾^(٥)

[يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها :

﴿الَّذِي كَتَبَ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٦)

[هود]

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً .

(١) وفاه الله وقياً ووقاية رواقية : صانه . ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى . ووقاه ما يكره : حماه منه . وقال تعالى : ﴿فَرَقَاهُمُ اللَّهُ فَهُوَ ذَلِكَ الْيَوْمُ..﴾^(١) [الإنسان] وقال تعالى : ﴿..وَمَنْ قَتَلَ السَّيِّئَاتِ يُؤْتِنَا فَكَّهُ وَجْهَهُ﴾^(٢) [غافر] [لسان العرب : مادة (وقى)].

(٢) خاق : أحاط . والحق : الإحاطة بالشيء والإطّار المحيط به المستدير حوله . قال الليث : الحق ما خاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمل به ، فينزل ذلك به . وقيل : الحق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكرهه فعله . وقال الزجاج : خاق بهم العذاب أى : أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون ، كما تقول : أحاط بفلان عمله وأهلكه كسبه ، أى : أهلكه جزاء كسبه . قال تعالى : ﴿..فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَخَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) [غافر] . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلَاهُ..﴾^(٤) [فاطر] . [لسان العرب : مادة (ح وقى ، ح ي ق)].

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبدأ سورة هود ^(١) بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الرَّكِبَ أَخْرَجْتَهُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه .

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف .

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول :

(١) سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب سور القرآن ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وغيرهما . وقال ابن عباس وقتادة : (لا آية ، وهي قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الشَّاهِدِ﴾ . [هود] . وعدد آياتها (١٢٣) آية .

سميت باسم نبي الله هود عليه السلام ، الذي أرسل إلى قوم نمود ، فذكر فيها اسم النبي هود ٥ مرات . وذكر في سورة الشعراء آية ١٦٤ ، وفي الأعراف آية ٦٥ .

قال عنها رسول الله ﷺ : «شيتني هود وأخواتها : الواقعة ، وهم يشاء لون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/٣٥٨) .

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في «نوار الأصول» : فالفرع يورث الشيب ، وذلك أن الفرع ينهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شجرة منيع ، ومنه يعرق ، فإذا نشف الفرع رطوبته ييسب المتابع فيسب الشعر فايض ، كما ترى الزرع الأخضر يسقله ، فإذا ذهب سقلوه يسب فايض . فالنفس تنهل برعيد الله ، وأحوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتقبل ، وينشف ماها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به ، فمنه تشيب .

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأمر الله تعالى ، فأهل البغين إذا تلوها تراهي على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفرع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحيان حتى يقرءوا كلامه . نقله القرطبي في تفسيره (٤/٣٣١٩) .

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿ اَلَمْ ١ ﴾^(١) [البقرة]

إذن : فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

﴿ اَلَمْ نَشْرَحْ^(٢) لَكَ صَدْرَكَ ١ ﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف.. لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى : أن يقرأ الفقيه أولاً ليعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذى يتعجب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارئ للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف .

وقول الحق سبحانه : ﴿ اَلَمْ ﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلاحظ أنه من العجيب فى فوائح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنى على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه :

(١) ﴿ اَلَمْ ﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : رَمَعْنَاهُ معنوياً ، وأزلنا عنه الضيق والهم . والمراد : أرضيناك وسررناك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أو هما معاً . [القاموس القويم] .

﴿ مُدْهَامَتَانِ ^(١) ﴾ ٦٤ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥ ﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ ^(٢) ٦٦ ﴿ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على
الوصل .

وفي آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ١٠٩ ﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لتطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك
تقرأ منصوباً بالفتحة . وهي موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فوائج السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على
الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : «ألف لام ميم» بل
نقول : «ألف لام ميم» .

وكذلك نقرأ في أول سورة مريم «كاف هاء ياء عين صade» ، ولا نقرأ
الحروف بتشكيلها الإعرابي ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفي القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مِنْ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ ﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه :

(١) مدْهَامَتَانِ : سوداوان من شدة احضرتهما وكثرة الظلال وهذا كتابة من التعميم التام (وهو وصف
للجنتين اللتين ورد ذكرهما في قول الله تعالى في آية : ﴿ وَمِنْ ذُنُوبِهِمَا جُنَانٌ ١٦ ﴾ [الرحمن] .
(٢) الآلاء : النعم ، مفرد لها : إلى أو إلى (بكسر الهمزة ، وفتحها) قال تعالى : ﴿ .. فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ
تَلَكُمُ الْفَلَاحُ ٢٩ ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَعْلَمُونَ ٥٥ ﴾ [النجم] . [القاموس
القوم - بتصرف] .

(٣) نضَّاخَتَانِ : فوْأَتَانِ بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤهما غزيراً ، ونضَّاخَةٌ : حبيضة مبالغته تدل على
الكثرة . (تفسير الجلالين : ص ٢٧٠) و[القاموس القويم] بتصرف .

[ق]

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾

وقول الحق سبحانه :

[القلم]

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾

ونلاحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿حَم (١)﴾^(١) [الشورى]

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه :

﴿عَسَى (١)﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿كَلَيْتَمَتَيْنِ (١)﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه : ﴿طه (١)﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : ﴿يَس (١)﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجده أيضاً : ﴿الْحَق (١)﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿طسّم (١)﴾ [الشعراء ، والقصص] كآية .

وتجده أيضاً ﴿الْمَرْ (١)﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل : ﴿طنّ (١)﴾ ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

(١) يسطرون : يكتبون . من سطر الكتاب أى : جعله سطوراً .

(٢) ﴿حَم﴾ : ذكرت في افتتاح سبع سور هي : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف . وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها . [القاموس القويم] . وتسمى الحواميم .

إذن : فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة ، فننظرن إلى عبّر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسّنة ، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك : حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزىل غرفة الآخر .

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى يفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق .

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة ؛ فلن تفتح لك السورة .

إذن : فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ^(١) لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الْقَم ۝١﴾ [البقرة]

(١) قال عز وجل : ﴿فَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٦٨﴾ [النحل] ، عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥ / ١٦٥) طبعة دار الفكر ، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر .

فيفتح لك باب القراءة .

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً .

ونخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الر﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿آل﴾ ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

ولكن ﴿آل﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا في مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كآية .

وأيضاً (آلص) هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف .

إذن : فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد^(١) ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمبراده » .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (١)﴾

[هود]

(١) قال البيهقي في «الإنقان في علوم القرآن» (٢١/٣) : «المختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى . عن عامر الشعبي : أنه سئل عن فواتح السور . فقال : إن لكل كتاب سرّاً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور» .

قال ابن كثير في تفسيره (٢٧/١) : «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي : أ ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك : نص حكيم فاطع له سر» .

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول :

﴿قُرْآنٌ﴾ (٦١)

[يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدلّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضلّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن ^(١) ، ومطابقة ما في الصدور على ما في السطور ، وضعوا أساساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين في سورة التوبة ^(٢) ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسيبه» ^(٣) .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة في الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه في الأصل مكتوب في اللوح المحفوظ .

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، بعد أن أشد القتل بقراء القرآن في الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كتبت الوحي لرسول الله ﷺ ، فتبع القرآن فاجمعه . فأخذ زيد يجمعه من العيب (هو صف النخيل) واللخاف (حجارة يفض عريضة رفاق) وصدور الرجال . انظر الإقنان في علوم القرآن (١/١٦٥) .

(٢) هاتان الآيتان هما : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٤٨) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) [التوبة] .

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/١٨) والطبراني في معجمه الكبير (٤/١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمي في المجمع (٩/٣٢٠) : «رجاله كلهم ثقات» .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .. (١) ﴾ [هود]

ومادة الحياء والكاف والميم^(١) تدل على أمر مُحسَّن وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار .

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .. (١) ﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام^(٢) ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرت إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

(١) أحكم الأمر : أتقنه . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٢٧) ﴾ [الحج] ، أى : يبينها ويجعلها متقنة مقننة محكمة ، وآيات محكمة : مقننة مقننة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. (٢) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً .. (٦٦) ﴾ [محمد] . أى : متقنة . [القاموس القويم] .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٠) : « أحسن ما قيل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .. (١) ﴾ [هود] قول قتادة ، أى : جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظاماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل » .

إذن: فالقرآن قد أحكم أولاً ، ثم فُصِّل^(١) .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ .. (١) ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة في القرآن هي السور ، والفواصل الصغيرة هي الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذي جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هي مجموعة من الآيات .

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أُحْكِمَ وفُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى .

وحين تنظر إليه تحده مُنَوَّعاً ، فمرة يتكلم في العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم في النبوة وموكبها الرسالي ، والمعجزات ، ومرة يتكلم في الأحكام ، ومرة يتكلم في القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات . ومرة يتكلم في علم الفرائض^(٢) .

إذن: فهو مفصل في اللفظ أو في المعنى ، وهو يتناول معاني كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل .

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحوادث ، وهذا أذعن إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه .

(١) فُصِّل الشيء: جعله أساماً متميزة واضحة ، قال تعالى: ﴿ .. وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانٌ فَفُصِّلَ (١٦) ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى: ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] أي: معجزات مبینات واضحة ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصْلَانٍ عَلَىٰ عِلْمٍ .. (٥٦) ﴾ [الأعراف] .

(٢) الفرائض المعنى بها علم الموارث ، أخذاً مما فرضه الله لكل واحد من أصحاب الفروض .

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها . أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن : فنزول القرآن منجماً شاء الحق - سبحانه - لتتشعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ^(١) وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا^(٢)﴾

[الإسراء]

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين : فرقناه ، فرقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه : فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ، قاله هكرمة عن ابن عباس .

- وعلى القراءة الثانية فمعناه : أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً ، قاله ابن عباس أيضاً . ولهذا قال : ﴿لَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ^(١)﴾ أي : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم : ﴿عَلَى مُكْثٍ^(٢)﴾ أي : مهل . ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا^(٣)﴾ أي : شيئاً بعد شيء . تفسير ابن كثير (٦٨/٣) .

(٢) مكث : أقام في مكانه ، وتفيد التأنى وعدم العجلة . وقوله تعالى : ﴿لَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ^(١)﴾ [الإسراء] أي : على مهل وتأن وبغير عجلة في أزمة متطاولة . وقال تعالى : ﴿فَمُكِّثٌ غَيْرُ مُعِيبٍ^(٢)﴾ فقال أحطت بما لم تحط به .. ﴿[النمل] أي : استمر الهدد في غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ^(٣)﴾ [الرعد] أي : يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصباً . وقال تعالى : ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا^(٤)﴾ [طه] أي : أقيموا في مكانكم متظرين . [القاموس القويم] .

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ (٣٢) [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿...كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنْجِماً^(١) على الرسول ﷺ ، ليكون في كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ في المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تثبيات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿...كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي

(١) منجماً : مرفقاً ، لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبي ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة . [اللسان العرب ، مادة : نجم] فنزل القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة في المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً : أنزلناه مرتلاً منسقاً معجوداً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور في اللسان : «أي : أنزلناه على الترتيل ، وهو طمد المعجزة والتمكث فيه» .

جاءت في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ...﴾^(١).

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فينزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾ (٢٦) [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف ركب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل - البعوضة^(٢) - كل أجزاء الكائن الحي ؛ من محل الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون في أمرين : إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفنين حين صنعوا ساعة «بيج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفنيون في «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً ؛ فما بالناس يخالف الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

(١) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ (١٨٩) [البقرة] . وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قُلْ فِيهِ قُلٌّ قَالَ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾ (٢١٧) [البقرة] .
وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ (٢١٩) [البقرة] .
وقد وردت في القرآن ١٥ آية تبدأ بـ (يسألونك) .

(٢) البعوضة : حشرة صغيرة طائفة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تستقي به الدم ، فهي حشرة لاسعة ضارة ، وهي أنواع كثيرة جداً ، من مذبذب أمراضاً مهلكة .

أحكم ، وهو سبحانه الذى فصل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب
الإحكام ، وهو سبحانه خير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .
وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكَمًا لا يتطرق إليه فساد ، وهو
سبحانه خير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ ۝ الْخَبِيرُ ۝ ﴾ (١٠٣)
[الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن
أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرِّكَابَ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ ﴾ [هود]
يسين لنا أن القرآن كلام الله القدير الذى بُنى على الإحكام ، ونزل
مُحْكَمًا جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة ليتزل من السماء الدنيا
نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هى الغاية من المنهج كله ، وبيئتها
الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ ۝ ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو
الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان
مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذي لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هي عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ اَلَا تَعْبُدُوْا اِلَّا اللّٰهَ .. ﴾ (٢)

[هود]

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوْا اللّٰهَ .. ﴾ (٧٢)

[المائدة]

ولو أن الرسل تأتي الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدمونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿ اعْبُدُوْا اللّٰهَ .. ﴾ (٥٩)

[الاعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ اَلَا تَعْبُدُوْا اِلَّا اللّٰهَ .. ﴾ (٢)

[هود]

فكانه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن ينهي هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا : «أشهد ألا إله إلا الله» ، هنا نفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، وثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بالوهمية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة^(١) .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [مرد]

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نفى الباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : «دره»^(٣) المفسدة مقدّم دائماً على جلب المنفعة فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجه العباداة إلى الله سبحانه .

وما دامت العباداة هي طاعة الأمر ، وطاعة النهي ، فهي - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإن نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أفضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إمطة^(٣) الأذى عن الطريق^(٤) .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلاح ، فهذه عباداة .

(١) لأن الشهادة تكون في قضية وعلى قضية ، فالذي يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضي ذلك ، فهذا إحكام في المبنى والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [مرد] فقد قصر العباداة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .
(٢) دره : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ .. ﴾ (٨) [النور] أى : ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقيّة الحكم في سورة النور في الآيتين رقمي (٨ ، ٩) . [القاموس القويم] .

(٣) إمطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم . والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شيء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم في الطريق .

(٤) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان» . أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى في صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دينية» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دينياً وعاملاً شريفاً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرئ فيما يحسنه.

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أفضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه نهى لك الخيار في أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة في المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذي تقوم عليه كل أوجه الحياة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »^(١).

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين في هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هي الأعمدة التي تقوم عليها عمارة الإسلام.

وأركان الإسلام هي إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة.

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهي مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعياً لرفعة الإسلام.

إذن: فالقاسم المشترك في الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتى إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

والْعَوْلُ^(١) ، والرد^(٢) ؛ لأن المسلم قد عمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أمر ديني ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر^(٣) .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : هَبْ أَنْ إِنْسَانًا يَصَلِّي ، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ بمقابلته أجراً ، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة ، الذي اشتري الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

(١) العول في اللغة : الارتفاع . وعند الفقهاء : زيادة في سهام ذوي الفروض ، وتقصان من مقادير أنصبتهم في الإرث . وهي مسألة تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة في جانب والتقصان في جانب .

(٢) الرد : أي : رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم ، عند عدم استحقاق الغير ، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة :

١- وجود صاحب الفرض .

٢- بقاء فائض من التركة .

٣- عدم العاصب .

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها في كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء] .

فى الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة ^(١) .

وأهل الذكر أيضاً فى العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما فى الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالناس بالذى يصلح أسس إقامة الناس فى الحياة ، وهو التفقه فى الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) [التوبة]

فتحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس الموارد ليعرف العصبية ^(٢) وأصحاب الفروض ^(٣) ، وأولى الأرحام ^(٤) ،

(١) التفقه : الفهم ، وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والتفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ .. لِّمَنَالِ مِّنْزِلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقًّا ﴾ (٧٨) [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴾ (١٢٢) [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتلمذوها . [الفاموس القويم - بتصرف] .

(٢) العصبية : هم بنو الرجل وقرابته لأبيه . والمقصود بهم فى المرويات الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباهم المقدرة لهم . وأمتلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شئ بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثمان من الإناث ، وهن : الزوجة ، والبت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبت الابن ، والأم ، والجدلة الصحيحة وإن علت ، ولكل منهم نصيب مقرر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصب . ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز^(١) شعر الأغنام .

وهكذا نجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ماذا أفطرت اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هى : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع .

وهكذا نجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل : «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تتفع بحركة عامل فى الحياة . وإذا لم تتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى .

(١) جز الشعر والعرف : قطعه .

إذن: فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء «افعل» و «لا تفعل»^(١).

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ^(٢) وَبَشِيرٌ^(٣)﴾ [هود]

والنذير^(٤): هو من يُخبر بشراً زمنه لم يجرى ، لتكون هناك فرصة لتلافى العمل الذي يُوقع في الشر ، والبشير هو من يبشّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير .

إذن: الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يجرى .

وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً في دراسته ؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح صعلوكاً تافهاً في الحياة .

(١) افعل: أمر من الأمر وهو الله . ولا تفعل: نهى من الله . والأمر يعطى القرض والنسبة والمستحب . والنهى يعطى المحرم ، والمكروه المكروه عنه مباح ، هذا هو التكليف الشرعى ، وهو مبدأ الاختيار ، وهذا التكليف الشرعى يتدرج تحته الأمر بفعل الخير ، سواء كان تعديلاً أو محاشياً ، ومن هنا تعتدل موازين العدل الاجتماعى .

(٢) النذير: الذى ينذر الكافرين والمشركين والمعصاة بعذاب الله . وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَوَلِيّاتُكُم بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُنَّ بِمَا لَهُنَّ مِنْ شَرٍّ وَمِنْ خَيْرٍ...﴾ [البقرة: ١٢٩] .

(٣) البشير: الذى يبشر القوم بالخير السار ، وهو هنا يعنى الرسول الذى يبشر المؤمنين بشواب الله وجمته جزاء على إيمانهم وعبادتهم . قال تعالى: ﴿فَأَنبَأْهُمْ أَنِ بِسْمِ اللَّهِ لَئِيْشُرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِيرٌ لَهُ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: ٩٧] . أى: قوماً شديدي الخصومة . وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ [البقرة: ٢٥٠] . [القاموس للقرين - بصرف] .

(٤) النذير: الإنذار واللعن ، وجمعه نذر . قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ...﴾ [الأنعام: ١١٠] . والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب ، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِيْ وَنُذْرِيْ﴾ [القمر: ١٧] . [القمر: ١٧] .

إذن : فأنت تنذر ابنك ؛ ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى
الفشل الدراسى .

وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين
يسلك الطريق القويم .

إذن : فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبِعاً
ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل»
و «لا تفعل» فهو مباح .

وعلى الإنسان المسلم أن يُبَصِّرَ نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى
ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل»
ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم
تحرُّى الدقة فى مدلول كل سلوك .

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن
اللازم أن نبين للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير .

ومثال ذلك : حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة
البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ،
وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد .

ويبين الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم
عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو
نذير وبشير من الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (٢) ﴾

[هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة^(١) ؛ لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير أجل أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس.

لذلك بين الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمۡ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَىٰ إِلَهِكُمْ مِّنۢ مَّا حَسَنُوا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمۡ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍۭ﴾

(١) البشـرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخير السار . والبشر الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ، لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبشراب الله . يقول الحق : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ قَاهِناً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الاحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُتفع به وما يُتَمَتع به . قال تعالى : ﴿إِسْفَافُ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ ..﴾ [الرعد] أى : ومنع أشياء يُتفع بها . وقوله تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ..﴾ [الزخرف] . أى : أطلت مدة انتفاعهم بالحياة ونعيمها ، ومتعة ومتعة بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿وَنَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَذَاراً لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف] أى : متاعاً للمسافرين التاركين ديارهم خاوية . أو متاعاً للعالمين . (انظر : ابن كثير ٢٩٧/٤).

وهكذا يبين الحق سبحانه أن العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي ؛ لأن درء^(١) المفسدة مقدم على جلب^(٢) المصلحة ، وحين يجعل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيقتل حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَقَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ (٣)﴾

[هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في قوله تعالى :

﴿...فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)﴾

[طه]

وقال في موضع آخر :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَلْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (٩٧)﴾

[النحل]

فالحياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

(١) الدرع : الدفع والإبعاد .

(٢) الجلب : سَرَق الشيء من موضع إلى آخر . وجَلَب الشيء : طلبه وكسبه . [لسان العرب : مادة (ج ل ب)] .

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض في ظاهره قول النبي ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١). «وإن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل»^(٢) فالأمثل»^(٣).

وقال بعض العلماء : فكيف تقول : ﴿يُمَتِّعُكُمْ مُتَاعًا حَسَنًا ..﴾ (٢) [هود]

هنا نقول : ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانسباط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بآية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِمَ من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه في سننه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة . قال النووي في شرح مسلم (٣٠٥ / ١٨) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون بمنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان . وأما الكافر فلأنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمتنفسات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أي الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أي : أفضل وأدنى إلى الخير . وأمائل الناس : خيارهم . [لسان العرب - مادة : مثل] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢ / ١) والترمذي في سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبي وقاص . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وقام الحديث : أويس بن الجهم على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء^(١) .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيب رجله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقْدًا» أى : مادة تُخدّره ، وتغيب به عن الوعي ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إنى لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاض عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفئوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه : ﴿ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا نَفَا غُلَامًا لَقِيَهُ قَالَ أَقْبَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴾ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْمَعَ مِنِّي صَبْرًا ﴾ (٧٥) [الكهف] . ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح : ﴿ ... مَا تَنفَعُ بِنَاوِيلِ مَا لَمْ تَنْطَعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٧٥) أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْسَلَتْ أَنْ أَمْسِيهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٦) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٨٥) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ (٨٦) [الكهف] .

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة ^(١) قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقده .

ولذلك لمجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُباد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثاني :

حالتنا في بلادنا إن أعطينا شكرنا ، وإن حرمتنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب في «بلخ» ^(٢) أي : أن الكلب إن أعطته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثاني العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا ^(٣) ، وإن حرمتنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

(١) قال الشيخ : « قل البلاء خير من هزة النعماء »

(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .

(٣) أي : إن نالنا العطاء فإننا نؤثر غيرنا به . أي : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا .. (٣)﴾

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذى لا يترك كتبه ، بل حين يأتى وقت الطعام ، فهو يأكل وعينه لا تفارق الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

[هود] ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٤)﴾

أى : يؤتى كل ذى فضل مجزول^(١) لمن لا فضل له ، فكان الحق سبحانه ينمى الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذى يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليذره فى الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أى : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شيء ، والجزل الكريم المطاء [المعجم الوسيط : مادة (ج ز ل)] .

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ^(١) عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق .

إذن : فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، وفيضها عليهم ، فهي تزيد عنده لأنها تربو^(٢) عند الله ، وإن لم يُفضَّها على الغير فهي تنقص .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِّتَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تَرْيَدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَّعُونَ ﴾^(٣) [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. ﴾^(٤) [مود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذي يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذي نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضل فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل .

(١) أسبغ : أنعم وأجزل العطاء . وسبغ الشيء : تمامه واتساعه . [المعجم الوسيط : مادة (س ب غ) بتصرف] . وقال تعالى : ﴿ وَاسْبِغْ عَلَىكُمْ نِعْمَةً طَائِفَةً وَبَاطِنَةً .. ﴾^(٥) [الفمان] .

(٢) ربا الشيء ، يربو : زاد ونما . وأربيت : كبرت .

(٣) أضعف الرجل : نما ماله وزاد واتسع ، فصار أضعافاً . واسم الفاعل مُضعف : ﴿ .. فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَّعُونَ ﴾^(٦) [الروم] أي : الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة . قال ابن كثير في تفسير

هذه الآية (٤٣٤ / ٣) : أي : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسر ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والشعبي ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نُهي عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ النَّاسِ .. ﴾^(٧) [المائدة] . أي : لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباهان : فرباً لا يصح ، بمعنى : رباً البيع ، ورباً لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِّتَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾^(٨) [الروم] وإنما الثواب عند الله في الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿...وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا يتسنى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾

أى : إلى الله مرجعكم^(١) فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسئء على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة.

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار.

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط.

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة.

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ... (٥٥)﴾ [آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ... (٣٧)﴾ [يونس].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٣١﴾

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك^(١) العيش وقلق النفس .
ويؤتى الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ؛
وفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يخاف عليهم من عذاب
يوم كبير .

﴿... وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٤]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية
المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿الْأَيْتُمُ يَنْتَوْنُ صُدُورُهُمْ لَيْسَتْ خَفَوا مِنْهُ الْآحِينَ
يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٥]

(١) الضنك : ضيق العيش . ومنه قوله تعالى : ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً...﴾ [٧٤] ﴿وله]

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦٨) : «فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدوره ، بل صدره ضيق حرج
لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، وليس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص
إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة .

(٢) ينتون صدورهم : يطوونها على عداوة المسلمين ، ويكفون لهم البغض والكراهية .

(٣) الاستخفاء : طلب الخفاء والاختفاء . ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى ، وهو سبحانه
لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال تعالى : ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء﴾ [٢٠] [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿إن تدبوا شيئاً أو تكفوا فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ [٢١] ﴿
[الأحزاب] .

(٤) يستفشون ثيابهم : يتغطون بها مبالغة في الاستخفاء . [كلمات القرآن] .

(٥) ذكر الواحدى في «أسباب النزول» (ص ١٥٣) أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً

حلوا الكلام حلوا المنظر ، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب ، ويطوى بقلبه ما يكره .

وقال الكلبي : كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمر أسرته ، ويضم في قلبه خلاف ما يظهر .

وإذا وجدت «ألا» فى أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذى تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذى تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجرى الكلام الذى تقوله ، وقد تهيأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

ف «ألا» - إذن - هى أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذى ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذى يملك زمام الموقف ، وهو يهين ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع^(١) .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. ﴾ (٥) [هود]

ويقال : ثنيت الشيء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

(١) وردت ألا فى القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه ، فندل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافَهُاءُ وَلَكِنْ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧) [البقرة] ، ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. ﴾ (A) [هود] .

الثانى والثالث : التحضيض والمرض ، ومعناهما طلب الشيء ، لكن الأول طلب بحث ، والثانى طلب بلين ، وتختص فيهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ .. ﴾ (١٧) [التوبة] ، ﴿ .. أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١٢٢) [النور] .

انفعال مواجيد^(١) النفس البشرية ينضج على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تنضج مواجيدهم الكارهة .
ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتْكَارًا ۖ ﴾ [نوح]

ومن البدهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأذن^(٢) تسد فقط فتحة السمع ، وعدل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أى دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نحمد القرآن الكريم وهو يتقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ۚ ﴾ [فصلت]

فكأنهم توأموا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن

(١) مواجيد: مفرد موجدة. وقد وجد فلان رجداً: حزن أو غضب . والمراد: انفعالات النفس البشرية

[المعجم الوسيط: مادة (وج د)] بتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم: تغطوا بها كي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٢٨٩/٨) طبعة دار الفكر .

(٣) الأذنلة: عقدة الإصبع أو سلامها . وهي أيضاً: المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر . والجمع: أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) الغوا: ما لا يمتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : اتوا بالغوا بالبطل عند قراءته [كلمات القرآن] . قال ابن عباس : بالتصغير والتخفيف على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢١/٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

لو تنهى^(١) إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتي للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء في العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ... ﴾ (٥)

[هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التي تحملها هذه الوجوه^(٢) ، وهى انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد يفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً^(٣) ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبي ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرّ على بيت النبي ﷺ مصادفة^(٤) .

وفي ذلك يقول الشاعر :

(١) تنهى : بلغ ووصل . الإنهاء : الإبلاغ . أنهيت إليه الخبر : أبلغته له . (لسان العرب - مادة : نهى) .
(٢) قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حتى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضمر في نفسه همه . ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) .

(٣) قسرياً : أى خارجاً عن إرادة الإنسان .

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو بعلى من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فنلازموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهاكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥) .

اذْكُرُوهُمْ وَقَدْ تَسَلَّلَ كُلٌّ بَعْدَ مَا انْفَضَّ مَجْلِسُ السَّمَارِ^(١)
اِخْتِلَاسًا يَسْعَى لِحِجْرَةِ طَه لِسَمَاعِ التَّنْزِيلِ فِي الْأَسْحَارِ^(٢)
عُذْرَهُمْ حُثُّهُ فَلَمَّا تَرَاءَوْا عَلَّلُوها بِبَارِزِ الْأَعْدَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية بـ «ألا» في قوله :

﴿.. أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٥)﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على الإدارة على رب
محمد ؟ والذي لا يدركه بصر محمد فرب محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه
وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ،
ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق
سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطيء ؛ لأنه يعلم السر
والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة^(٣) ، وهي
ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿.. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٤) (٥)﴾ [هود]

(١) السمار : هم الناس يسرون بالليل ، ويكون عادة في ضوء القمر .
(٢) الأسحار : جمع سحر ، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى : ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ
يَسْتَفْتُونَ (١٨)﴾ [الذاريات] .

(٣) عليم : صيغة مبالغة من العلم ، أي : بالغ العلم لا حد لعلمه سبحانه .
(٤) الصدر : مقدم كل شيء وأوله ، وصدر الإنسان معروف ، ويدخله أضلاعه وقلبه وريته . وفي
الصبر تظهر آثار الانفعال انقباضاً في الحزن وانشراحاً في السرور ، قال الحق سبحانه : ﴿لَمْ نَشْرَحْ لَكَ
صَبْرَكَ (٦١)﴾ [الشرح] وقال : ﴿.. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦٦)﴾ [آل عمران] أي : بالأسرار
للمصاحبة للصدور [القاموس القويم باختصار] .

نجد فيه كلمة «ذات» وهي تفيد الصفة ، و(ذات الصدور) أى : الأمور المصاحبة للصدور.

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتهى إليها، وصارت حقائق ثابتة، وعليها تدور حركة الحياة. ويُقصد بـ «ذات الصدور» أى : المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة.

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجرم^(١) نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواتمه من باب أولى معلومة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

(١) جرم كل شيء : جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه الذكر والمؤنث ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿وَبَثَّ لَهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ..﴾ (البقرة) تشمل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ..﴾ (الشورى) ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة .

أما قوله تعالى : ﴿وَكُلٌّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّهَا ظَنُّوا﴾ (الأنعام) ، الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (ولياكم) .

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأصلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها : موضع استبعادها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأصلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يشنون صدورهم . وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ويُنَّ أنه عليهم بكل شيء . وقال سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. ﴾ (٦)

[هود]

والدابة : كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص للدلالة على أى كائن يدب على الأرض غير الإنسان . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنِمْ أَمْثَالُهُمْ .. ﴾ (٢٨)

[الأنعام]

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه سُفِّلَ - حينما كُلف - بخواطر عن أهله ، وتساءل : كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلي ؟

فاوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلق ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك ^(١) شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال : إن الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر

(١) لاك الشيء يلوكه لوكاً : مضغه . [اللسان : مادة (ل و ك)] .

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت ^(١) ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالزواج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية ويتفعل بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللکافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدد ويكثف في الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا . ^(٢)

(١) القوت : ما يمسك الرمح من الرزق . وفي الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [لسان العرب : مادة (ق و ت)] .

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله في حقهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا نَخَافُ أَلَّا نُخَافُوا وَأَنبَشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٢١) نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَإِنَّا لَآخِرَةُ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتمون أنفسكم ولَكُمْ فِيهَا مَا تُدْعَوْنَ (٢٢) تَوَلَّوْا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (٢٣)﴾ [فصلت]

وفى هذا تحكم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .. (٦) [هود]

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هى على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ .. (٦) [هود]

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يعلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شيء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) : الرزق حقيقته ما يتغذى به الحي ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ، وهكذا الأمتثال ترزق اللين ، ولا يقال : إن اللين الذى فى الثدي ملك للطفل . وقال تعالى : ﴿ وَبِالْسَّحَابِ رِزْقُكُمْ ﴾ .. (٥٦) [الفراوات] وليس لنا فى السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتي لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلُّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ [هود]

أى : أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتي على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما كتبه .

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شيء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة وفق ما كتب .

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرى^(١) عن رسول الله ﷺ الوحى ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتبتْ ، ويأتى كل نجم من القرآن فى مكانه الذى قاله النبى ﷺ لأصحابه ، فكيف كان يحدث ذلك ؟
لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ :

﴿ سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) التسمية : انكشاف الوحى عنه ﷺ ، بما فيه من شدة نؤدى إلى أن ينصب رسول الله ﷺ عرقاً .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ
عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة.

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض
والسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل
من طرفه عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح
مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادي» ،
فهو يضع جزءاً من مادة الزبادي - وتسمى «خميرة» - في كمية مناسبة من
اللبن الدافئ ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك
اللبن المخلوط بخميرة الزبادي ، وبعد مضي أربع وعشرين ساعة يتحول
اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادي بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهي أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن
أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتي بكلمة «كن» .

أو كما قال بعض العلماء : إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض
والسموات في ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

(١) العرش في اللغة : سرير الملك . وقد سمي سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش ، فقال سبحانه : ﴿... وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٦)﴾ [النمل] . وعرش الباري سبحانه لا يحُدُّ ، ذكره رب العزة في كتابه (٢١ مرة) مضافاً
إليه سبحانه .

(٢) ليلوكم : ليختبركم ، وهو أعلم بأمركم .
أحسن عملاً : أطوع لله وأروع عن محاربه . [كلمات القرآن] .

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ۖ ﴾ (٧) [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا : إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ^(١) ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٢) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي ^(٣) مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ^(٤) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمَ ^(٥) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ^(٦) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ^(٧) فَقَضَاهُنَّ ^(٨) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ۖ ﴾ (١٢) [فصلت]

(١) الند : المثل والتظير . وجمعه : أنداد . وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ۖ ﴾ [البقرة : آى : أمثالا شركاء . تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) رسا الشيء : رسمو رسوا : ثبت ووسخ ، وأرساه : جعله ثابتاً راسخاً ، وأرسي السفينة : ثبتها على الشاطئ فلا تسير . والمراد بالرواسي : الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَبْسُطَ بَكُمْ ۖ ﴾ [النحل] وقال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ^(٣) ﴾ [التأوهات] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) الأقوات : جمع قوت . وهو ما يمسك الرمن من الرزق . وفي الصحاح للجوهري : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [اللسان - مادة : قوت] .

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ۖ ﴾ (١١) [فصلت] . الدخان : بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض . ذكره ابن كثير في تفسيره [٩٣ / ٤] .

(٥) فقضاهن : خلقهن . فالقضاء هنا بمعنى الخلق . وهي من الكلمات التي تأتي على وجوه كثيرة من المعاني ، ومن معانيها :

الفراغ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَ مَنَاسِكُكُمْ ۖ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

الأمر : ﴿ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا ۖ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ۖ ﴾ [القصص : ١٥] .

الوصية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۖ ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

ويوم الدين : يوم القيامة . ويوم حنين : حدثت فيه موقعة حنين . واليوم عند الله مقداره يختلف عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة ، ولكل نجم يومه ، ولكل كوكب يومه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَالْفَسْفَسِ مِمَّا تَعْدُونَ ﴾ (الحجج) . وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ .. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج) ، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى في خلق السموات والأرض : ﴿ فَنفُخُفْنَهُنَّ نَفْخَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴾ (فصلت) فالله أعلم بمقدار هذين اليومين . [القاموس الفروع - يتصرف]

متضمنة يَوْمَى خَلَقَ الْأَرْضَ^(١) ، ثم جاء خلق السماء في يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهي أن الذى أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك فى أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربى ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذى خلقها ، وهى لمن ادعاهما إلى أن يظهر مُعارض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ^(٢) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٧) ﴾ [هود]

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ : «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تسعة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» .

(٢) يبلو الشئ - يبلوه ببلواً وبلاء : امتحنته واختبرته ، قال تعالى : ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٢٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ؛ لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوكُمْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْقَتْ .. (٢٤) ﴾ [يونس] أى : تعرف حقيقة عملها الذى قدمته كما يعرف المختبر الشئ الذى يختبره . وقوله تعالى : ﴿ .. وَتَبْلُواْ خَيْرَاتِكُمْ (٢٦) ﴾ [محمد] . أى : نعرف صدقها من كذبها . ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ؛ تمهيداً للشواب أو العقاب . [القاموس القويم] بتصرف .

أى : ليختبركم أيكم أحسن عملاً^(١) ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟
إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟
لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد
بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم .
وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ قُلْتُمْ إِنَّا كَافِرُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧)

[هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ،
فهم يلتقون بالألفاظ على عواهنها^(٢) من قبل أن تمر على تفكيرهم .
فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحال منطقياً أن
يقولوها .

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من
بعد الموت .

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ تلا : ﴿ إِنَّا أَحْسَنُ عَمَلًا .. ﴾ (٧) [هود] . قال : « أيكم أحسن عملاً ،
وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » أورده القرطبي فى تفسيره (٤/٣٣٢٧) والسيوطى فى
الدر المنثور (٤/٤٠٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه .
(٢) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره ، وقيل : هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل : إذا تهاون به .
وقال ابن الأثير : المواهى أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام ، جمع عامية . وههنا الشيء : أى :
أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل ، من خطأ وصواب . أى : عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به
والقائه على حاله . [اللسان : مادة (ع ه ن)] بتصرف .

وهذا كلام إخباري بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا :

﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

والخبر الذى يقرله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكان النص نفسه من السحر الذى حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر فى القرآن الكريم دليله منطقى مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - فى عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه .

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له فى عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التى سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحروهم جميعاً .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة «سِحْرٌ مُّبِينٌ» تعنى : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ
مَا يَحْبِسُهُ أَالْيَوْمَ يَا أَيُّهُمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

وساعة نجد ﴿لن﴾ فافهم اللام الأولى التي بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : «والله لن» .

والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس . .

(١) الأمة : اسم مشترك ، يقال على ثمانية أوجه :

- ١- فالأمة تكون الجماعة ، كقوله : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [القصص] .
- ٢- والأمة : أتباع الأنبياء عليهم السلام .
- ٣- والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ۖ سَمِعَ الْمُشْرِكِينَ لَنِعْمَ أُمَّةٌ قَانِتٌ لِلَّهِ قَلِيلٌ ۚ ﴾ [النحل] .
- ٤- والأمة : الدين واللغة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ۖ ﴾ [الزخرف] .
- ٥- والأمة : الحين والزمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِثْنًا مِّنْ مَّوَدَّةٍ ۖ ﴾ [هود] .
- ٦- والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه .
- ٧- والأمة : الرجل المفرد بدينه وحده ولا يشركه فيه أحد . قال النبي ﷺ : «يحدث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» .

٨- والأمة : الأم . يقال : هذه أمة زيد ، يعني : أم زيد .

[راجع تفسير القرطبي (٣٣٢٧/٤) ، ولسان العرب] .

(٢) أمة معدودة : إلى أمد محدود أي : أجل محدد . والأمة في هذا الموضع : الأجل والحين . وقال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ۖ ﴾ [يوسف] .

(٣) يحبس : يمنعه .

(٤) حاق بهم : نزل بهم ، وأحاط بهم . وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ بِأَلْ يَدَيْهِ سَوَاءً الْعَذَابَ ﴾ [غافر] .

[مختصر تفسير الطبري] بتصرف .

إذن: فالقسم يأتي لشك طراً^(١) عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء .

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيذاً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ .. (أ) ﴾ [هود]

فالواو هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب نكتفى بجواب واحد ، مثلما نقول : « والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا » .

وهكذا يُغنى جواب القسم عن جواب الشرط . والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذى يغنى جوابه عن الآخر .

مثلما نقول : « والله إن جاء فلان لأكرمه » ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت : إن جامك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم .

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتى بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول : « زيد والله إن جامك أكرمه » ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجع هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ .. (أ) ﴾ [هود]

(١) طرأ الشك : حدث ووقع فى عقل السامع مما يستدعى من التكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقه سامعه .

والجواب هنا للتسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط .

أى : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استتصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف^(١) به الأرض .

فكان مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذب الكافرين فى المعارك .

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء^(٢) ليكون لهما معنى واضح فى الحياة ، والإمهال للظالم^(٣) ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

(١) قال عز وجل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التكوير] ، أما الذين عذبوا بالحاصب - وهى الرياح العاتية الشديدة البرد الحاملة لحصباء الأرض - فهم قوم عاد .

أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو قارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما .

(٢) الإملاء : الإرجاء والإمهال . قال تعالى : ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف] . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليُملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ رَبِّهِ ظَالِمًا إِنَّ أَخْذَهُ أَهْمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) البر والصلة .

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أقول دائماً:

إن من دواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضّر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لفرحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول:

﴿ . . وَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(١) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذي شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشقى .

وهنا يبيّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتكم بالعذاب . ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا: أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم :

(١) طائفة: جماعة. قيل: ثلاثة. وقيل: أربعة، عدد شهود الزنا. والمراد بالعذاب في هذه الآية الكريمة

هو حد الزنا لغير المحصن. ونظام الآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النور] .

[تفسير الجلالين] بتصرف.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا ^(١) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [حر]

والقط: هو جزء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى: القطع.

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال:

﴿ ..اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٢) [الأنفال]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم:

﴿ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٢) .. ﴾ (٢٢) [الإسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحدياً وسخرية واستهزاء .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ .. ﴾ (٢٣) [الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

(١) قِطَّنَا: أى: نصيبنا من العذاب الذى أوعده . [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف]. وقط الشيء وقططه: قطعه . [المعجم الوسيط].

(٢) كِسْفًا: قطعاً . [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن]. والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء): القطعة من الشيء . والجمع: كِسَفٌ، وكِسْفٌ. وقد قرئت كسفاً بفتح السين، وقرئت بتسكينها . [المعجم الوسيط: مادة (ك س ف)].

التي تمكنهم من مجابهة^(١) الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك في سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا ^(٢) أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ^(٣) فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ ^(٤) بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ^(٥) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٦) ﴾ [الفتح]

أى : لو تميز الكافرون عن المؤمنين لسلط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذي كان في الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنشورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين في جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين^(٧) ،

(١) للمجابهة : أى : المواجهة والرد على الخصوم . وقد جبهه : أى : صك جبهته ، أو قابله بما يكره ، أو رده عن حاجته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهدى : البدن التي ساقها الرسول ﷺ لتحرر عند الحرم ، وهو من مناسك الحج . ومعكوفاً : محبوساً ومنوعاً عن الوصول إلى مكان النحر وهو الحرم . [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] بتصرف .

(٣) تطوهم : تهلكهم مع الكفار .

(٤) معرة : مكروه ومشقة أو ميبة .

(٥) تزايلا : تميزوا من الكفار في مكة . [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف .

(٦) لذلك قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقُولُوا لَا تَنْفِي إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَنْتَ مُؤْمِنًا تَتَحَوَّنَ خِطَابَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَبِعَذِّ اللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِكَاذِبِينَ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ^(٧) ﴾ [النساء] .

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المقداد بن الأسود قتل أعرابياً قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه ، فقتلته ، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل » أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٩٤) وعزاه للبخاري . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٣٣) للدارقطني في الأفراد والطبراني من حديث ابن عباس .

وهذا ما لا يريد الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْدُودَةٍ... ﴾ (٨) [هود]

والأمة : هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإنس ، وأمة الجن ، وأمة النمل . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ ﴾ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٢٨) [الأنعام]

والأمة : طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها متساوون في كل شيء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة . وهناك الأمة : الطائفة من الزمن . مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ ۚ بَعْدَ أُمَّةٍ... ﴾ (٤٥) [يوسف]

أى : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون الفترة المسماة «أمة» ، هي الزمن الذي يتحمل جيلاً من الأجيال .

الأمة - إذن - هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات فردية ، وهي تلتقي في معنى عام .

(١) ما فرطنا : أى : أن الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتليينه سواء أكان برياً أو بحرياً . قاله ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣١) .

(٢) ادكر : أصلها اذتكر . على وزن افعل ، فليت تاء الافتعال دالا وقال الفعل دالا ، وأدخمت الدالان . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ لَعَلَّ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (١٧) [القمر] .

فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص في كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال ؛ ليعمل غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويعمل الباقين ، وهكذا .

وفي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، ومباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضلاً من أحد على أحد .

والذي يكتسب الشارع أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أخلص في عمله فالله سبحانه يحبه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحمل الأقدار على كتفه ، وحين وسّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما يترحه من تلك المجارى .

وحين وسَّع الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسي ، ويدبر «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترام قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستكف^(١) ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرئ فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

[الزعرور]

سُخْرًى^(٢) .. (٣٧) ﴿

(١) الاستكاف : الاستكبار والامتناع وأن تأخذه الأنفة من فعل الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ عِدَا اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ مِنْ عِبَادَتِهِ وَسُخْرٍ لَهُمْ فَنُحْشِرْهُمْ إِلَيْهِ أَجْمَعًا﴾ [النساء] .

(٢) سُخْرًى : سُخْرًا فى العمل ، مستخدماً فيه . [كلمات القرآن] أى : يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال المختلفة حسب إرادة كل منهم لها . وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا ؛ ليرابط الناس ويتألفوا ، ولا يتعزل كل منهم بعيداً عن الآخرين قصد الحياة .

لأن أحداً لا يسخر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخر في حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل : ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذي يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذي يتقنه .
ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه .
وهكذا تتربط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .
وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ۖ ﴾ .. (١٢٠) [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ۖ ﴾ .. (٨) [هود]

وعادة ما تأتى كلمة «مَعْدُودَةٌ» لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة الفانت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ۖ ﴾ (١٢٠) [النحل] قال : الأمة معلم الخير ، والقانت : المطيع لله . ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٩٠) .

(٢) أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة . [كلمات القرآن] .

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٢٠)
[يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب في فهمنا لكلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقبل على عَدِّ شيء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقبل على عَدِّه فهو الكثير.

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم.

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ..﴾^(٢٤) [إبراهيم]

و«إن» - كما نعلم - تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر.

ورغم أن البشرية قد تقدمت في علوم الإحصاء فهل تفرغ أحد ليحصى نعم الله ؟

طبعاً لا .. وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أى مجال أو تخصص.

وقديماً^(٢١) كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات

(٢٠) شروه : باعوه . قيل : هم السيارة (القافلة) تبايعوا يوسف - عليه السلام - بثمن بَخْسٍ : قليل . وقيل : حرام ؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه . وكانوا فيه من الزاهدين : قيل : هم السيارة كانوا فيه زاهدين ، لا يعلمون كرامته على الله تعالى ونبوته . [مختصر تفسير الطبري].

وذكر الجلالان في تفسيرهما أن «بَخْسٍ» أى : ناقص . وأن الدراهم للمعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً . وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين ، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذي اشتراه بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين . [تفسير الجلالين] بتصرف .

(٢١) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أن كان وكيلاً للدهوة بوزارة الأوقاف .

معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكيلو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿وَلَنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْدُوْدَةٍ لِّقَوْلُنْ مَا يَحْبِسُهُ .. (٨)﴾ [هود]

كانهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا يتأخر العذاب الذي توعدّهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم .

ويأتى الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهى «ألا» أى : تنبّهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا^(١) عَنْهُمْ .. (٨)﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون .

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿.. وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾ [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : «ألا» وهى أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذى يخبر به هو الله سبحانه وتعالى .

(١) ليس مصروفاً : ليس مدفوعاً . [تفسير الجلالين] .

وأيضاً فهذا العذاب : ﴿لَيْسَ مَصْرُوقًا عَنْهُمْ .. (٨)﴾ [هود]

أى : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿.. وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾ [هود]

يعنى : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل .

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى ^(١) ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

وكلمة «أتى» فى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل .

(١) هنا التعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ؛ لتحقيق الوقوع ، وقد يُعبّر بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿إِنِّى لَأَوْتَى فِى الْعَتَمَةِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. (١٠٩)﴾ [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة ؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب في أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب: دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا. فهو لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن: ففي المجال البشري أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا تستطيع أن تحكم عليه ؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبى^(١) على الله سبحانه .

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آت لا محالة .

(١) أي الشيء : يأباه من باب فرح - إباء وإبادة : وأبى الشيء أباه - من باب ضرب - امتنع عنه وكرهه ولم يرضه . قال الحق سبحانه : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى .. ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ فَأَبَى أَنْ يُسَبِّحَها .. ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ .. ﴾ [التوبة] ويتأبى يمتنع . القاموس القويم بتصرف .

ولذلك قال سبحانه :

[هود]

﴿وَحَاقَ بِهِمْ .. (أ)﴾

مع أن السياق في العرف البشرى أن يقال : وسيحقيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب .

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى عاتق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِثْرَ حِمَّةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ

إِنَّهُ لَيَتَوَسَّسُ كَفُورٌ^(١)﴾

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿وَلَيْنَ﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول : لنن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع فى اليأس .

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها : تناول الشيء لإدراك طعمه : حلوا أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، قلوى أم حامض .

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان ينفعل لطعم معين ، ووسط اللسان ينفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا .

(١) يتوسس : صيغة مبالغة من اليأس . أى : يظل يائساً قانطاً من رحمة الله وغيره . وكفور : صيغة مبالغة من الكفر أى : قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو جحدها وعدم شكر الله عليها . [مختصر تفسير الطبرى] بنصرف .

كل ذلك فى عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة فى التركيب .

وكل «حلمة» من مكونات اللسان لها شىء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكثافة - فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال : إنه مصاب بالهبوط . وإن ارتفعت يقال : مصاب بالحمى .

وهذا قياس للحرارة بالجلمة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها . ولكن كل عضو فى الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدى عمله .

فالكبد إن قلّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدى مهمته . وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات .

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ۖ (٦) ﴾

[هود]

والذوق هو للإدراك^(١) ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة يقول لك البائع : «تفضل دُق» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشىء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالذوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه .

والنعمة ^(١) حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .

والنعمة مهما قلّت فالإنسان يستطيعها ، وإن نُزعت منه فهو يتوس كفور .

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك الذل ، ولو كان يقدر عليه لما يتس .

والمؤمن لا ييأس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القاتل :

﴿ .. إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحٍ ^(٢) اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه .

والذي ييأس هو الذي ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : «إن الله سيُعوّضني خيراً منه» .

أما الذي لا إيمان له بإله فهو يقول : «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى» .

(١) نَعْمَ يَنْعَمُ فهو ناعم ، من باب فرح ، ويأتي من باب كرم ، نعمة ونعمة بفتح النون وكسرها . ونعيماً كأن في رغد من العيش ، وفي تمتع به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكّل وملبس وصحة ، يقول الحق : ﴿ .. لِيْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٢١) ﴾ [يونس] أي : التي فيها كل نعيم . والنعمة بالفتح : النعيم ، وتطلق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق : ﴿ وَفِيهِ وَالْمُكَلِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١١) ﴾ [الزمل] في الدنيا ، والنعمة بكسر النون . مصدر بمعنى النعيم . وتطلق على المتاع والخير الذي يتمتع به الإنسان يقول الحق : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. (٢٠) ﴾ [النحل] للقاموس القويم . بتصرف .

(٢) روح لله : رحمته وفرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم . [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا يتقطع أمل الإنسان في الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كافراً .

فالإنسان الذي يُسْرِقُ منه جنيته قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده في المنزل عشرة جنيهاات فهو يحزن قليلاً على الجنيته المفقود .

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريد ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريد فلا تجده يائساً قانطاً .

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة ^(١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ۖ ۞ (١) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم - عليه السلام - وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتي كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن في موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ^(٢) (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ۞ (٣) ﴾

[العصر]

و«الإنسان» مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

(١) من صهيب الرومي قال قال رسول الله ﷺ : «حسباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩) .

(٢) الخسر : الهلاك والنقصان .

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو في خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى ليتنبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هي التي تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن السامعين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ ۚ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

والباحث العلمي التجريبي المعمل يفتقر في ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذي يوجه حب الاستطلاع .

(١) وكاين : بمعنى فوكم . وآية هنا : عبرة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى ، يرونها ويعاينونها ولا يفكرون فيها . [مختصر تفسير الطبري] .
وفد أخرج أبو الشيخ الأصبهاني عن الضحاك في تفسير معنى الآية : يعني شمسها وقمرها ونجومها وسحابها . وفي الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٩٣) .

إذن : فالقرائن لها مهمة يجب ألا تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلى من الغرائز ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نحمد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَجَسَّوْا ^(١) .. ﴾ (١٢)

[الحجرات]

أى : لا تتبعوا العورات ^(٢) ؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَيْفَ أَذِقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ مِنَّا نَنْزِعُهَا مِنْهُ ^(١) .. ﴾

[معد]

وكلمة «النزع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسّر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعنى : استمساك المتزوع منه بالشئ المتزوع .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ

[آل عمران]

تَشَاءُ ^(٢) .. ﴾

(١) لا تجسسوا : أى : لا تتجسسوا ، حذف منه إحدى التامين - لغرض بلاغى - والمراد : عدم تتبع عورات الناس ومعانيهم بالبحث عنها . [تفسير الجلالين] بتصريف .

(٢) العورة : ما يستره الإنسان من جسمه حياءً . والعورة : الخلل والميب . والبيت عورة : أى فيه خلل وقوله : ﴿ يَقُولُونَ إِنِّي هُمْ تَحِيزُ الْعَوْرَةِ ^(١) .. ﴾ [الأحزاب] أى : فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد ، القاموس القويم باختصار .

كَانَ الْمَوْجُودُ فِي الْمَلِكِ يَتَشَبَّثُ بِهِ جَدًّا.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا^(١) مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ^(٢)﴾ [هود]

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ^(٣)﴾

[هود]

ومسأتي لها بالخواطر من بعد ذلك .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة

والينوس الكفور:

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ^(٤) بَعْدَ ضَرَاءٍ^(٥) مَسَتْهُ^(٦) لَيَقُولَنَّ^(٧)
ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي^(٨) إِنَّهُ لَفَرِحَ^(٩) فَخُورٌ^(١٠)﴾

وهنا نجد الضراء هي الموجودة ، والنعماء هي التي نظراً ، عكس الحالة

الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هي الموجودة.

(١) المقصود الرحمة التي أنعم الله بها عليه .

(٢) النعماء : أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان ، فتكون ملازمة له .

(٣) الضراء : أثر الفقر والبس . وقال تعالى : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ..﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخْلَفْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ..﴾ [١١] [الأنعام] .

ومنه : أمابته . [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبري] بتصرف .

(٤) السيئات : المصائب والشدائد والعسر .

(٥) فرح : صيغة مبالغة من الفرح ، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن] .

(٦) فخور : صيغة مبالغة من الفخر ، أي : كثير الفخر بما نال من الناس ، وفخور على الناس بما أوتي ، وغير

شاكر لله تعالى على نعمه . [مختصر تفسير الطبري ، وتفسير الجلالين] بتصرف .

فالتزع في الأولى طراً على رحمة موجودة ، والنعماء طرات على ضرراً موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضرراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تنعم به النفس .

لكن التنعم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أى منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضرراء» .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي .. ﴾ (١٠)

[هود]

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُنْهَب الذي أذهب السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عني السيئات .

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يفرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ (١٠)

[هود]

وكان الفرح بالنعمة أذهله ^(١) عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب ^(٢) ، وقد تجد

(١) الذهول عن الشيء : أن يشغلك عنه أمر آخر . ذهل عن الشيء : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل . [اللسان، مادة : ذهل] .

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهي كرم الفعل . وكرم المناقب : حَسَنَ الخلق كرم الفعال . [اللسان] بتصرف .

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر .

ونحن نعلم أن التمييز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتمييز .

ولذلك نحمد النبي ﷺ يقول : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١) .

وفي إحدى المعارك نحمده ﷺ يقول :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٢) .

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٣) وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم .

ونحن نحمد المتصارعين أو المتناقسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧٦/٥) من حديث أبي هريرة . وعند الحاكم في مستدركه (٦٠٤/٢) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة .

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب ، لا إلى أبيه عبد الله ، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة ، وكان سيد أهل مكة ، وكان مشتهراً عندهم أن عبد المطلب بُشِّرَ بالنبي ﷺ ، وأنه سيظهر ، وسيكون شأنه عظيماً ، فأراد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتبنيهم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء ، وإن العاقبة له لتقوى نفوسهم . نقله النووي في شرحه لصحيح مسلم (٣٦٠/١٢) .

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب : أفررت من رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء : ولكن رسول الله ﷺ لم يفر ، وكانت هرازن يومئذ رصاة ، وإننا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكبنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بقلعه البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها ، وهو يقول : «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» .

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٢٣١٧) من حديث البراء بن عازب .

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولرد كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ ^(١) عَنْ أَمْرِ .. (٨٤)﴾

[الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صورهم القرآن في قول قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ^(٢) عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾

[القصر]

وكان مصيره هو القول الحق :

﴿فَخَسَفْنَا ^(٣) بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١)﴾

[القصر]

ولذلك قلنا : إنك تحصن كل نعمة عنك بقولك عند رؤيتها : «بسم الله ما شاء الله» ؛ لتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التي عنده .

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذي كان سينهار .

(٢) أوتيته : أى : اكتسبته . يقصد المال الذي رزقه الله إياه ، ولكن قارون ادعى أن علمه هو الذي جلب له المال ، فكفر بنعمة الله عليه ، فاستحق عقاب الله .

(٣) الخسف : خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتغور يقول الحق : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١)﴾

[القصر] وخسف القمر : نقص نوره ، وخسف الشمس يقع في أواخر الشهر العربي في أيام المحاق ، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس ، فإن كان الخجب كلياً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان كسوفاً . وجاء في اللسان الخسف : سورك الأرض بما عليها أى : ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى : أغابه فيها . القاموس القويم باختصار .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا في قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلُكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ ۝٥٨ ﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأنفسه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى ^(١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٥٩ ﴾

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾ ^(٢) هنا موافقة للأميرين اللذين سبقا في الآيتين السابقتين ، فهناك نزع الرحمة ، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضرأ» ، وكلا الموقفين يحتاج للصبر ؛ لأن كلا منا مقدور للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر للمحظية حكمة القادر سبحانه .

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ۖ ۝٥٩ ﴾ [هود]

(١) فقال عن قوم موسى أنهم قالوا لقارون : ﴿ .. لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ (٦١) ﴿ [القصص] أى :
الذين البطون الذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم . وقال تعالى : ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا
بِمَا آتَاكُمْ ۖ ۝١٢ ﴾ [الحديد] .

(٢) والذين صبروا ماضياً ، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَبَرُوا وصَابَرُوا وَذَابَحُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ فَعَلَّكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ۝١٠٠ ﴾ [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حُدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها ^(١) .
والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم ^(٢) لك فيه كالمرض مثلاً .

* أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة عدم وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأني الصبر حسب هذه المراحل ،
فسيدنا لقمان يقول لابنه :

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : « ما يكن عدى من خير قلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٠) ومسلم في صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة .

(٢) الغريم : الدائن ، والمدين . والجمع : غرماء والمراد بالغريم هنا : الخصم أو العدو . [اللسان، والمعجم الوسيط] يتصرف .

سُورَةُ الْأَمْوَرِ

٦٣٥٧

﴿ .. وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(١١) [لقمان]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(١٢) [الشورى]

وفى هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يثير غضبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهاننى أو سرقنى أو أساء إلى إسائة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. ﴾^(١٧) [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(١٣) [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .
وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾^(١٦) [هود]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إليك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

(١) والصبر : إما صبر على المأمورات أو صبر على المنهورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توافرت فيه هذه المقامات كان من أهل العزم . وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها . [تفسير الجلالين] .

صارفاً لك عن نشاطك في طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعني أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعاشة الإيمان الذي يُخفف من غَلِّواء الغضب .

ولكسر حدة الغلِّ أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن توجه بطاقتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٩٤)

[البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم في نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكََاظِمِينَ الْغَيْظَ ^(١) .. ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامي ، مثلما تقول : « كظمت القرية » لأن حامل القرية لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أى : أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتي مرحلة أرقى ، وتتمثل في قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

(١) الكاظمين الغيظ : الحاسبين غيظهم في قلوبهم . [كلمات القرآن] .

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً ، وهو قادر على أن ينفضه ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء » أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠ / ٣) وأبو جارد في سننه (٤٧٧٧) والترمذي في سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال : حسن غريب .

أى : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتتسامح .

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن تردّ الاعتداء عليك بمثله ، والمثلية في رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعتك صفقة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم في الصفعة التي تردها إليه ؟

إن المتحكم في ردّ الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ .. وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٦)

[النحل]

فإن أزدت من قوة صفعتك تكون معتدياً .

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودي الذي أقرض رجلاً مالا ، وكان صكّ القرض يفرض أن يقطع اليهودي رطلاً^(١) من لحم المقرض إن تأخر في السداد .

وتأخر المقرض في السداد ، وأراد المراهي اليهودي أن يقطع رطلاً من لحم المقرض ، وعرض الأمر على القاضي ، وكان القاضي رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضي : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان ؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

(١) الرطل : معيار يوزن به أو يكال ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو في مصر اثنا عشرة أوقية ، والأوقية اثنا عشر درهماً . والجمع : أرطال . [المعجم الوسيط] .

وتردّد المرابى اليهودى ؛ لأن الجزار - أى جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابى اليهودى وتنازل عن دعواه ، والذي دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً فى مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا ^(١) على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولتكن من العافين عن الناس ^(٢) ؛ لننال محبة الله تعالى ؛ لأنه سبحانه يقول :

﴿ .. وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدى عليه هو الذى يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(١) الحظ : الحث والتشجيع على فعل شيء . [اللسان] بشصرف ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٢) ولا يحض على طعام المسكين (٢٣) ﴿ [الحاقة] .

(٢) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البيان ، وتُرفع له الدرجات ، فليعفُ عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢ / ٢٩٥) عن أبى بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قال الذهبى : « فيه أبو أمية ضعفه الدارقطنى وإسحاق لم يدرك عبادة » .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾^(١) أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ^(٢) .. ﴿٢٢﴾ [النور]

فإن أساء^(٣) أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟
إذن : فما دُمت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .. ﴿٢٢﴾ [النور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعمرو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المصيبة والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

(١) صفح عن رجل : عرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بنبئه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ تَعَفَّوْا وَلْيَصْفَحُوا وَتَعَفَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٥) [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ الْمَاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (١٥) [الحجر] . [اللسان] بصرف .

(٢) تمام الآية : ﴿وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفُضْلَ مِنْكُمْ وَالنِّعْمَةُ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) [النور] .

وقد نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر الصديق الذي حلف أن لا يعطى ابن خاتمه مطح بن أمية ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به في حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بمحادنة الإفك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مطح النفقة التي كانت عليه وقال : لا أترعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥) وأسباب النزول للواحدي (ص ١٨٥) ط . المكتبة الثقافية .

(٣) أساء إساءة : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيء اسم فاعل من أساء ، والمسيء النقيض ، والمنكر ، والسيئة : مؤنث السيء بمعنى القبيح . والسوء : ما يقيح إظهاره وينبغي ستره . الفاعل من القوم باختصار .

ولو اقتصصت أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق ؛ لأنك تركته إلى قوة القوى . وهكذا ينال العافى عن المسىء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - فى جانبه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس .

ونقول : إن الإحسان إلى المسىء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً^(١) أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاعات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومنزّه سبحانه عن كل مثل - إن أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدى عليه .

ومن يقول : كيف يكلّفنى الشرع بأن أحسن إلى من أساء إلى ؟

نقول له : تذكر قول الحسن البصرى رضى الله عنه^(٢) : «أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى » .

ولو طبق العالم هذه القاعدة بيقين وإخلاص لصارت الحياة على الأرض جنة معجّلة ، التسامح ، قوامها القرب ، ومنهجها الحب .

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من الفضل ، وفى التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصرى ، أبو سعيد ، تابعى ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة فى زمانه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك . ولد بالمدينة ٢١ هـ . وشبّ فى كنف على بن أبى طالب ، كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم ، سكن البصرة وتوفى بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

سُورَةُ هُودٍ



وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)

[هود]

وإن تساءل أحد : ولماذا ينالون المغفرة ؟

نقول : لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُشبيه الله تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً .^(١)

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

وهنا نجد الحق سبحانه يأتي بصيغة الاستفهام في قوله تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ ..﴾ (١٢)

[هود]

وهو استفهام في معرض النهي .

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لابنك لتحثه على الاجتهاد : «لعلك

(١) ومغفرة الله في مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسيء محدودة بحدود طاقة البشر ، أما غفران الله فقيه شمول الكريم وحسن الحكيم ؛ لأن عفوه مصحوب بالأجر ، والأجر كبير من أكبر وهو الله سبحانه .

(٢) وكيل : قائم به حافظ له [كلمات القرآن] . والوكيل : الحافظ الأمين والناصر المعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٧) [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ .. قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٩١) [الأنعام] أي : حافظ .

سُررت من فشل فلان» وَفَحَوَى ^(١) هذا الخطاب ، استفهام فى معرض التهنيت ، وهو استفهام يحتمل الرجاء .

وهنا تَجِدُ أن الراجى هو ربك - سبحانه وتعالى - الذى أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه مُبَيَّنًا : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذى تلح دائماً فى التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشر ^(٢) ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ما أقررت على نفسك ، فأنت لم تقل أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف التواميس ^(٣) ، بل أنت مُبَلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزل إليك ؛ لأن البلاغ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرك منهم ، وأنقصت البلاغ الموكِّل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذبوها ، فاعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذبوا .

(١) فحوى القول : مصمونه ومرماه الذى يتجه إليه القائل . والجمع : فحوا ، وفحواى . والمعجم الوسيط .

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى فى أحاديث شريفة كثيرة جداً :

- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبي الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبرون النخل ، يقولون يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً أفركوه ، فتفصت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : « إنما أنا بشر » ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ، فإنما أنا بشر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .
- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأما أحد دعوت عليه من أنسى بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقرية يقره بها منه يوم القيامة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) التواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق»^(١) اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : «فلان ناجر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة «ضائق» وهى تعبر فى مرحلة لا أكثر من قُرط ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كُتْرٌ .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكثر ؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركزت فى المال ؛ ولذلك تمنّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ^(٢) ﴾ (٢٦)

[الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواتمها ، طلبوا أن ينزل إليه كُتْرٌ ، وقد ظنوا أن الشراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى

(١) الضيق (بالكسر والفتح للضاد وسكون الباء) ضد السعة ، فى الماديات والمعنويات .

واسم الفاعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ حَذْرُهُ ﴾ (١٦) [هود] وقوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ قَرْعًا ﴾

(٢٧) [هود] . أى : وجد ضيقاً فى صدره ، ومنه : ﴿ رَلَقْدَ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٢٧) [الحجر] ، وقوله : ﴿ ..وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٢٧) [النحل] وقرئ : بفتح الضاد وبكسرهما .

والمعنى : ولا يضيّق صدرك بسبب مكروهم . (القاموس القويم باختصار) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن

مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو حمير بن عبد ياليل . قال

ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل^(١) .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكثر لا تشغله ﷺ .
والكثر^(٢) - لغوياً - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً -
مليئة باللحم يقال لها : « مكثرة لحمًا » ولكن كلمة « الكثر » أطلقت على
الشيء الذي هو ثمن لأي شيء ، وهو الذهب .
ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

[التوبة]

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٢٤) ﴾

(١) ذلك أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في
المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها
فمطيعاً أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، ثم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى
رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) في العشيرة والكان
في النسب ، وإنك قد أثبت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به
آلهم ودينهم وكفرت به من مضى من آباءهم ، فاصمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل
منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع . قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما
جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً
سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ،
قال له ﷺ : وأقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاصمع مني . قال : أفعل ، فقال : ﴿ حم
(٦) تنزيل من الرحمن الرحيم (٦) كُنَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ آيَاتِهِ قُرْآنًا مَرِئًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [فصلت] . ثم مضى
ﷺ فيها بقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع
منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خللوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون
لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن نصيبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب
فملككم ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . [من سيرة النبي لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ -
بتصرف] .

(٢) كنز المال يكثره كنزاً : جمعه وأدخره . قال تعالى : ﴿ .. هذا ما كنزتم لأنفسكم فأنفقوا ما كنتم تكزون

(٢٥) ﴾ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ (٢٥) ﴾ [التوبة] والضمير راجع إلى الفضة لقربها في الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فمن يبخل بها

يبخل بالذهب من باب أولى . [القاموس القويم] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شرباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغنى عن الرزق المباشر المستمر ^(١) .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطير ^(٢) مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة " كنز " هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : " نقود تحت البلاطة " ، ولكن إذا أدّى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كنزاً ؛ لأن الشرط في الكثر أن يكون مخفياً ، والزكاة التي تُخرج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفي ما عنده .

ولذلك لا يُسمى الكثرُ إلا للشيء المجتمع ومنوع منه حق الله تعالى ، فإن أدّى حقُّ الله سبحانه فقد رُفعت عنه الكثرية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾

[التوبة]

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيولة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطير : جمع قنطار ، وهو معيار مختلف المتعار عند الناس ، وهو بمصر في زماننا مائة رطل ، وهو ٩٢٨ ، ٤٤ من الكيلو جرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المعجم الوسيط] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالا ويؤدى حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَثْرًا^(١) ، وحين تُنقص الزكاةُ المالَ فى ظاهر الأمر ، فهى تدفع الإنسان إلى أن يُحسن استثمارَ هذا المال ؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاةُ المال هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثمِّره ، وهو بذلك يُهيئُ فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم فى التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هى إرادة الحق سبحانه وتعالى فى أن يجعل من تكامل المواهب ثماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوجد - النقود - ومواهب الجهد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هوى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما هوى ، فمالكُ السلعة يرغب فى البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب فى شراء السلعة يريد بها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذى يتحكَّم فى السلع ، فهذا توازن

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : اختلف العلماء فى المال الذى أدبت زكاته هل يُسمى كَثْرًا أم لا ، فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضحى عن جعفة بن هبيرة عن على رضى الله عنه ، قال على : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كثر وإن أدبت زكاته ، ولا يصح . وقال ابن عمر : ما أدى زكاته فليس بكثرة ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تُؤد زكاته فهو كثر وإن كان فوق الأرض ، ومثله عن جابر ، وهو الصحيح .

فى ميزان الاقتصاد .^(١)

وعلى سبيل المثال : إن عُرِضَت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات فى النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقنى صحياً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التى يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هى التى تتحكم ، أما إذا تدخل أحدٌ فى تسعير السلع ، بأن اكتتز المال ، ولم يخرجهِ للسوق لاستثماره ، حينئذ تخفى قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعة .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية :

﴿لَوْلَا أَنزَلْ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مِنْهُ مَلَكٌ ..﴾ (١٧) [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمنى ، وهم تمنوا الكثر أولاً ، ثم طلبوا مجيء مَلَك ، وكيف ينزل المَلَك ؟ أينزل على خَلْقِهِ أم على غير خَلْقِهِ بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ..﴾ (١) [الأنعام]

(١) قصد فى أمره يقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلماً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿واقصد فى مشيك ..﴾ (١٠٠) [لقمان] أى : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿فَسَنُفَعِّدُكُمْ ..﴾ (٢١) [لقمان] أى : معتدل غير منحرف يقول الحق : ﴿.. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ (٢١) [المائدة] والاقتصاد الآن أصبح علماً له مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه القرآن الكريم (المقاموس القويم بزيادة اختصارها المقام) .

(٢) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط . وقد تستعمل كإداة عرض وتخصيص مثل (هلاً) فتخصص بالدخول على الفعل المضارع فى مثل قوله تعالى : ﴿.. لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٦) [النمل] وتدخل على الفعل الماضى الذى فى تأويل المضارع مثل قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنزَلْ عَلَيْهِ كُتْرٌ ..﴾ (١٧) [هود] أى : لولا ينزل عليه كثر . وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا أُخْرِجْنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ..﴾ (٢٠) [الأنعام] أى : لولا تؤخرنى . (المقاموس القويم) بتصرف .

وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرفون إلى أصله كَمَلَك ؟
وهذا غباء في الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ ﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۚ ﴾ (٩٥) [الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكًا فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ،
وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس
وسوف يكذبونه أيضاً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول الحق سبحانه ردّاً لهم
عن هذا الطلب : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ ﴾ (١٢) [هود]

وهذا الكلام موجه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليلقنه الحجة التي يرد بها
عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب
غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا
على تكذيبهم ؛ فنكّل الحق سبحانه بهم ^(١) .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق
سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ ﴾ (٥٩) [الإسراء]

(١) النذير : الرسول المُنذِر بالعذاب . قال تعالى : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ ﴾ [الأعراف] .

(٢) وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَمِرَّا بِاللَّهِ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ نَبَأٌ لَّيْسَ بِهِ بَأْسٌ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ (١٦) وَتَقَلَّبَ أَلْقِدَتُهُمْ فَأَبْعَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٧) [الأنعام] .

أى : أن الآيات التى طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالندارة والبشارة ^(١) .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٣) ﴾ [هود]

وأنت حين توكل إنساناً فى البيع والشراء والهبة والنقل ، وله حرية التصرف فى كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرفه ، فإن أعجبك ظلمت على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرفه فأنت تلغى الوكالة ، هذا فى المجال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخلق ^(٢) فهي باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ^(٣) :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ

وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ (١٤) ﴾

وفى قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للون آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (١١٩) ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٣٧) ﴾ [آل عمران] ، فوكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ الْفَرَاءُ .. (١٢٢) ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ (١٤) ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما قد دعون .

[القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في الكون :

فإذا كان الواقع نقياً وأنت قلت قضية إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يوجد في الكون شراً ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌّ في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نقياً .

وكذلك أن يكون في الواقع نقيٌ وفي الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن اختلفت مع الواقع الكوني صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرقت الشيء أى : أنك أتيت لواقع وبدلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾ (١٠٠)

[الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءً .. ﴾ (١٧)

[العنكبوت]

أى : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾

(٢) [الأنعام] أى : نسبوا له بنين وبَنَاتٍ كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٣) الإنفك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْسُرُونَ ﴾ (٢٨)

[الأحقاف] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .. ﴾ (٦٧) [النور] .

﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦) [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نبوغكم ، وما دمتم قد قلتم : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سور منه ؟ وأنتم قد عشتم مع محمد منذ صغره ، ولم يكن له شعر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تعقد في الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان من لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فليكن لديكم - وأنتم أهل قُدرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر في مباراة ليلقى قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تعقد لجان تحكيم تُبين مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمداً ﷺ قد افترى القرآن - كما تقولون - فأين أنتم ؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

(١) يخْرُصُونَ : يَكْذِبُونَ . ويستعمل الخُرْصُ في القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطيء . قال تعالى :

﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦) [الأنعام] أي : يَكْذِبُونَ أو يُخَمِّنُونَ ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر

على سبيل اليقين . [القاموس القويم - ١٩١ / ١]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ^(١) فِيكُمْ عُمُرًا
مَنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٢)﴾ [يونس]

فهل أثر عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تبارى^(٣)
في عكاظ^(٤) أو المريد أو ذي المجاز^(٥) أو المجنة^(٦) ، وتلك هي أسواق
البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قاتلاً .

إذن : أفليس الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ
القيس شاعراً فحلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة البشكري ، كما جاء
في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .

إذن : فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر وَمَنْ يعارضونهم من أمثالهم من
الشعراء .

إذن : فهاتوا مَنْ يفترى مثل سور القرآن ، فإن لم تفتروا ، فمعنى
ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) لبث : أقام واستقر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا فَأَنزَلْنَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا فِي
بَطْنِ حُوتٍ لِيَوْمٍ نَخْتَلُفُ^(١)﴾ [الصافات] . وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿فَلَبِثُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا^(٢)﴾ [العنكبوت] . وقال تعالى : ﴿.. فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ لَمْ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ
بِأَخِي^(٣)﴾ [طه] .

(٢) التبارى : التنافس والتسابق .

(٣) سوق عكاظ : سوق بقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهراً يتنازعون
ويتفاخرون ويتناشدون ، وسميت عكاظاً لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعاركوا وتفاخروا
[انظر لسان العرب - مادة عكظ]

(٤) ذو المجاز : موضع بمنى - وقيل عند عرفات - كان يقام فيه سوق في الجاهلية . [اللسان مادة : جوز]

(٥) المجنة : موضع على بُعد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ۖ ﴾ (١٣) [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأن يأتوا بعشر سُورٍ من مثل القرآن الكريم فى البيان الأسر^(١) وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن^(٢) ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدّاهم بأن يأتوا بسورة^(٣) ، ثم تحدّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أن يأتوا بعشر سُور ، ولم يكتفِ الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يدعُوا مَجْمَعاً من البُلغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ ﴾ (١٣) [هود]

أى : هاتوا كلَّ شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجَنَّبُوهُ ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن^(٤) ، وبما أنكم

(١) الأسر : الذى يأخذ بالباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١٥) [الإسراء] أى : معيّن .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ ﴾ (١٦) [البقرة] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلًا علاقته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى : ﴿ وَرُفُؤَانِ فَجَبْرٍ ۖ ﴾ (٧٨) [الإسراء] أى : صلاة الفجر (القاموس القويم باختصار) .

أهل ريادة في الفصاحة فلتفتشوا عَشْرَ سُورٍ من مثل القرآن ، أنتم ومن تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤)

والخطاب هنا موجه إلى الذين ادَّعوا أن رسول الله ﷺ قد افتري القرآن ، أو أن الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ (١) وادَّعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. (١٤) ﴿ [هود]

أى : إن لم يردُّوا على التحدى ، فليعلموا وليتيقنوا أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم . (٢)

ولماذا عدل الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ (٣) .. (١٤) ﴿ [هود]

(١) مفتریات : مختلفات مكذوبات كما تدَّعون .

(٢) وعن القرآن قال عتبة بن ربيعة لقومه بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثباته عن المضي في دعوته : « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، هو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم » [سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. (١٤) ﴾ [هود] ولم يقل : لك . قيل : هو على تحويل المحاطبة من الأفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة .

وقيل : الضمير في « لكم » وفي « فاعلموا » للجميع ، أى . فليعلم الجميع : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود] قاله محامد . وقيل : الضمير في « لكم » ، وفي « فاعلموا » للمشركين ، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تهيبات لكم المعارضة : ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود] . [قاله القرطبي في تفسيره : ٤ / ٣٣٣١] .

أى : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطَالِبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يبلغوه ، وإن لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأت أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفْتَرَى مِنْ مُحَمَّدٍ .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدى ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن - أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

إذن : فالخطاب يكون - مرة - موجهاً للنبي ﷺ ولأمته .

ولذلك عدّل الحق سبحانه عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع فى قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

أى : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .

والعلم - كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين^(١) .

أو أن الخطاب مُوجَّهٌ للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يدعوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم فى معارضة القرآن : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

وأعلى مراتب العلم عند الحق سبحانه الذى يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذى يتغير حسب ما يتبع لنا الله سبحانه أن نعلم ، فانت قد تكون عالماً بشيء وتجهل أشياء ، أو علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

(١) هذا التقسيم ذهب إليه أهل الحقيقة والمعارف من وحي الترييض العلمى والروحى والشهدى .

ولذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواءً ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبي» يُقرر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعلم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذي أَرهق المريض أو لم يستجِبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذي علمٍ عليمٌ ؛ فالطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول .. وهكذا .

ولكن أيوجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء بعلم الله تعالى ، فلا علم لبشرٍ يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٤) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله .

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة :

﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٤) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلنشق بهذا الحكم .

09876543210

لذلك نجد بعد سورة المسد^(١١) التي قررت دخول أبي لهب النار ، قول الحق سبحانه :

[الإخلاص]

وَيُنْهِى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

[مورد]

الإسلام على من يستفهم منهم.

لهب لشدّة احمرار وجهه كأنه الذهب .

ایں سفیان، رکات ہونا لزوجہا علی کثرہ و جمودہ و عنادہ .

مقالة الخطب (١) [المد]

(المذ) إلى آخرها .

المبدأ أى : من ليفه خشن . « القاموس الفويم » .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسلم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه منزّه عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكى لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك؟ .. وهو يأتي بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا في آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٩١)

[المائدة]

(١) الشيطان كل هاد متمرد من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخلوق خبيث خلق من الناس ، وهو عدو للإنسان يُغريه بالشر ، إلا من حفظه الله بالإيمان . يقول الحق : ﴿ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ (١٧) [الحجر] ، وكذلك كل من التجأ إلى الله ، فאלله حافظه من كيد الشيطان . [القاموس القويم - يتصرف]

(٢) أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينا نحن فعمود على شراب لنا ، ونحن على رملة ، ونحن على ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاحْذَرُوهُ لَعَلَّكُمْ تَقْلَحُونَ ﴾ (٩١) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٩١) [المائدة] فجئت إلى أصحابي فقرأت عليهم إلى قوله : (هَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قال : وبعض القوم شربته في يده ، قد ضرب بعضها ، وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . ذكره ابن كثير في تفسيره (٢ / ٩٥) .

وكان هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن: انتهوا من الخمر والميسر،
واخجلوا عما تفعلون.

إذن: فقول الحق سبحانه في آخر الآية الكريمة:

﴿.. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾ يعني: أسلموا، واتركوا اللجاجة^(١) بأن
القرآن قد جاء من عند محمد، أو أنه افتراه، بل هو من عند الله سبحانه
الذي لا إله إلا هو.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ (١٥)﴾

وكان الكافرون^(٢) قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم
وقالوا:

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ.. (١٦)﴾

[هود]

(١) اللجاجة: اختلاط الأصوات وارتفاعها، والمقصود التشويش على القرآن بأدعيات باطلة.
(٢) يخسه حقه: منعه حقه ولم يرقه إياه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَالَهُمْ.. (٨٣)﴾
[الأعراف]، والتمن البخس: القليل الناقص عن مثله، ﴿وَشَرُّهُ بَخْسٌ بِخُسٍ.. (٢٠)﴾ [يوسف].
(٣) اختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقليل: نزلت في الكفار، قاله الضحاك، واختاره النحاس،
بدليل الآية التي بعدها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ.. (١٠١)﴾ [هود]، أي: من أتى منهم
بصلة رحم أو صدقة فكافته بها في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكن لا حسنة له في الآخرة.
وقيل: المراد بالآية المؤمنون، أي: من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له الثواب ولم ينقص شيئاً في
الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده للدنيا. وقيل: هو لأهل الرياء، وفي الخبر أنه يقال
لأهل الرياء: «صمتهم وصليتهم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إن
هؤلاء أول من تُسمر بهم النار».

وقيل: الآية عامة في كل من يتوى بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن، [تفسير

فهم - إذن - مشغولون بنعيم الدنيا وزيتها.

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة
وبيت يقى الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن
يرتدى الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء ،
والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من
البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصرأ.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ^(١) مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ^(٢) وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ^(٣) ۖ ﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل فى متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ^(٤) ﴾ [آل عمران]

إذن : ما معنى كلمة «زينة» ؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارئ على الذات ، وهناك فرق
بين الحسن الذاتى والحسن الطارئ من الغير .

(١) القناطر : جمع قنطار وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر فى زماننا : مائة رطل ، وهو

٩٢٨ ، ٤٤ من الكيلوجرامات ، وقد يقصد بها المال الكثير - كما فى الآية الكريمة . وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِذِ تَأْمَنُ بِقَنَاطَرٍ بِرُذَّةٍ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [آل عمران] .

والقناطر المقنطرة : أى : المضاعفة ، أو المحكمة المحصنة . [كلمات القرآن للشيخ حسين

مخلوف ، والمعجم الوسيط] .

(٢) الخيل المسومة : أى : المرسلة للرعى ، أو المألومة بعلامات . [القاموس القويم] .

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز .

والحرث : المزروعات . [كلمات القرآن] .

(٤) المآب : المرجع . وحسن المآب : أى : المرجع الحسن . [كلمات القرآن] .

والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة الملفتة ، وتحلّي بالذهب البرّاق ، فهو المعدن الذي يأخذ نقاسته^(١) من كثرة تلالته الذي يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالة إلا التي تشك في جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها في اللغة : « الغانية »^(٢) ، أي : التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كبر أذنيها بقُرط^(٣) ضخمة ، ولا تحتاج إلى مداراة رقبته بعقد ضخمة ، ولا تحاول أن تداري معصمها الريان بسوار^(٤) ، وترفض أن تُخفي جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة في ذلك التزيّن فهي تعطى الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذي أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطى الشيء المبالغ فيه المقابل له .

وفي ذلك يقول المتنبي^(٥) :

الطيبُ أنت إذا أصابك طيبةُ والماءُ أنت إذا اغتسلت الغاسلُ

(١) تَمَسُّ الشيءَ نفاثاً : كان عظيم القيمة فهو نفيس . وقيل : منه التنافس ، كل يريد أن يكون أنفُس من غيره ، أو يحرز ما هو أنفُس وأعظم قيمة . قال تعالى : ﴿ .. وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢٦) [المطففين] أي : فليتنافسوا لإحرازه لأنفسهم .

(٢) الغانية من النساء : التي غنيت بالزوج . وهي أيضاً التي غنيت بحُسنها وجمالها عن الخلق . وقيل : هي التي تُطلب ولا تُطلب . وقيل : الغانية الجارية الحسنة ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج . سميت غانية لأنها غنيت بحُسنها عن الزينة . [لسان العرب - مادة : غنى]

(٣) القُرطُ : ما يُعلّق في شحمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها . والجمع : أقراط ، وقروط ، ... [المعجم الوسيط] .

(٤) السَّوار : حلية من الذهب مستديرة كالحلقة تلبس في المعصم . والجمع : أسرّة ، وأساور . [المعجم الوسيط] .

(٥) هو : أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام ، ادهى النيرة في يادية السماوة (بين الكوفة والشام) . ولذلك سمي بالمتنبي . ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً .

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ،
فالطيب هو الذى يتطَيَّب ، كما أن الماء هو الذى يُغَسَّل إذا ما لمس هذا
الإنسان . وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُزَيَّنَ نَحْرُهَا ^(١) بقلادة ^(٢) ؛ لأن
نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة «غانية» ؛ لأنها استغنت بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضرة : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك
المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل
واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملأ الشقوق
المجعدة فى وجهها .

ولحظة أن يسيح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط
الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيبٍ وفى البدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٍ
إذن : فالزينة هى تحسين الشيء بغيره ، والشيء الحسن يستغنى عن الزينة .
وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا
لَا يَتَخَسَّوْنَ ^(٣) ﴾ (١٥)

[هود]

أى : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضمن عليكم فى أن يعطيكم مقومات

(١) النَّحْرُ : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة .

(٢) القِلَادَةُ : كل ما يوضع حول الرقبة من عقود وحلى وذهب وغيره ، وسُمِّيت الأَصْحَى قِلَانْدَ مَجَازاً
مرسلاً علاقته بالملازمة ؛ لأن الذبائح كانت تُعلَّم بقلادات فى أعناقها . قال تعالى : ﴿ وَلَا الْهَدْيُ وَلَا
الْفَلَاحُ .. ﴾ (٢) [المائدة] . أى : الأصاحى ذوات القلاند .

(٣) التَّخَسُّ : الإنقاص . وَيَخَسُّ حَقَّهُ بِخَسٍّ : نقصه حَقُّه ولم يُوفِّه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَخَسَّوْا النَّاسَ
أَسْمَاءَهُمْ .. ﴾ (٥) [الأعراف] [القاموس القويم] .

الحياة وزيتها ؛ لأنه رب ، وهو الذى خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ، وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة وزيتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفى بما وعد .

وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ .. (١٥) ﴾ [هود]

أى : أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يلزم نفسه بإعطاء الشيء كاملاً غير منقوص .

وهم فى هذه الدار الدنيا لا يَتَخَسَّرُونَ فى حقوقهم ، فمن يتقن عمله يأخذ ثمرة عمله .

وهذا القول الكريم يحلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعانى منه ، فهناك مَنْ يقول : إن هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويطيعون الصلاة ، ويبنون المساجد ، بينما هم قومٌ متخلفون ومتأخرون عن ركيب الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يَرَفُلُونَ^(١) فى نعيم الحضارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءً ربوبية للأسباب ، فمن أحسن الأسباب حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له فى الآخرة من نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاْ هَبَاءً مَنْثُوراً^(٢) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه يجزى الكافر الذى يعطى خيراً للناس بخير فى الدنيا ، ويجزى الصادق الذى لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معه فى الدنيا ، ويجزى من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له فى الدنيا .

(١) رَفُلَ : جَرَّ ذَيْلُ ثَوْبِهِ وَتَبَخَّرَ فِي مَشْيِهِ . ويرفلون فى النعيم : أى : يعيشون فى رفاهية فرحين بما لديهم من نعيم . [المعجم الوسيط] ينصرف .

(٢) الهباء المنثور : الغبار المتطاير فى الجو . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاْ هَبَاءً مَنْثُوراً .. ﴾ [الفرقان] أى : كل عمل عملوه كالهباء المنثور ، لا يعتد به ، ولا قيمة له . [القاموس القويم] .

وكلها أعمال مطلوبة في الدين ، ولكن الكافر قد يفعلها ، فيرد الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإن كان قد فعل ذلك ليقال : إن فلاناً عمل كذا ، أو فلاناً كان شهماً في كذا ، فيقال له : « عملت ليقال وقد قيل »^(١) .
وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ، فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا به من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبّقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التخلف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإن عقدنا مقارنة بين حال أوربا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلي مُبدع ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوربا « العصور المظلمة » .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوربا قوة الإسلام

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرّفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت القرآن وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم ألقي في النار . [أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة] .

والمسلمين ، ودحرهم^(١) المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّمُوا .

هم - إذن - عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلفنا ،

إذن : فأي الجَرَعَتَيْنِ خير ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا .. فمعيار التقدم هو الأخذ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْنِ خَيْرِ الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ وَأَخَذَ بِالْأَسْبَابِ نال خَيْرِ الدُّنْيَا وَلَمْ يَتَلْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(٢) يَنْسَبُهَا الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ... (٣٩)﴾ [النور]

(١) دَحَرَهُ يَذْخَرُهُ ذَخْرًا وَدُحُورًا : دفعه وطرده وأبعدَه مُهَانًا . ودحره في الحرب : هزمه . قال تعالى : ﴿...وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِيَأْخُذَهُمْ ذُكُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ (٦٦)﴾ [الصافات] [القاموس القويم] .

(٢) السراب : ما تراه في نصف النهار في الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . ويقول الله تعالى : ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٦٦)﴾ [النبا] أي : صارت لا حقيقة لها ، أي : تشبه السراب في أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التي يظهر فيها السراب . [القاموس القويم] .

(٣) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (٦٧) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٦٨) لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلًا وَلَا نَبْطًا (٦٩)﴾ [طه]

قاعاً صَفْصَفًا : مكاناً منخفضاً مستوياً معتدلاً ، لا ارتفاع فيه ولا اعرجاج . وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ... (٣٩)﴾ [النور] أي : مكان منخفض مُسَوًى مما يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالآله الذي كذب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ^(١١) لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فمن أراد الدنيا وزينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوقّيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وعترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عقد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العامل العمل فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس ؛ لأن البَخْسَ هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ ^(١٢) مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

(١) عصفت الريح ، تعصف عَصْفًا وعُصُوفًا : اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهي تُذكر وتؤنث ، والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شيء تمر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَئِذَا الْبَرْقُ عَاصِفٌ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. (٢١) ﴾ [يونس] وقال تعالى : ﴿ فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا (٢) ﴾ [المرسلات] هى الرياح الشديدة . [القاموس القويم] .

(٢) حبط العمل : بطل ولم يحقق ثمرته . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ .. (٥٠) ﴾ [المائدة] ، وأحبط الله عمله : أبطله وضيعه هباءً . قال تعالى : ﴿ .. فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ (٥٠) ﴾ [محمد]

[القاموس القويم] .

إذن : فالنار مشوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم في الدنيا ، أما عملهم فقد حبط في الآخرة ، والحَبَط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضج بعد ، ويقال في الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غازات في بطنها ، وقد يظنها الجاهل سمناً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط في الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنِهِ مِّن رَّبِّهِ ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ
كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ،
مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَمَسَ مَوْعِدَهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٧)

والْبَيِّنَةُ (١) هي بصيرة الفطرة السليمة التي تُلْتَمَسُ للإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

(١) المربة : الجدل والشك وكذلك التمارى والامتراء والمراء والمارة . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَعَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهراً .. ﴾ (٢١) ﴿ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤٧) ﴿ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فَتَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تَعَارِي (٥٥) ﴾ [النجم] [القاموس الفوري] بتصرف .

(٢) بأن الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح ، فهو بَيِّنٌ وهي بَيِّنَةٌ أى : ظاهر ، وظاهرة . ويستعمل اليِّن والبيِّن بمعنى المظهر والمظهرة ، والموضح والموضحة . قال تعالى : ﴿ كَمْ أَتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (١٤١) ﴿ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هي بَيِّنَةٌ للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ مُّزِيدٍ .. ﴾ (١٨) ﴿ [الكهف] أى : ظاهر واضح أو موضح مظهر للحق [القاموس الفوري] .

والعربى القديم حين سار فى الصحراء ووجد بَعْرًا مُلْقَى فى الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البَعْرَةُ» ^(١) تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسما ذات أبراج ^(٢) وأرض ذات فجاج ^(٣) وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ ^(٤) .

وهكذا امتدى الرجل بالفطرة ، وهى بيّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه فى كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة ^(٥) شهدنا فى عالم الذر :

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا .. ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

إذن : فالبيّنة هى إيمان الفطرة المركوز فى ذرات الأشياء .

وقد تُضَيَّب ^(٦) الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل

(١) البعرة : واحدة البعر ، وهو رحيق (روث) ذوات الخُفّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرْج ، وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [لسان العرب . مادة : برج] .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا مُفَجَّاجًا (٢٠) [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فُجُجًا سَبِيلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٣١) [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُسُ بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت أت . انظر البيان والتبيين للدجاظ (١/٣٠٨) .

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٣) والطيالسى (٢٤٣٣) ، والترمذى (٢١٣٨) .

(٦) الضَّبّ والتضبيب : تغطية الشئ ودخول بعضه فى بعض . والضباية : مطاية تُغشى الأرض كالدهان وقيل : الضباب والضباية : ندى كالغبار يُغشى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضب] .

والأحكام حتى تنضمَّ البينة من الرسل على البينة من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مناصب^(١) الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبين لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلَفِّتُنَا إلى القوة العليا التي تدبر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطت به طائفة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطيب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً^(٢) منصوباً ليأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤال : من صنع هذا ؟ وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضيافتي .

إذن : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خلق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخر كل ما في الكون لخدمة الإنسان^(٣) .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

(١) مناصب الأشياء : كل ما يتعلق به من أمور . وينطبق به الشيء : وحصل به . [اللسان : مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الرعاء الذي تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان - مادة صون] .

(٣) يقول تعالى في سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ سَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٦) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ (٦٧) وهو الذي سخر البحر لآكلوا منه لعباً طريفاً وسخر جوامع حيلة فلقنوها وترى الفلك مواجر فيه ولتبتلوا من فعله ولعلكم تفكرون (٦٨) [النحل] .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحل للإنسان أمراً يشغل باله .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء - مهما كان تافهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتدير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك اليبنة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدى إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً .

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية اليينات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التي لا تشوبها^(١) أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويتها ؟

(١) أي : لا تختلط به شبهة ، أي : الفكر البعيد عن الأهواء .

والشوب : ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصفافات] . ويقال : سقاء الفوب بالشوب : العسل بما يشاب به من ماء أولين . [المعجم الوسيط] .

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد .

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به العربي على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير^(١) ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير .

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل .

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزى المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصي له .

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التي اقتنعت بها جملة . والمفكرون بالعقل في الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذي أنزل عليه البلاغ .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هي القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدى إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة لعباده وبينه لهم .

(١) البعرة : رجميع (زوث) ذوات الخف وذوات الظلف من الحيوانات . والبعير : ما صلب للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سنوات . ويقال للجمل والثاقل : بعير . والجمع : أباعر ، وأباعير ، وبعران . [المعجم الوسيط] .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ ^(١) مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ [هود]

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدي البصيرة الفطرية الموجودة في الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ وهو من أنزل عليه الوحي ، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى .

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود :

الشاهد الأول : هو الحجة والبينة .

والشاهد الثاني : هو البرهان والبصيرة التي يهتدى إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً .. (١٧) ﴾ [هود]

وهذا هو الشاهد الثالث .

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصّر ؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى

(١) في تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٣٣) .

١- أنه محمد ﷺ .

٢- أنه جبريل عليه السلام .

٣- أنه علي بن أبي طالب .

٤- القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد .

٥- الإنجيل . فهو يتلو القرآن في التصديق وإن كان قبله .

٦- العقل الذي يتلو معرفة الله التي أشرقت لها القلوب .

قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى : «الأول والثاني هو الحق ، وكلاهما قريب في المعنى ؛ لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل : هو علي ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل . المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن بها» .

عليه السلام وشاهد^(١) بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَيْكَ يَوْمَنُونَ بِهِ .. (١٧)﴾ [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة : بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ^(٢) فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. (١٧)﴾ [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يكفر أحد بغير موجود .

فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر طارىء عليه .

إذن : فالكفر طارىء على الإيمان ؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة .

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. (١٧)﴾ [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب . والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه ، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية ، وهي

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل .

(٢) الأحزاب : جمع حزب . وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء أكان خبراً أو شراً .

يقول تعالى عن حزب الخير : ﴿.. أَوَلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٤)﴾ [المجادلة] .

وقال تعالى عن حزب الشر : ﴿اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْغَافِرُونَ (١٩)﴾ [المجادلة] .

والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام . قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣٥) .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع من أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢١٠) .

أحزاب بشرية تتصارع فى المناهج والغايات ، وهم أحرار فى ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما فى العقيدة الأولى ، فَمَنْ المُخْطَطُ الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتى منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عَمَّنْ يتبعون منهجه :

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ .. ﴾ (٢٢) [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون فى حزب يختلف عن أحزاب البشر التى تختلف أو تنفق فى فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. ﴾ (١٧) [معد]

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة^(١) واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣) [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله ورسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بين لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كل منهما يواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عبادة الملائكة ، أو عبادة الكواكب والنجوم ، أو عبادة النار . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ .. ﴾ (٢٢) [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [انظر : القاموس القويم ١/ ٣٦٥] .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ ۝١٧ ﴾ [هود]

أى: لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۚ ۝١٧ ﴾ [هود]

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشيء الثابت الذى لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ۝١٧ ﴾ [هود]

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومن يمتنع عليها هو مجرد معاند .

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين :

﴿ وَجَعَلُوا "بِهَا" وَاسْتَيْقَنَتْهَا "أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا" ۚ ۝١٨ ﴾ [النمل]

أى: أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً .

(١) مية: الجدك والشك. وهناك قراءة بضم الميم. [القاموس القويم].

(٢) جحد الحق بجحد، جحدوا: أنكروه وهو يعلمه. وجحد النعمة: أنكرها ولم يشكرها. وجحد بالآية: كفر بها.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ جَعَلُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَغُصًّا رُّسُلَهُ ۚ ۝٢٩ ﴾ [هود] [القاموس القويم].

(٣) استيقن الأمر واستيقن به: مثل أيقنه وأيقن به، من اليقين وهو الشيء الثابت الواضح الذى لا شك فيه. واستيقنتها أنفسهم: أى: علمتها نفوسهم علماً واضحاً. [القاموس القويم].

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ۖ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٨)

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذي يفترى على الله كذباً ، ويقر بذلك .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ، ليأتي الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعْرَضُونَ على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ .. ﴾ (١٨) [هود]

والعرض إظهار الشيء الخفى لنقف على حاله .

ومثال ذلك في حياتنا : هو الاستعراض العسكري حتى يبين الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها .

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . ويقول تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ .. ﴾ (٢٨)

[يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه .

(٢) الأشهاد : أى : الشهداء بالحق ، وأشهاد : جمع شهيد ، مثل أيتام جمع يتيم ، والشهيد صفة مشبهة .

[القاموس القويم] . وفي تعيين الأشهاد في هذه الآية أقوال . الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل . وقال

فتادة : الخلاق أجمع . قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٣٣٦) .

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا: فتحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزي المقصر منهم أو الذي لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزي ؟ ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذي أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ۖ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ۖ ۝ (٣٤)﴾ [النور]

فأى خزي - إذن - يشعرون به ؟

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه:

﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا ۖ ۝ (٤٨)﴾ [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ۝ (٤٦)﴾ [غافر]

(١) السراب: ما يترى في نصف النهار على الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس ماء . وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر . والقيعة: الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «الفاغ». يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ (٢١) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ (٢٢) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ (٢٣)﴾ [طه] [القاموس القويم] . والأرض الصفصف هي الأرض المستوية الملساء ، أي : إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر ، ولا ترى في مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً .

(٢) الغدو: الدخول في أول النهار . والعشي: آخر النهار . وهذه الآية قيلت في حق فرعون وآله . وتامها: ﴿... وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ (٤٦)﴾ [غافر] وهذه الآية أصل في إثبات عذاب الغير عند أهل السنة . انظر: [تفسير ابن كثير ٤ / ٨١] .

وهكذا يظهر الخزي والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .
وهو سبحانه يعلم كل شيء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف
الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في
الجنة إنساناً في النار ، فلا يستشير هذا المشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن
جزاء المفترى هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزي ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن
الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ۚ ۞ (١٨) ﴾ [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب»
و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شاهد» مثل «شريف» و«أشراف» .

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ ^(٢) مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ^(١) (١٨) ﴾ [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ^(٣) (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾

[الأنفطار]

(١) اللفظ : إخراج الشيء من القم . والمراد به : التكلم . واللفظ : الرمي والإلقاء عامة . ومنه حديث ابن عمر أنه مثل عما لفظ البحر فتهى عنه . أراد ما يلقى البحر من السمك إلى جانبه من غير اصطیاد . [اللسان : مادة لفظ] .

(٢) الرقيب العتيد : الحاضر المستعد لإثبات ما يتكلم به الإنسان في كتاب الحسنات والسيئات . [القاموس الفوري] .

(٣) الحافظون : أي : الملائكة الرقباء والحافظون عليكم . يقول تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٢) ﴾ [الطارق] أي : ملك حافظ لها رقيب عليها . ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ۖ ۞ (١١) ﴾ [الأنعام] أي : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم . [القاموس الفوري] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٠١

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (٤١) [النساء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلغها إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١١٣) [البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعنى : تسجيل ما فعلوا ، وتسجيل أيضاً أنهم بُلِّغُوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام.

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية».

إذن : فعمل الأشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغُوا المنهج ، وبُلِّغُوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ على القرآن . قال : فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيرى ، فقرأت النساء حتى إذا بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء] . رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى ، فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥).

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بلغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأبعاد على الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ^(١) ﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢) وَقَالُوا لِمَ لُجُلِدْنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٣) ﴾

[فصلت]

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لم» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية .

والإنسان - كما نعلم - مركب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكون الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فلما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

(١) يُوزَعُونَ : يُمنَعُونَ عن التفرق ويُجمعُونَ فى مكان واحد . والوزع : الكف والمنع . يقال : وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، فيمتنع عليهم التفرق والانتشار . [انظر : لسان العرب - مادة : وزع] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤.٣

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسَخَّرَةٌ لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

﴿ .. لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمرونا به من المعاصي رغماً عنا ؛ لأننا كنا مُسَخَّرِينَ لكم في الدنيا ، والآن انحلتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالكذب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد^(١) وإنكار الرسول ﷺ والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه . يقال : قد أُلْحِدَ في الدين أي : حاد عنه . والإلحاد الظلم في الحرم ، وهو أيضاً الشك في الله ، والميل عن الإيمان به . [انظر : لسان العرب - مادة لحد] .

(٢) عوج : مال وانحنى ولم يكن معتدلاً . وعاج عوجاً (يفتح العين والواو) ، وعوجاً (يكسر العين وفتح الواو) . قال تعالى : ﴿ قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (١٨) ﴾ [الزمر] أي : قرآن مستقيماً في مبادئه وأحكامه . وقال تعالى : ﴿ وَيُفْرِئْهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود] أي : أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله يرفدون سبيل الله معوجة . [القاموس القويم] .

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان . وبذلك تعدّوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرّم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَسْأَلِ الْكِتَابَ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَيَّنَ عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٩)

[آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المعوج من أمور المنهج . والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفى في المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ (١) ﴾

[الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول الله سبحانه :

[هود]

﴿ وَيَتَّبِعُنَّهَا عِوَجًا ۖ (١٩) ﴾

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ : أى : أنه قرآن مستقيم سليم فى أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه . [القاموس الفريسي] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٤

أما في الأمور المحسنة فلا يقال: «عوج»، بل يقال: «عَوَج»، فانت إذا رأيت شيئاً معوجاً في الأمور المحسنة تقول: عَوَجٌ^(١).

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه:

﴿وَيَا لَوْنَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا^(٢) (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا^(٣) (١٠٧)﴾ [طه]

وقد أوردنا الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآني؛ لأن هناك عوجاً حسيماً يحسه الإنسان، مثلما يسير الإنسان في الصحراء؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينسط مرة أخرى، ثم يقف في الطريق جبل، ثم ينزل إلى واد، وأي إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً.

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية، فقد تظن أنها أرض مستوية، ولكنها ليست كذلك؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة.

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عوج): «هو يفتح العين مختص بكل شخص مرئى كالأجام، وبالكسر بما ليس بمرئى كالرأى والقول، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً، والأول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾: القاع: الأرض المستوية المنخفضة عما حولها، والصفصف: الأرض المساء المستوية. أي: أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر. [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير في تفسيره أن الله تعالى يذهب الجبال عن أماكنها ويمسحها ويسيرها تسيراً، فيجعلها - أي: الأرض - قاعاً صفصفاً، أي: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمضي استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذي لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذ واهياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وآخرون. (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه] (١٠٧): أي: أنها مساء مستوية، لا انحراف فيها يمنة ولا يسرة، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التي قد لا تراها العين المجردة .

وفي يوم القيامة يأتي أصحاب العوج في العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه في قوله :

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه]

هم - إذن - يصطفون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، في ذلة وصغار^(١) ولا ينطقون إلا همساً .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١١٩﴾ [هود]

والسبب في صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِروا الناس من الإيمان ليضمّنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون في الأرض ؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما يتفعون به بالفساد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أى : يوم القيامة الذي يرون فيه هذه الأحوال والأموال فيستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم . وقال فتادة : لا عوج له أى : لا يميلون عنه وخشعت : سكنت . [تفسير ابن كثير : ١٦٥ / ٣] .

(٢) خشعت الأصوات : خفت وهنأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة . [القاموس القويم - ١٩٤ / ١]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضر في ذل ومهانة . [لسان العرب - مادة : صغر]

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ^(١) فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه ممتنع
عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا
أن القرآن معجزة أن يأتى بآية من مثله .

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبين لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يعجزون الله
فى الأرض ، بدليل أن هناك غماذج من أم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من
أخذته الرياح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا
انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأن الولى هو
القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قُرب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من
مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سياج
لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ،
وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو
موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (٥٧) ﴿

[الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يفلتوا . وقال تعالى :

﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَهَمُّ الْبَارِئِينَ ﴾ (٥٧) [النور] . [القاموس القريم - ٧ / ٢]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .
وهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لن يجدوا ولياً ولا نصيراً فى الآخرة -
وإن وجدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿يَوْمَ تَرُوتُهَا تَذَلُّ^(١) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ
حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٢)﴾
[الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَتَقُورُوا رِبْكُمْ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يُجْزَىٰ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ^(٣) عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا^(٤)﴾
[لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(٥) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٦) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ^(٧) لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ^(٨)﴾
[عبر]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله فى
الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ^(٩)﴾
[هود]

(١) تذلل : تعفل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفرع . والذهول عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه لشغل . [لسان العرب - مادة : فعل] .

(٢) سار : اسم فاعل من الفعل جزى ، وجزى عنه : قضى الحق نيابة عنه أو كفى بدلاً منه فى أمر . وقال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا^(١٥)﴾ [البقرة] .

أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يُجْزَىٰ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا^(١٦)﴾ [لقمان] . أى : أن كلا منهما غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القاسوس القويم] بتصرف .

ونحن نفهم الضَّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذي يأتي ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف .

إذن : فالمُضَاعَفَةُ هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه .
ومُضَاعَفَةُ العذاب أمر منطقي لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾ [هود]

لا يتناقض مع قوله الحق :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ^(١) .. (٦٦) ﴾ [الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وِزْرَان : وزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم .

وهناك آية تقول :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^(٢) (٦٨) يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ .. (٦٩) ﴾ [الفرقان]

أى : أن مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ مضاعفة للعذاب .. لماذا ؟

(١) وزر الشيء يزره وزراً : حمّله . ويأتى في الأحمال الثقيلة ، ويستعمل للذنوب . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. (٦٦) ﴾ [الأنعام] . أى : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى . [القاموس القويم] .

(٢) ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً : أى : أن من يفعل تلك الذنوب والآثام ينال جزاء إثمه ويعاقب عليه . والإثم : فعل ما نهى الله تعالى عنه . [القاموس القويم] .

لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم .

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العقاب ، مثلما يقول سبحانه في الزنا :

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففي ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحد من وقوع الجرائم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صدّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين :

أولاهما : ضلالهم .

والثانية : إضلالهم لغيرهم .

ولذلك تجد بعضاً من الذين أضلّوا يقولون يوم القيامة :

﴿ .. رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [نصبت]

ويقولون أيضاً :

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ^(٢) فَاصْلَوْنَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

(١) طائفة : جماعة أو فرقة من الناس . ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعي وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . انظر [ابن كثير (٢/٢٦٢)] .

(٢) السادات والكبراء : قال طائوس : السادات هم أشراف القوم وعظماؤهم . والكبراء : هم العلماء . قاله ابن كثير في تفسيره (٥/١٩٩) وعزاه لابن أبي حاتم .

سُورَةُ هُودٍ



إذن : فالدعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف
إضلال ؛ لأنه أسوة أمام الغير .

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة في النار ؛ لأن الحق
سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام ؛ ولذلك أراد الحق
سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ ^(١) جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾

[النساء]

فهو عذاب على الدوام .

أو أن العذاب الذي يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ،
وهناك عذاب للإفساد .

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

[النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصي التي يرتكبها
الكافر ^(٢) .

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصرُ للشاة الجللحاء منها ^(٣) ، أي : أن الشاة
التي لها قرون وتنطح الشاة التي لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم : لينه وصلاحيته لأن يؤكل . والمراد : احترقت جلودهم .

(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذي يجب أن يؤمن به ، لهذا لم ينج من العذاب ، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله
إن كان مؤمناً برسول ، أو لم يؤمن بالرسول ولكن كان مخالفاً للفقرة .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد
للشاة الجللحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة . والجللحاء : هي
الشاة ذهب شعر مقدم رأسها ، وهي هنا بمنزلة الجملاء التي لا قران لها .

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ (٢٠) وَمَا كَانُوا يَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون ، فكأنهم صُمُّ عُمًى ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ (٢٨) .. ﴿٢٨﴾

[مريم]

أى : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٦١)

(١) السمع : حس الأذن ، يطلق على الأذن ، وعلى الأذان ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. ﴾ (١٧) [البقرة] أى : ختم على أذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .
(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من «سمع» ومن «بصر» أى : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله فى الدنيا ، وسمع كل ما قاله فى لحظات ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً أجلاً زمنه خالد .

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين .
وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً أجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٦)

[هود]

أى : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٧٤)

[التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصر ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ .. ﴾ (٦١)

[هود]

أى : غاب وتاه عنهم .

(١) ضل الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق .
والضلال : النسيان والضياع ؛ وضل الشيء : خفى وغاب ، فهو فعل لازم .
وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو مُضِلٌّ [القاموس القويم - بتصرف]

[هود]

وقوله سبحانه: ﴿.. مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٢١)

أى: ما كانوا يدعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ﴾ (٢٢)

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ ، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حق وثابت ، أو لا بد من حصول شىء محدد .

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ..﴾ (٦٧)

[النحل]

أى: حَقَّ وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدي عذابهم ، فحين نسمع ﴿لَا جَرَمَ﴾ ومعها العمل الذى ارتكبه ، تثق فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم .

وقال بعض العلماء^(١): إن معنى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حق وثبت .

وقال آخرون^(٢): إن معنى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ هو لا بد ولا مفر .

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا: حَقًّا . وهى هنا بمعنى «حقاً» . وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى يصدد تفسيرها هنا .

الثانى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُغَيِّبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣) [النحل] .

الثالث: ﴿.. لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٧) [النحل] .

الرابع: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٠٩) [النحل] .

الخامس: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ..﴾ (١٢٤) [غافر] .

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وسيبويه . فـ «لا» و «جرم» عندهما كلمة واحدة ، وأن «عندهما فى موضع رفع . وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٣٨) .

(٣) قال المهدوى: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة . وهو قول الفراء أيضاً . ذكره الثعلبي . انظر

تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٣٨) .

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البدئية^(١) يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي «الجرم» ، والجرم : هو القطع^(٢) ، ويقال : جرم يده ، أى : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (٢٢)

[هود]

أى : لا قطع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التقى المعنى بـ «لا بد» .

إذن : فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أى : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذة من «الجرم» ، وهى قطع ناموس مستقيم ، فعين نقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأى جريمة هى قطع للمالوف الذى يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم^(٣) الشيء أى : اكتسب شره ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من الفعل : «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة فى أن يعذبهم الله بالنار .

(١) البد : التصيب من كل شيء . ولا بد منه : لا مفر . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجريمة : ما قطع من البسر (النسر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم أذنبي وجنى جنابة ، وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حملته على فعل شر أو فنب أو جرم . قال تعالى : ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ۖ ﴾ [البقرة ١٧٥] : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هي مَنع للجريمة^(١) .

وهكذا تلتنقى المعانى كلها ، فحين نقول : ﴿ لا جرم ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزاء ؛ لأن الجريمة هى الآثام العظيمة التى ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴾ (٤٠) . [الشورى]

وقد سماها الحق سيئة ؛ لأنها تسيء إلى المجتمع ، أو تسيء إلى الفرد نفسه .
ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٢٦) [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿ لا جرم ﴾ ، فهى تعنى : لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ (٢٢) [هود]

وكلمة (الأخسرون) جمع «أخسر»^(٢) وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

(١) ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢٦٩) [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (٢١١/١) : « إذا علم القاتل أنه يُقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفس . قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتحتمه مخافة أن يُقتل » .

(٢) أخسر : صيغة أفعل التفضيل ، ونفيدة المبالغة فى المعنى ، أى : أكثر وأشد خسارة . [راجع : لسان

العرب - مادة : خسر]

والخسارة في أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً^(١) لوأحد ، كأن يشتري شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب في الزيادة ، باع الشيء بما ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة في الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر في صفقة قد يربح في صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر في كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهي فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ^(٢) بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً^(٣) الَّذِينَ^(٤) ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُخْسِرُونَ أَنَّهُمْ يُخْسِرُونَ صَعْقًا^(٥) ﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم :

﴿ . . أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ^(٦) ﴾ [الزمر]

(١) الجحف والمجاحفة : أخذ الشيء واجترافه . والجحف : شدة الجرف . والإجحاف : الظلم الشديد . [انظر : لسان العرب : مادة جحف] .

(٢) أنباء بالشيء ، ونبأ به : أخبره به وذكر له قصته . والنبأ : الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال . والإنباء أيضاً : التحديث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ طَيْفٍ لِّإِبْرَاهِيمَ (٢٤) ﴾ [الحجر] . أى : حدثهم . [القاموس القويم ٢ / ٢٥٠] .

(٣) الآية هامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرسية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ ، وعمله مردود ، فتجدهم يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون مجربون ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِمْلَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٨) ﴾ [النور] . [تفسير ابن كثير ٣ / ١٠٧] بتصرف .

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفى ذلك فيض من الإناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ^(١) لَفِي نَعِيمٍ ^(٢) ﴾ [الأنفطار]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ^(٣) لَفِي جَحِيمٍ ^(٤) ﴾ [الأنفطار]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتى الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ^(٥) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ^(٦) ﴾

(١) الأبرار : جمع برّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان . والبار : هو الذى يبر والده فيحسن إليهما . [لسان العرب - مادة : بر] بتصرف .

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبعث فى المعاصى ، غير مكترث ولا مبالي ، وهو أيضاً من بالغ فى العصيان وجهريه . [القاموس القويم ٧٣ / ٢] بتصرف .

(٣) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا فى الطريق المستقيم المطمئن الواسع . وقال تعالى : ﴿ ... وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ ^(٧) ﴾ [الحج] . أى : الخاشعين . والحب : المكان الواسع المطمئن من الأرض . [القاموس القويم] .

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدي ^(١) ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ^(٢) وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾

[الحجرات]

أى : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقَّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو الفاصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدي العمل بتكاسل واتباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدعى الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبت ^(٣) العداء للإسلام الذي لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتُمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي ﷺ .

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أى : عقد رأى . وفي الحديث : أن رجلاً كان يبايع وفي عقده ضعف ، أى : في رأيه ونظره في مصالح نفسه . فالإيمان أمر يمتدده القلب .

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذي لا يداخله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل مما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهري بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن في القلب إيمان . فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد .

(٣) يبت أمرأ : دبَّره في خفاء ، كأنه دبَّره في الليل ليخفيه . يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْخُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَمِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) ﴾

[النساء] . [القاموس الفوق - ٨٩/١]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ ۝٢٣ ﴾ [هود]

هذا القول يبين لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من عبادة أورثت عزاً واستكباراً .

أى : أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار ^(١) .

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى الأيعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من «الخبث» وهى الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المختبين بأنهم :

﴿ ۝٢٤ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٥ ﴾ [هود]

أى : الملازمون لها ، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب ^(٢) ؛ لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المختبون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

(١) الاستكبار : التعاظم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق ، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وإدعاء الشئ ، فالمستكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير .

(٢) السلب : هو سلب النعمة من الإنسان .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين : الفريق الذى ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا^(١) الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف .

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التى عبدوها من دون الله ، ولا شئ بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب ، وهم الآخسرون .

أما الفريق الثانى فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة يخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها .

إذن : فلكل فريق مسلكه وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٤)

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل .

وكلمة «الفريق» تعنى : جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول : فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهى جماعات ، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ . فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٧) [الشورى]

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيله ، وأفلت منه فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سِقْرًا

إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (٢٤) [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا .

(٢) السعير : النار المشتعلة المتقدة المترهجة . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُفِرت ﴾ (٦٦) [التكوير] أى :

أوقدت بشدة . ويراد بالسعير : نار جهنم . ويقول تعالى : ﴿ . فَاَوَاهَمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا

﴿ [الإسراء] أى : زدناهم ناراً هائلة موقدة مشتعلة .

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَيِ الخواص الإدراكية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط ^(١) والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتمحيصها ^(٢) ، فالحق سبحانه يستحق الشكر ^(٣) عليها .

ونحن نعلم أن الطفرات ^(٤) الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية .

(١) الاستنباط : استخراج الماء من باطن الأرض . ومن المجاز : استنبط الرأي الصحيح : استخرجه ببحته وفكره كمن يستخرج ماء من البئر . يقول تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَظْفِرُونَ مِنْهُمْ (٨٢)﴾ [النساء] .

(٢) تمحيص الشيء : اختياره وفحصه بدقة . [المعجم الوسيط] بتصرف .
وقال تعالى : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (٣٦٦)﴾ [آل عمران] . أي : يغيرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقضي على الكافرين . وقال تعالى : ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ (١٥٦)﴾ [آل عمران] . أي : يظهر الإيمان الذي في قلوبهم من الوسواس والشكوك . [القاموس القويم] .

(٣) الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه موليها .

(٤) طفرات : جمع طفرة ، وهي وثبة في ارتفاع . وقد طفر يطفر : وثب في ارتفاع . [انظر لسان العرب] .

ومثال ذلك: هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلى ،
فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيزاً أكبر
من حيز السائل الموجود في الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى
هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً
لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا... (٣٥)﴾ [هود]

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير
منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بسماع .

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالاشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان
السامع أو الفارء لهذه الآية ، ليفصل بحكم يُذكره بالفارق بين الذى
يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطيعى
ألا يستويان .

لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

﴿.. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾

[الحج]

أى : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله فى التقاط مجاهيل الأشياء .
وبعد أن بيّن الحق سبحانه وصّف كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما فى الغاية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه فى بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

والآية توضح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ ، فيقول :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

ونحن نلاحظ أن همزة (إن) فى إحدى قرأتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة ^(١) ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير : الرسول المنذر بالعذاب . وأنذره : حذره ، وأنبهه شيئاً : أعلمه إياه وعرفه به وبما يترتب عليه من ضرر فى مدة تكفى للتحفظ منه . أى : خوّفه منه لئيبعد عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا .. ﴾ (٢٥) [النبا] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَا .. ﴾ [الزمر] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُفْصَلُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ هَذِهِ الْحَبْطَةُ ﴾ [الحجج] . [القاموس القويم ٢/٢٥٨] بتصرف .

(٢) قراءة الفتح فقرأها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٣٤٠) أى : أرسلناه . بأنى لكم نذير مبين .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٢٥

السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أن الرسالة هي :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

فكان القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد
مضمون الرسالة : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير في القرآن ، مثل
قوله تعالى :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ .. (٢٤) [الرعد]

وهذا يعني أن الملائكة يدخلون على المؤمنين في الجنة من كل باب " ،
وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴾ (٢٤) [الرعد]

(١) الضمير في (عليهم) عائد على أولى الأبواب الذين وصفهم ربهم بصفات استحقوا بها دخول جنات عدن . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَتْلَمْ أَنَّمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ الْحَقِّ كَمَنْ هُوَ غَمِيٌّ ﴾ إنما يذكر أولوا الأبواب (١٩) الذين يؤفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (٢٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويتذكرون بالنعمة التي أولئك لهم على النار (٢٢) [الرعد] .

(٢) للجنة أبواب ، عدتها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبح الوضوء - ثم يقول : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر .

وقول نوح عليه السلام : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشراً لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ .. ﴾ (٢٤) [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (١)

﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٦)

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى . وكذلك نجد الحق سبحانه يُحنِّن قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنِّي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴾ (٦٥) [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشهم أو يخدعهم .

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَا آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٢) [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيتهم أصناماً تذكرهم بأعمالهم ، ثم تقادم الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٦]

واستقبل الملا من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا
مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا
الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَحْنُكُمْ كَذِيبِينَ ﴾



والملا - كما نعلم - هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون
مهابة ، ويتصدرون أى مجلس

وهناك مثل شعبى فى بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول : «فلان يملأ
العين» .

أى : أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء فى العين يرى غيره .
ويقال أيضاً : «فلان قيّد النواظر» أى : أنه إذا ظهر تقيّدت به كل
النواظر ، فلا تلتفت إلى سواء ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت
فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه .

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التى حول المركز ،
فَحَوْلُ كل مركز هناك دوائر ، والملا هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة
ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من
مركز ، فتشتت الدوائر .

وردّ الذين يكوّنون الملا على سيدنا نوح قائلين :

(١) الملا : أشراف القوم أو جميعهم .

(٢) الذين هم أراذلنا : أى : أفقرنا وأحق الناس فى نظرنا .

بادى الرأى : ظاهره الذى لا روية فيه ، أى : رأى سطحي غير متعمق .

ورقى : مبادئ الرأى : أى : بدء الرأى وأمله من غير روية أيضاً [الفاموس القويم] .

[هود]

﴿ مَا فَرَأَيْكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا .. ﴾ (٢٧)

أى : أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سودك^(١) علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ الملاك^(٢) أسوة لهم .

ولذلك بين الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٤)

[الإسراء]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قل لهم :

﴿ .. لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

إذن : فالرسول إنما يجيء مُبَلِّغٌ منهج وأسوة^(٣) سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

(١) سودك علينا : جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وتنهانا .

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم . وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجناس . ولذلك عندما قال مشركو مكة : ﴿ .. لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ قبل لهم : ﴿ .. وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ لَمْ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ (٨) ولوجملناه ملكاً لعباده رجلاً وللبنا عليهم ما يلبسوه ﴾ (٩) [الأنعام] . [بتصرف من تفسير ابن كثير ١٢٤ / ٢]

(٣) الأسوة : القدوة . والمراد بها هنا : القدوة الحسنة التى ينبغى على الجميع الاقتداء بها . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٥) [الاحزاب] .

سورة هود

٦٤٢٩

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد في أى حديقة من حدائق الحيوان ،
يصول ويجول ، ويأكل اللحم النئ المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن
تفعل مثله ؟ . . طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ،
فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس ؛ ولذلك قلنا : إن الأسوة هي
الدليل على إبطال من يدعى الألوهية لعزير^(١) أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملائكة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِذُوا ﴾ .. (٢٧) [هود]

والأرادل^(٢) جمع «أرذل» ، مثل قولنا : «أفاضل قوم» ، وهى جمع
«أفضل» .

والأرذل هو الخسيس الدنىء فى أعين الناس . ورذال المال أى : رديئه .
ورذال كل شيء هو نفايته .

ونرى فى الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن ، يقوم بها
صغار البنين والبنات ، فيفصلون القطن النظيف ، عن اللوز الذى لم يفتح

(١) عزير : هو رجل صالح من بنى إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعيروه لعلمه بالتوراة وحفظه لها كما فى
الكتب حرفاً بحرف [القاموس القويم ١٨ / ٢] ، و [تفسير ابن كثير ٢ / ٣٤٨] ، وهو الذى ورد ذكره
فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مَاتَ عَامٌ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا
فُتِنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥) ﴾ [البقرة] .

(٢) رَذَلُ الشيء ، رَذَالَةً ورَذُلَةً : صار خيساً وديئاً ، فهو رَذُلٌ .

والأرذل : اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة . وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَدُّ إِلَى أَرْذَلِ
الْفَعْرِ .. (٦٠) ﴾ [النحل] أى : إلى الهرم والمعجز . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً وَأَنْجِ الْآرْضَ وَالْأَنْفُسَ ﴾ [الشعراء] ، أى : أنقذ الناس ، فى نظرنا . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِذُوا ﴾ .. (٢٧) [هود] . أى :
أفقرنا وأحق الناس فى نظرنا . [القاموس القويم] .

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون في موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب .

إذن : فرذال كل شيء هو نفايته .

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧]

أى : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع .

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم في موضع آخر :

﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]

ولم ينف نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى في المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المخلص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة الحمديّة مثل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، ورضى الله عنهم .

ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراحِل^(١) الألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراحل : جمع مرجل ، وهو كل ما طبخ فيه من قدر وغيرها . وقيل : هو القدر المصنوع من النحاس خاصة . [انظر : اللسان ، مادة : رجل] .

078210000000000000000000

(١) آفة الشيء: الخطأ الذي فيه ، أو نقصه ، أو عيبه . [راجع : لسان العرب - مادة أوف]

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِّرُوا ﴾ (٢٧) [هود]

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ (٢٧) [هود]

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى ^(١) هي ﴿ بَادِي الرَّأْيِ ﴾ .

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِي الرَّأْيِ ﴾ (٢٧) [هود]

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلقى إلى الإنسان أي شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بأمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقبوا دعوتك وتأملوها ونظروا في عواقبها بتدبرٍ لما آمنوا بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٣٤٢) : «يجوز أن يكون «بادي الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «بادي الرأي» أي أول الرأي ، أي : اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون ، ولو آمنوا النظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز .»

ويكشف الحق سبحانه هذا الغيب فيهم ، فقول الملائكة بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقل وتبصر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه^(١) .

إذن : فهذا الملائكة الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعفاء أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرين ، فهم الذين يقدمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعفاء تصب عند الغنى أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعفاء الذين يعطون الخير من كدهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تمة السيادة .

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور في لسان الغريب : «معناه : أن المرء يعلو الأمور ، ويضبطها بجنته ولسانه» .

وحين نمنع النظر لوجدنا أن سيادة الثرى أو صاحب الجاه إنما تأتي نتيجة لمجهودات من يقال عنهم: إنهم أراذل.

ولو أنهم تخلّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً.

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملائكة الكافر من قوم نوح:

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التي تتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ (٣٢) [الزخرف]

إذن : فالحق سبحانه هو الذى قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغنى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذى موهبة ليست فى سواه .

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفِعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

(١) المقصود بالقريتين: مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى المقصود بالرجلين ، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف ، ثم قال : «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان» تفسير ابن كثير (١٢٧/٤) .
(٢) سخرية: أى : يُسَخَّرُ بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا . قاله السدى وغيره . (تفسير ابن كثير (١٢٧/٤) ونقل ابن منظور فى اللسان : «سخرية: عبيداً وإماء وأجراء» .
راجعته على الأصل وخرج أحاديثه صاحب الفضية الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر والاستاذ / عادل أبو المعاطي .